

حكايات من أغاني الأصفهاني



# يوميات المغنين والجواري

كمال النجدي

كل من كان ذاهباً وحريراً  
غير محبوباً الموت يشتري



دار الهلال

الناشئ

حكايات من الأغاني

# بوراك النجدي والجزيرة



بقلم  
كمال النجدي



دار الهلال

الغلاف مريشة  
الناصري  
الفنان بهجت عثمان

## مقدمة

قبل ألف سنة كتب أبو الفرج الاصبهاني ، أو (( الاصفهاني )) كتاب الاغانى ، فصار من أشهر الكتب فى عصره ، ولبت محتفظا بسهرته وقيمتة هذا الزمان الطويل ، وسوف يبقى كذلك ..

فان (( كتاب الاغانى )) موسوعة ممتعة باهرة ، للادب والفن والتاريخ والاخلاق والمروءة والفكاهة والشجاعة ، وكل شىء تنريبا .. شهد بذلك طلاب العلم وطلاب التزاة وطلاب التسلية ، على امتداد العصور التى قرىء فيها هذا الكتاب الممتع الفريد .

وطوال مئات السنين ، حاول كثير من الادباء (( اختصار )) كتاب الاغانى ، او (( تلطيف )) حجمه الضخم ، بتجريد من الغننة والاستطراد والتكرار وبعض الحكايات ، فاجتمعت فى المكتبة العربية عدة مختصرات للاغانى ذهب أصحابها مذاهب مختلفة فى الاختصار والتجريد والانتقاء ، وظن كل منهم أن عمله أوفى بالفرض من سواه ، واجتهد فيه ما وسعه الاجتهاد ..

وفى عصرنا وجد كاتبو (( الدراما )) مادة لاعمالهم فى (( كتاب الاغانى )) فانقلب صفحات كثيرة من هذا الكتاب العظيم ، الى مرئيات ومسودعات درامية ، ولكن ما يصلح للدراما من هذا الكتاب يحتاج الى التصرف الواسع ، بالحذف او الاضافة او التخييل او التعمل الذى يخرج به عن أصله ! ..

ولم يبق بعد هذا كله مجال لا للتجريد والاختصار ، ولا للاعمال الدرامية الا فى الليل ، ولا يحسن أن ننسج على نفس المنوال فنختصر أو ننتقى او نجرد أو نبني من صفحات الكتاب العظيم اعمالا درامية ، فذهبنا فى النظر اليه مذهبا آخر ، يعلو فيه قدره فوق الاختصار والتجريد ، وفوق التدوّن مرئيا أو مسموعا ، وحاولنا أن نقدم الكتاب جديدا جذابا ، ولكن بلا هدم لأصله فى اللغة والرواية والروح ادرية والغنية التى كتبه بها قبل ألف عام صاحبه الاديب الفنان العبرى أبو الفرج الاصبهاني .

لهذا جاء كتابنا هذا الجديد ، فى شكل يوميات للشخصيات التى تعيش على صفحاته ، ولكن القصص الكبيرة والحوادث التاريخية ثابتة فيه متماسكة ، وان لم تتعاقب وتتشابك ، كتعاقب الليل والنهار ، ساعة بعد ساعة ! ..

فاذا قرانا الفصول الزاخرة التى كتبها أبو الفرج ، راعنا كثرة الايام التى تفصل بينها الايام والشهور والسنون .. فتجرب حكاية من الحكايات

فى هذا اليوم ، ثم تتلوها حكاية فى ذاك اليوم ، وبينهما عشرون عاما ، فمن هنا تضافت أيام كتاب الاغانى وتباعدت وتقاربت وتداخلت ، وعلى هذا الاساس جمعناها فى كتابنا هذا ، فجعلنا الحكاية يوميات ، وجعلنا اليوميات تتسع فى الزمان أو تنقص كما يقتضى المقام ، فقد نبسط يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تتركز فى أيام أو ساعات ..

وكتاب الاغانى حافل بقصص وحكايات عن القادة والزعماء والعلماء والصلحاء والشعراء والادباء ، فضلا عن المغنين والمغنيات ، وقد أثرنا أن نبدأ بما كتبه عن المغنين والمغنيات فى هذا الجزء الذى نرجو أن تملوه أجزاء تستكمل بقية قصص الكتاب عن أهل الغناء من المطربين والجواري ثم عن غير هؤلاء من أبطال الكتاب الذين تتألف من سيرتهم صورة تامة للملاحم لمجتمع العصر العباسى الاول وما قبله من العصور الاسلامية والعربية ..

والغناء هو أصل كتاب الاصبهانى ، وانما استطرده من قصص الغناء الى النقص الاخرى .. فجاء بما لم يسبقه اليه أحد فى التأليف ، وجعل كتابه هذا معرضا للغة الصحيحة والبيان الرفيع ..

وحين أخذت فى كتابة هذه اليوميات الغنائية ، بدا لى أن أحاول الاقتراب بأسلوب الكتابة فند الاستطاعة ، من أسلوب مؤلف الاغانى العظيم الذى هو أمام فى البلاغة ، ونسج وحده فى صياغة الكلام ، والتعلق به يمنح كتابنا هذا نفعة من عقب التاريخ ، مع التزامنا بتقريبه الى قارئنا المعاصر ، لهذا أبقيت شلرات واضحة من أصول الكتاب العظيم العريق ينسجم القارئ عبرها خلال السطور ، وحاولت تطويع النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى الذى تم فيه تأليف « كتاب الاغانى » لمقتضيات الكتابة فى أيامنا ، لكيلا يقع فى كتابنا هذا تفاوت بين طبقات التعبير ، أو تنافر بين القديم والجديد .

ولست أظن طريقتى هذه أمثل الطرائق ، ولكننا - فيما يبدو - غير مسبوقه فى بابها ، وقد لا تكون كذلك ، إذ لم نطلع على كل ما أخذ المؤلفون من كتاب الاصبهانى ، ولكنى أرجو لها على أية حال كرم التبول من قرانها ، وسماحة الاغضاء عن هفاتها ..

ولعلنا بهذه الطريقة نسهم فى عقد صداقة بين القارئ العصرى وبين كتاب عظيم قرأته الاجيال أكثر من ألف سنة .. كتاب الاغانى للاصبهانى ، أو الاصبهانى ! ..

كمال النجمى

## حكاية أول مطرب في المدينة

### ● اليوم الاول :

انا - ولا فخر - أول من رفع عقيرته بالغناء في المدينة المنورة بعد أن خرجت من ظلام الجاهلية الى نور الايمان !  
لا أضرب بالعود مثلما يفعل الآخذون من غناء الاعاجم ، كابن مسجج في مكة ، وسائب خاثر في المدينة ، ولكني أنقر بالدف وأتمشى به خلال الغناء بين صفوف المستمعين ، أحسن مشية ، على مذهب أهل الحجاز في التمشي على نقر الدفوف ! ..

صوتي أجمل الاصوات ، كما يقول العرفاء بالغناء ، ولو أنصفني الدهر لاغتنيت من صناعة الغناء ، ولكني - لكي أعيش - أجمع الى هذه الصناعة الجيلة ، صناعة الاضحاك والتسرية عن السراة من أهل المدينة واني لاكسب من أضحايكي ونوادري أكثر مما أكسب من غنائي ! .. فان الناس لايتخرجون من سماع النواذر والاضحاك أما الغناء فيتأثم منه اكثرهم ، الا من كانت في طبيعته سحابة وأريحية كعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أشده الناس معرفة بالدين وعملا بأحكامه ! .. وقد انتزع للمغني سائب خاثر عطاء من الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، أخرجه له من بيت المال مع أعطيات أهل المدينة ، وقال ابن جعفر لمعاوية وهو يذكر له أحقية سائب خاثر في عطاء من بيت المال

- حسب هذا الرجل من فضل ، تحسينه الشعر بصوته وألحانه !

لم يعترض معاوية ، وأعطى سائب خاثر ما اقترحه له ابن جعفر من عطاء ! ..

أما أنا فما أخذت درهما واحدا من بيت المال ، فلا عطاء لي ، بل أنا مطارد منهم بالعيب والفساد ! ..

اسمى عيسى بن عبد الله ، ولقبني « طويس » وقد نسي الناس اسمي فلا يذكرون الا لقبى أصلي عجمي ، وسادتي من بني مخزوم في قريش .. نشأت بالمدينة أدخل بيوتها فلا يحجبونني ، فعرفت دخالهم ، وحفظت أنسابهم ، وصحبت أمي في طوافها بيوتهم تخدمهم وتمشي بالأنميمة بينهم ، فتعلمت منها النميمة والوقيمة ، ومشيت بهما بين الناس كما مشيت

امى من قبل حتى اتقونى لحدة لسانى وطوله وخوضه بالوشاية والنميمة  
فى كل مجال ! .. ولكنى - والله - أفعل كل ذلك بحسب نية ! ..

وانا ممتع الحديث حاد الفهم ، أرعى واحفظ حق المجالسة ، وأعظم  
موالى من بنى مخزوم ومن اليهم من سائر قريش .. مسالم لا أحب التحكيك  
بأحد ، الا من ظلمنى ، فانى اقتصف منه ، والبادىء اظلم ! ..

ابناء المهاجرين والانصار فى المدينة يكتنفونى ويحبسون مجالستى  
وينصتون الى حديثى ، ويشتهون غنائى .. ولولا ما اشاعه أعدائى حولى من  
سوء القالة لما بقى أحد من قريش والانصار الا ادنانى وأعطانى ! ..

يقولون انى على ظرفى وحلاوة غنائى ، مشنوم ! .. فقد ولدت يوم مات  
النبي صلى الله عليه وسلم ، وفطمت يوم مات أبو بكر الصديق رضى الله  
عنه ، وختنت يوم طعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين  
وتزوجت يوم قتل الناثرون عثمان بن عفان ، وانجبت ولدا يوم مقتل على  
ابن أبى طالب .. ولدا آخر يوم مات الحسن بن على رضى الله عنهما ! ..

وانا رجل طويل احول ، ولدتنى امى بعين واحدة هى هذه العين الحولاء  
اما الاخرى فولدتنى بها عمياء ! .. لكنى برغم ذلك أحسن الناس علما وطرفا  
وحسن غناء وجودة نقر بالدف ، واضحك التكللى بتراورى ! ..

أقرأ كتاب الله ، ولست مثل ذلك الشخص المختل الذى قبض عليه  
حاكم المدينة فقال له

- أيها الرجل هل تقرأ أم الكتاب ؟

فقال المختل :

- والله ما أقرأ بناتها ، فكيف أقرأ أمهن !

فقتله حاكم المدينة ، وكان محقا فى قتله ! ..

وبعض الناس يحاولون أن ينسبونى الى هذا النوع من الاشخاص ، وكل  
من ينسبني اليهم فهو عدوى أو حاسد .. والله بينى وبينه .. وسأتعلق  
برقبته يوم القيامة أطلب الاخذ بحقى منه !

## ● اليوم الثانى :

جاء ابان بن عثمان بن عفان أميرا على المدينة من قبيل الخليفة عبد الملك  
ابن مروان .. فلما دنا منها تلقاه أهلها ، وخرجت معهم فسلمت عليه وهو  
يعرفنى وقد سمع غنائى مرات .. فقلت له : أيها الأمير ، انى كنت أعطيت  
الله عهدا لئن رأيتك أميرا لاختصم يدى بالحناء الى المرفقين ثم أقفى  
بالدف بين يديك وأعنى وأمشى على نقراته أحسن مشية رآها أهل الحجاز  
كله ! ..

ثم أخرجت يدى مخضوبتين ، وأخرجت دفى وتقنيت



## ما بال أهلك يا وباب

### خزوا كانهم غضاب

فطرب ابان بن عثمان حتى كاد أن يطير ، وجعل يقول لى : حسبك يا طائوس ، ولا يقول لى : يا طويس ، حتى لا يصغر اسمى ، ثم أمرنى بالجلوس ، وقال لى متبسطا متفكها :

— قد زعموا انك كافر يا طويس ! ..

قلت :

— جعلت فداك ! .. والله .. انى لاشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأصلى الخمس ، وأصوم رمضان ، وأحج البيت ! ..

قال الامير :

— فانت أكبر سنا ام أخى عمرو بن عثمان بن عفان ؟

قلت :

— أنا والله كنت غلاما صغيرا أتمثر فى أذيال نساء قومى يوم رُفِت « أمك المباركة » الى « أبيك الطيب » ! ..

فاستحيا الامير ابان بن عثمان وأطرق الى الارض عندما ذكرت له زفاف أمه الى أبيه !

غير انه أعجب بفطنتى وحذقى ورقة أدبى ، فانى لم أقل له : « أمك الطيبة » الى « أبيك المبارك » .. لأن ذلك يحمل معنى فى لغة العرب ، يعرفه الرجل اذا خلا بالمرأة « الطيبة » التى تلذ الخلوة بها ! ..

ثم قال لى وقد رفع رأسه :

— يقولون انك مشنوم .. فما بلغ من شؤمك ! ؟ ..

فذكرت له ما يتناقله الناس عنى فى هذا الباب ، فضحك وقال لى مداعبا :

— اخرج فنى ، أبعدك الله ! ..

### ● اليوم الثالث :

أمطرت السماء اليوم مطرا شديدا الغزارة أسال كل شيء حتى صار وادى العقيق بالقرب من منزلى فى المدينة يرمى ماؤه بالزبد كأنه نهر القرات ، فخرجت أتتزه فى هذا اليوم المطير الذى يطيب فيه الهواء ، فوجدت عند العقيق عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، سيد بنى هاشم يتنزه هناك مع صحب له بينهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ..

استدنانى ابن جعفر ، والسما تذهب انهما را بالغيث ، فقال لاصحابه :

— هذه سماء خليفة ان تيل ثيابنا ، فهل لكم فى منزل طويس فانه قريب ، فتمسكن فيه ، ويحدثنا ويضحكنا ويفيننا ! ؟ ..

قال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت  
- جعلت فداك ، وما تريد من طويس المختث عليه غضب الله ؟  
قال له عبد الله

- لا تقل ذلك ، فانه مليح خفيف ، لنا فيه انس ١٠٠  
فاظني كلام عبد الرحمن بن حسان ، ولكن لم اكد اسمع قول عبد الله  
ابن جعفر حتى تعجلت الى منزلي فقلت لامراتي  
- ويحك ! قد جاءنا عبد الله بن جعفر سيده الناس ، فما عندك من  
طعام ؟ ١٠٠

قالت

- نذبح هذه العنز السمينة !  
فذبحنها واختبزنا خبزا راقا ، وخرجت فتلقيت عبد الله بن جعفر مقبلا  
وصحبه ، ومشيت بين ايديهم حتى نزلوا داري ، فحدثتهم وضحكتهم حتى  
جاء الطعام ، فاكل ابن جعفر واكل القوم ، فاعجبه واعجبهم طعامي ٠٠ فلما  
غسلوا ايديهم ، استأذنته في ان اغنى شيئا ٠٠ ثم غنيت :

يا خليلي نابني سهلي  
لم تنم عيني ولم تكسد  
فشرابي ما اسبيغ وما  
اشمتكي ما بي الى احد  
كيف تلحوني على رجل  
انس تلتذه كبدي ؟  
نظرت يوما فلا نظرت  
بعده عيني الى احد

فطرب القوم وقلت لابن جعفر  
- اتدري يا سيدي لمن هذا الشعر ؟

قال :

- لا والله ، ما أدري لمن هو ، الا اني سمعت شعرا حسنا في غناء حسن  
قلت :

- هذا الشعر للعارفة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت وكانت تتعشق  
عبد الرحمن بن الحارث المخزومي فقالت فيه هذا الشعر !

فنكس عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رأسه الى الارض حتى التصق  
رأسه بصدره خزيا ، فلو انشقت الارض له لدخل فيها ، من سوء ما سمعه  
عن عمته ! ٠٠

هكذا انتقمته منه لنفسي ، اذ وصفني بالتخنث ودعا على بفضب الله ،  
ونهى عبد الله بن جعفر من النزول في داري . ٠٠

## ● اليوم الرابع :

قدم مطرب مكة المشهور عبيد بن سريج المدينة فغنى أهلها فاستحسنوا غناؤه ، وقدموه على كل من غناهم من المطربين ، وطلعت عليهم فسمعتهم يبالغون في مدحه ، وهو بينهم منتفش كالديك ، فاستخرجت دفا من حضنى ونقرت به وغنيتهم حتى طربوا ، وصاح ابن سريج

— هذا والله أحسن الناس غناء ، وإن كان لا يضرب بالعود ولا يصرف نغماته ! ..

وابن سريج هذا هو أحد فحول المغنين الذين أخذوا من فنون الفرس والروم في ضرب العود ، وعربوا هذه الفنون ، واستبعدوا منها ما لا يتفق وذوق العرب ولغتهم وباطن قلوبهم ونفوسهم .. وقد رأيت من هؤلاء المغنين في المدينة نشييطا الفارسي وسائب خائر وجميلة المغنية البارعة .. أما في مكة فاستأذهم ابن مسجح ، وعنه أخذ ابن سريج ثم زاد عليه حتى لم يعد أحد يذكر ابن مسجح ! ..

قلت لابن سريج

— أنا والله أول من صنع غناء الهزج والرمل ، والناس يضربون بى المثل فيقولون « أهزج من طويس » ! ..

قال ابن سريج

— صدقت والله ، وما سمعت قط مثل هزجك ، ولكنى فى الرمل — بفتح الميم — أبرع خلق الله !

فعجبت لثنائه على نفسه ، ثم ذكرت انى سبقته بالثناء على نفسى ، فزال عجبى !

## ● اليوم الخامس :

رأيت جارية حسنة المشية ، جميلة الوجه ، فتبعتها ، فراوغتنى ولم تكلمنى ، فلم أنقطع عنها ، فأسرعت فى المشى لتبعد عنى فلم أنقطع عنها ، فلما هرت بمجلس حافل بالناس ، وقفت فقالت لهم

— يا هؤلاء .. لى صديق لى زوج لى مولى يملكنى ، فسلوا هذا الصفيق ما يريد منى ؟! ..

فخرجت من قولها حتى تمنيت انى لم أمش وراءها خطوة واحدة ! .. ثم تمالكث جاشى حين انصرفت المرأة فغنيت القوم غناء جميلا حتى أنسبهم قبح ما صنعت معها ، فلما طربوا وضعت دفى فى حضنى وقلت لهم

— اكتبوا على هذه الزلة ، فانى ما تبعت هذه المرأة لريبة ، ولكن أعجبتنى مشيتها ! ..

قالوا

قد سترنا عليك هذه الزلة فلا تعد الى مثلها !

## أستاذ المطربين

### ● اليوم الاول :

الناس يسمعون غنائي فيطربون أشد الطرب ويقولون لي انك يا سعيد ابن مسجح لمنقطع القرين في صناعة الغناء ، والمقدم بين المطبوعين البارعين فيها ، وانك لتفنى على مذهب في هذه الصناعة اشتقته لنفسك على غير مثال سابق في غناء العرب ، فكيف تم لك ذلك ؟!

أرجع بذاكرتي الى أيام طفولتي وأقول لهم كنت في صباى مملوكا لبعض السادة في مكة ، أخلو بنفسى قاترنم ، فسمعتنى مولاى مرة فأعجبه غنائى وقال لي ليكون لك يا غلام شأن ، فان لك حلقا طيب المسحوع ، كأنك طويس أو سائب خاتر

ولم أكن فى ذلك العهد أعلم شيئا عن طويس أو سائب ، ولا أعرف كيف يغنيان ، فانهما مطربان كباران فى المدينة المنورة ، وأنا غلام صغير أسود مسكين فى خدمة سيد من سادات مكة !

فاتفق بعد ذلك أن معاوية بن أبى سفيان ، وقد صار خليفة ، أراد أن يبنى بيوتا له فى مكة ، ولم يكن فيها من البنائين من يتقن بناء المنازل الملوكية الفخمة ، بالأجر الأحمر والجص الأبيض والرخام ، فاستجلب معاوية بنائين من بلاد فارس ، فكنتم أسمعههم يتغنون فى أثناء البناء بالآغاني الفارسية ، فأعجبني الكثير من غنائهم ، فلزمتهم ، أصيخ اليهم ، وأنقل ما أنتخيه وأستحسنه من الحانهم الى الشعر العربى ، متصرفا فى اللحن على مقتضى الذوق العربى الذى ينفر من تنطع الاعاجم !

سمعتنى مولاى بعد أن برعت فى تركيب الالحان الفارسية على الكلام العربى فقال لي : من أين لك هذا الغناء العجيب ؟!

قلت سمعت هذه الاعاجم التى تبنى بيوت أميرا المؤمنين تتغنن بالفارسية فقلبت بعض ما استحسننت من الحانهم الى الكلام العربى ! .. فهتف بى سيدي معجبا اذهب فانت حر لوجه الله !

صرت حرا فطلبت الشعر والادب ، واتسعت فى الغناء ، وصنعت لنفسى الحانا لم أسمعها من الفرس ولا من غيرهم فافتتن الناس فى مكة ببا صنعت وقالوا لي أنت زهرة أصحاب هذه الصناعة ، وانك فيها لخير من مطربي المدينة فهذا الذى تعمله هو نظام هذه الصناعة وقوامها وعمادها ،

وسيتبعك في هذا الطريق كل مغن ومغنية في مكة والمدينة ! ..  
هكذا استفتحت باب الخبر في صناعتي وانقلبت الى الرفاهية والرغد  
والسعد في الحياة ، وصار لي تلاميذ يتعلمون مني ، فمنهم ابن سريج أحسن  
الناس صوتا ، ومنهم الغريض النائح المطرب وغيرها ! .. وصرت بحمد  
الله أستاذ المطربين ..

ثم رحلت الى الشام وأخذت من الحان الروم شيئا وحورته الى الدورق  
العربي وزدت عليه من صناعتي ، وقصدت الى فارس فتعلمت ضرب العود  
واشترت عيونا كثيرة ، ثم عدت الى مكة وقد أخذت محاسن تلك النغم ،  
وصدفت عما استقبحت من النبرات والانغام ، وهي كثيرة في غناء الروم  
والفرس ، تخرج عن غناء العرب ولا توافق أعاريض أشعارهم وقوافيها  
وتوزينات كلماتهم واستتبعت مذهبا في الغناء العربي ، جديدا متقنا  
ولحنت الاشعار فيه ، وتبعني المقنون في هذا المذهب حتى تكاثروا

### ● اليوم الثاني :

تدقضي الايام وصناعة الغناء في مكة تزدهر ، وأنا على رأسها ، وقد  
رحلت الى المدينة مرات وسمعت مطربيهها وليس فيهم حتى الآن من يتقن  
الغناء على العود ، ولكن بعضهم سمع الغناء الفارسي والرومي وأخذ منه  
شيئا وبني عليه غناء عربيا ، فكأنه كان معي في ذلك على ميعاد ..

ونحن الآن في زمان ممرع معشب بالفتن الجسام مات معاوية وابنه  
يزيد ومروان ، وجاء اثنان يتنازعان الخلافة أحدهما في دمشق وهو عبد  
الملك بن مروان .. والاخر في مكة وهو عبد الله بن الزبير ..

والحرب بينهما لا تنقطع ، وفي بلدنا مكة تغيرت أحوال كثير من الناس ،  
فأصاب الخمول أناسا ، وارتفع آخرون ، وإن خمول مائة من فضلاء الناس  
لاهون عندي من ارتفاع شخص واحد من السفلة !

احترق المسجد الحرام في معسارك ابن الزبير وابن مروان .. فان ابن  
الزبير سمع ذات ليلة أصواتا فوق الجبل فخاف أن يكون جند ابن مروان  
قد وصلوا الى مكة ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة صعبة ورعد وبرق ،  
فرفع نارا على رأس رمح لينظر ما يجري من حوله ، فطارت الريح النار  
فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها وتساقطت الكعبة ، وماتت امرأة من  
قريش في الحريق ، فخرج أهل مكة كلهم في جنازتها خوفا من أن ينزل  
الله العذاب بهم ، وسجد عبد الله بن الزبير ، يدعو ويقول « اللهم اني  
لم أتعص ما جرى ، فلا تهلك عبادك بذنبي ، وهذه ناصيتي بين يديك » !

فلما مضى يوم ولم ينزل العذاب على الناس ، ابتدأ ابن الزبير يهدم  
ما تبقى من الكعبة ، وتبعه القعدة ، حتى بلغوا الى قواعدها ! ..

ثم دعا بنائين من الفرس والروم ، فأخذوا في بنائها !

مررت بالمسجد الحرام وهؤلاء الروم والفرس يبنونهم وينشدون أغانيهم

فأعادني ذلك الى صباى ، حين سمعت أغانيهم لأول مرة ، وبنيت عليها  
مذهبي فى الغناء !

تبدو لى أغاني هؤلاء الناس الآن ساذجة كثيرة النشاز ، متشابهة فقيرة  
الالحان ! .. وأين هى مما صار اليه الغناء العربى فى وقتنا هذا من الثراء  
النفسى الباذخ والايقاعات المبتكرة التى لا يفرقها الفرس ولا الروم ! ..

لقد اتخذ الغناء العربى سمنا خاصا به ، وارتفع شأنه ، وانحدر غناء  
هؤلاء الاعاجم والموالى وعاقته أسماع العرب ، فلا تجد أحدا الآن يصغى  
اليه ! ..

### ● اليوم الثالث :

وضعت الحرب أوزارها بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ،  
بعدهما رأينا الحجاج بن يوسف قائد المروانيين يرمى الكعبة بحجارة  
المجانيق فتتهمد مرة أخرى عقب أن بناها ابن الزبير .

انتهت الفتنة بهزيمة عبد الله بن الزبير ومصرعه ، ودخلت مكة كما دخل  
الحجاز كله فى طاعة عبد الملك بن مروان ، ووطأ الحجاج الثقفى له المناير ،  
وفتح له بعد السيف قلوب الرجال ، فملاها رهبا ورغبا ..

وجاء الينا فى مكة والد جديد من رجال عبد الملك ، فأسرع اليه بعض  
حسادى يزعمون ان فتيان مكة انشغلوا بى عن كل شىء ، وانفقوا أموالهم  
على سماع غنائى ! .. فكتب الوالى الى الخليفة فى أمرى ، وحرصه على  
اخراجى من مكة ومعاقبتى ، فأرسل اليه الخليفة يأمره بمصادرة أموالى  
وتسييرى الى دمشق ليحاسبينى بنفسه على جنايتى ! .. فأمرنى الوالى أن  
أمضى الى الخليفة فى دمشق ، وحذرنى مغبة أمرى ان توانيت أو هربت !

دخلت دمشق بعد رحلة طويلة شاقة ، وليس فى كيسي الا درهمسات  
بقيت لى بعد المصادرة ، فوقفت عند مسجدتها فسألت أحد الخارجين من  
الصلاة :

— من أخص الناس بأمير المؤمنين هنا ؟

قال :

— هؤلاء النفر من قريش من بنى عمه !

فسلمت عليهم وقلت

— يا فتيان .. هن فىكم من يضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟!

نظر بعضهم الى بعض ، وسمعت أحدهم يقول ضاح والله موعدنا مع  
« برق الافق » ! ..

تناقلوا عن اجابتي ، على ما فيهم من كرم ، الا فتى منهم هزته أروعيته  
العربية فقال : أنا أضيفك أيها الحجازى ! ..

ثم قال لاصحابه

- انطلقوا أنتم الى دار برق الافق ، وأنا اذهب مع ضيفي الى داري ..  
قالوا

- لا .. بل تجيء أنت! وضيفك معنا ! ..  
ذهبنا جميعا الى بيت برق الافق ، وهي مغنية في دمشق ، تفتنى في دارها جوارى مغنيات تبرهن لعلية القوم من بنى أمية ، فيتغنين لهم ويفرن بجوائز وهدايا وتفوز ربة الدار بنصيب الاسد ! ..  
فلما أتوا بالفداء قلت لهم على استحياء :

- اني رجل اسود ، ولعل فيكم من لا يحب الاكل ممي ، فانا اجلس ناحية وأنناول طعامي ! ..

فلما فرغوا من تناول الطعام ، وفرغت أنا أيضا ، جىء بالشراب ، فشربوا وشربت ، ثم أخرجت « برق الافق » لنا جارتين من جواريهما المغنيات ، فكانها أطلعت علينا قمرين مضيئين ، أو شمسين تبهران العيون .. فتحدثت هذا البيت

فقلت شمس أم مصاصيح بيعة  
بدت لك خلف السجف ام أنت حالم

ففضبت احداهما وقالت

- يضرب هذا الاسود بنا الامثال ١٩

وقال لي بعض الحاضرين

- قم فانصرف فقد ثقلت علينا !

فلما تهيأت للقيام أمسك بي الرجل الذي أضافني وقال

- بل اقم معنا واحسن أدبك !

غنت احدى الجاريتين لحنا مشهورا من الحاني يتردد على حناجر المغنين والمغنيات من مكة الى المدينة الى دمشق ، فأساءت أداءه وكثر خطؤها حتى استغفرتني فوثبت قائلا

- أخطأت وأسأت !

فنظر القوم الى نظرا منكرا ، واعتذروا للجارية الفاضبة ، فلم تقبل اعتذارهم وامتنعت من الغناء ..

وغنت الجارية الاخرى لحنا من الحاني أيضا فاخطأت في بعض أقسامه ، ولكنها كانت أفضل من الجارية الاولى ، فقلت لها :

- أحسنت ، ولكنك لم تكمل احسانك ! ..

ثم اندفعت بتبر اذن منهم ، فغنيت هذا اللحن على وجهه الصحيح ، فوثبت الجارية تصيح

- هذا والله أبو عثمان سعيد بن مسجح ! ..

قالوا لها

- ومن أدراك !؟

قالت

- هذا الاحسان في الغناء لا يبلغه الا ابن مسجح ! ..

قلت :

- انى والله انا هو !

فالتفت القوم حولي وقد اكبروا شأنى ، فغنيت لهم الى آخر الليل ،  
ثم سالوني عما أقدمنى الى دمشق فأخبرتهم ، فقال الرجل الذى أضاعنى  
- انى أسمع غدا مع أمير المؤمنين ، وهو لا يسمع الغناء ، فهل تحسن  
الحداء !؟

- نعم ! .. وان كنت لم أحد قافلة ولا جملا واحدا طوال حياتى !  
ومضى صاحبنا من الغد الى عبد الملك بن مروان وحده عني ، وعن براعتى  
فى الحداء .. فلما مثلت بين يديه حدثت :

انك يا معاذ يا ابن الفضل

ان زلزل الاقدام لم تزول

فقال عبد الملك لصاحبه القرشى

- ان حداءه لحسن ، فمن هو !؟

- رجل حجازى قدم قاصدا أمير المؤمنين !

- قال لى الخليفة

- هل تغنى غناء الركبان !؟

فغنيتنه واستحسنه .. فقال

- هل تغنى الغناء المتقن !؟

فغنيتنه بعض الحانى فاهتز الخليفة طربا وقال لى وهو يتفحصنى

- من أنت !؟ .. ان لك لقصة !

- نعم يا أمير المؤمنين أنا المظلوم الذى صودر ماله وأخرجته والى  
مكة من وطنه ! .. أنا سعيد بن مسجح ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى

فتبسم عبد الملك وقال

- قد وضع الآن عذر فتیان قريش فى أن ينثقوا عليك أموالهم !

وأمر لى بجائزة ، وكتب الى عامله فى مكة أن يرد الى أموالى ، وألا يتعرض  
لى بسوء ! ..



فدائے مملکت و آلاء مملکت و آرزوی



و شریک مملکت و آرزوی

## وجه الباب

### ● اليوم الاول :

الناس يلقبوني « وجه الباب » وأنا لا أغضب من هذا اللقب ، أما اسمي فهو أشهر الاسماء في المدينة ومكة والحجاز والشام ، فانا « ابن سريج » أمير الغناء في عصرى هذا ، لا يبارئنى أحد ، حتى الذين سبقونى الى الغناء المتقن ، فان لهم فضلهم ، ولكنى زدت عليهم بما اخترعت وأضفت الى هذا الفن !

يتعجب الناس من العود الذى أضرب عليه وأغنى وفق نغماته ، وهو على مثال عيذان الفرس ، وقد رأيت مثله مع العمال العجم الذين قدم بهم عبد الله بن الزبير لاعادة بناء الكعبة بعد ان احترقت وتهدمت .. وأنا فى الضرب بالعود أشد حذقا من كل المطربين ، ولم يسبقنى أحد الى الاخذ عن غناء العجم الا ابن مسجح فى مكة وسائب خاثر فى المدينة ، ولكنى تقدمت عليهما .. ثم انتهى أمرهما وبقيت ! ..

اذا غنيت أسدلت قناعا على وجهى ، ذلك اننى أحول ، ولا أحب أن يرى الناس الحول فى عيني فانه يزداد حين أغنى ! ..

وأنا أحمر الوجه لان أبى كان مملوكا تركي الاصل ، نشأ عند سادته من بنى نوفل بن عبد مناف .. وعاش فى مكة ، وولدت له فيها ، ونشأت هناك وتكلمت بفصاحة قريش ، ورأيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان وأنا طفل ، وحضرت الفتن والقتال فى عهده وبعد عهده ..

اسمى « عبيد » .. وابى هو « سريج » وكان يكنى « أبا يحيى » واسم أمى « راتقة » ، ولا أصل لى فى مكة الا أبى وأمى ، وصناعتى هى التاج الذى أضعه فوق رأسى ! ..

مرت الايام فصار لى منافسون .. أنا فى مكة فمعى مطرب ملحن قدیر اسمه « ابن محرز » .. وأما فى المدينة فان فن الغناء فيها قد انتهى الى اثنين بارعين أولهما « معبد » والآخر تلميذه « مالك بن أبى السمح » .

ويعترف الجميع لى بالسبق والاستاذية ، فان معبدا - على فضله وعلو قدره - اذا أعجبه غناؤه قال : أنا اليوم سريجي .. أى كانه « ابن سريج » فى احسانه وبراعته ! ..

وسمعت بعض المعجبين بى يقول

- ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتا من ابن سريج ،  
ولا صاغ الله عز وجل أحدا أحذق بالغناء من ابن سريج ! ..

وقال لى آخر

- كأنك يا ابن سريج قد خلقت من كل قلب ، فانت تغنى لكل انسان  
ما يشتهى قلبه ! ..

وأنا لم أبدأ حياتى مغنيا ، بل بدأتها نائحا ، يدعوني الناس لآنوح على  
موانهم ، ثم أرسل الحاكم الفاسد يزيد بن معاوية جيشه الى الاندلس بقيادة  
مسلم بن عقبة فقتل أهلها وأباحها لجنده ثلاثة أيام يفتكون فيها ويهتكون  
كأنها من بلاد الكفار وهى مدينة رسول الله وموطن أصحابه من المهاجرين  
والانصار !

فلما وقعت هذه الحادثة الفاجعة التى هزت الاسلام والمسلمين ، صعدت  
جبل أبى قبيس فنحت بهذا البيت

يا عين جودى بالدموع السافح  
وابكى على قتلى قرش البطاح

فبكى الناس من اللوعة ، ونكا غنائى جراحهم ، وكان هذا أول شهرتى ،  
وتقدمت على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف وغيرها ، وكانوا كثيرين ! ..

ثم بعثت سيدتى سكينه بنت الحسين الى دارى بمملوك لها اسمه  
عبد الملك ، اعلمه النياحة ، فلم أزل اعلمه مدة ، ثم توفى عنها محمد بن  
على الملقب « ابن الحنفية » ، وكنت عليلا علة صعبة فلم أقدر على النياحة  
فى ماتمه ، فانتدبت للنياحة مملوكها عبد الملك الذى تعلم على يدي ، فكان  
نوحه عند سامعيه غاية فى الجود ، وقيل وقتئذ هذا نوح غريض ، فلقبوا  
عبد الملك هذا بالغريض ، وقال لى بعض الناس يغيظنى :

- والله لقد ناح عبد الملك أجود نياحة ، حتى فضله الناس عليك ! ..

فحلقت الا أنوح بعد ذلك اليوم ، وتركت النوح الى الغناء .. وبدأ به  
مجدى الحقيقى ، ولكن نفصنى ان « الغريض » أيضا عدل عن النياحة الى  
الغناء ، فصارت بيننا منافسة ، وهو تلميذى ! .. ولكننى تفوقت عليه  
وتقدمت عنه جميع الناس !

## ● اليوم الثانى :

لقيت الفقيه العظيم عطاء بن ابي رباح ، فى موضع بمكة وأنا ألبس  
ثيابا مصبغة وفى يدي جرادة مشدودة الرجل الى خيط أطيرها به ثم أجذبها  
كما يفعل الاطفال فى ألعابهم ، فقال لى الفقيه العالم الزاهد العظيم :

- يا فتان ! .. ألا تكف عما أنت عليه ؟ كفى الله الناس مؤثنتك !

قلت

– وما على الناس من تلوينى ثيابى ، ولعبى بجرادتى ١٩ ؟  
قال :

– تفتنهم أغانيك الخبيثة ١٠٠ ؟  
قلت له :

– سألتك بحق من تبعتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
الاما سمعت منى بيتا من الشعر ، فان سمعت منكرا أمرتنى بالامساك عما  
أنا فيه ١٠٠ . وأنا أقسم بالله لئن أمرتنى بعد استماعك منى بالامساك عما  
أنا عليه لأفعلن ذلك فلا أغنى أبدا ١٠٠

فطمع الفقيه العظيم فى اقلاعى عن الغناء ، فقال لى  
– اذن قل

فاندفعت أغنى فى شعر جرير :

ان الذين غلوا بلبسك غادروا  
وشلا بعينك لا يزال معينا  
غيضن من عبراتهن وقلن لى  
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعنى عطاء بن أبى رباح – وهو الزاهد فى الدنيا وزخرفها –  
أضطرب اضطرابا شديدا ، ودخلته أريحية ، وحلف ألا يكلم أحدا بقية يومه  
الا بهذا الشعر ، وصار الى مكانه من المسجد الحرام ، فكان كل من يأتيه  
سائلا عن حلال أو حرام أو خبر من الاخبار ، لا يجيبه الا بأن يضرب يده على  
الآخرى وينشد هذا الشعر ، حتى صلى المغرب ١٠٠ ولم يعد بعد ذلك الى  
التعرض لى فى أمر الغناء ١٠٠

وقد أعجبني ذلك جدا ، فان ابن أبى رباح هو الفقيه الجليل الذى  
سمعت متاديا فى موسم الحج ينادى بأمر الخليفة  
– لا يفتى الناس فى الموسم الا عطاء بن أبى رباح ١٠٠ ؟

### ● اليوم الثالث :

حج يزيد بن عبد الملك فى هذه السنة بالناس – وهو لى عهد –  
وخرجت مع الشاعر عمر بن أبى ربيعة على جملتين ملبسين بالدباج فجعل  
عمر بن أبى ربيعة يتلقى الحاج ويتعرض للجماليات من النساء كمادته التى  
عرفها الناس الى أن أظلم الليل وطلع القمر فجلسنا على كتيب رمل مرتفع ،  
واندفعت أغنى صوتا لى جديدا ، فطلع علينا رجل راكب فرسا فارها فسلم  
علينا وقال لى :

– ايمكنك – أعزك الله – أن تعيد هذا الصوت ١٩ ؟

فأعدته عليه ، فقال لى

– بالله أنت ابن سريج ١٩ ؟

- نعم

- حياك الله !

والتفت الى عمر وسأله

- بالله أنت عمر بن أبى ربيعة ؟!

- نعم !

- حياك الله !

- فقال له عمر

- وانت فحياك الله ! .. قد عرفتنا فعرفنا نفسك ! ..

قال

- انا يزيد بن عبد الملك

فوثب اليه عمر فأعظمه ، ووثبت أنا فقبلت ركاياه ، فنزع حلته وخاتمه  
فدفعهما الى ومضى يركض حتى لحق ثقله !

فدفعت الحلة والخاتم الى عمر وقلت له :

ان هذين بك أشبه ، وأنت بهما أحق ! ..

فأخذهما عمرو وأعطاني ثلاثمائة دينار ، وغدا فيهما الى المسجد الحرام ،  
فعرفهما كثير من الناس ، وجعلوا يتعجبون ويقولون

- كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه !

وعمر بن أبى ربيعة من أعطر الناس وأحسنهم هيئة ، وقد اتخذ بعيرا  
عظيما مخضوبا بالحناء ، والرحل من فوقه يتضوأ بلون ذهبي .. ومع عمر  
غلام يقود فرسا له أدهم أغر محجلا يسميه « الكوكب » فى عنقه طوق من  
ذهب وأنا معهما أركب بغلة شقراء جميلة والناس يعجبون من حسن  
هيئتنا ! ..

كذلك كنا فى موسم الحج ! .. فللة تلك الايام ! .. وشستان بينهما  
وبين ايام كان يحكم فيها مكة عبد الله بن الزبير ، قبل هزيمته ومقتله وقيام  
حكم بنى أمية فيها ..

فقد خرج ابن الزبير ليلة الى جبل أبى قبيس فسمع غناء ، فلما انصرف  
وجده أصحابه مضطربا فقالوا ان بك لشرا ! .. قال انه ذاك ! ..  
قالوا ما هو ؟! .. قال لقد سمعت من الجبل صوتا ان كان من الجن  
انه لعجب .. وان كان من الانس فما انتهى منتهاه شيء ! ..

قالوا له انه ابن سريج !

فى تلك الايام كنت أجد القوت بصعوبة فقد منح ابن الزبير الفداء وحرمه ،  
فكنت اذا أردت أن أغنى نفسى خلوت ليلا فى الجبل فغنيت وبكيت ! ..

## ● اليوم الرابع :

بعد ذهاب دولة ابن الزبير ، دعانى فتية من بنى أمية ، فدخلت اليهم  
وأنا فى ثياب غلاظ جافية ، وهم فى ملابس الوشى يرفلون كأنهم الدنانير  
الهرقلية تلمع فى الشمس ، فغنيتهم وأنا محتقر لنفسى قول الاحوص

دعى القلب لا يزدد خبالا من الذى

به منك أو دارى جواه المكتما

ومن كان لا يعدو هواه لسانه

فقد حل فى قلبى هواك وخيما

وليس بترويق اللسان وصوغه

ولكنه قد خالط اللحم والدم

فتضائل فتيان بنى أمية فى عينى لما داخلنى من الزهو بفنائى حتى  
ساويتهم فى نفسى ، ورايتهم يعظموننى ويطربون ويتراضعون لى ، وظلمت  
أغنيهم حتى رقصوا طربا ثم جلسوا بين يدى وخلعوا حللهم كلها حتى غطونى  
بها ، فمثلت لى نفسى اننى الخليفة وأن أبناء الخلفاء هؤلاء هم بعض أتباعى ،  
فلأنى التيه حتى خشيت أن أفتضح ! ..

ذكرت هذا اللقاء الذى مضت عليه سنوات طوال حين زارنى اليوم فى منزلى  
بمكة بعض شبان بنى أمية قادمين من دمشق وكانوا قد سمعوا بالمدينة  
مالكا ومعبدا فاعجبوا بهما .. فلما دخلوا بيتى وجدونى مريضا فقالوا :

– أتيننا مسلمين عليك ، وكنا نشتهي أن نسمع غناك !

– انى مريض كما ترون !

– ان الذى نكتفى منك به يسير !

فخجلت وأنا أعرف أقدار هؤلاء العلية من القوم أن أردهم ، فقلت  
يا جارية هاتى جلبابى وعدوى ! .. فأتتنى الخادمة بهما ، وأسدت قناعا  
على وجهى كما أفعل عادة عندما أغنى ، لقبح ما صار اليه وجهى بعد ما كبرت  
منى وسقط شعر رأسى وازداد الحول فى عينى ..

فغنيت حتى اكتفوا ، وعدت أعتذر اليهم بمرضى ، فقالوا

– والله ما سمعنا قط أحسن مما أسمعنا ، فأحسن الله عليك ، ومسيح  
مايك من العياء !

واجزلوا لى العطاء ، وانصرفوا يتعجبون مما سمعوا من غنائى على  
ما بى من المرض !

فبلغنى انهم لما مروا بعد ذلك بالمدينة منصرفين الى الشام ، غناهم معبد  
ومالك ، وكانوا قد طربوا لهما قبل أن يسمعا غنائى ، فلما سمعوا منهما  
هذه المرة جعلوا لا يطربون ولا يستحسنون شيئا مما يقنيه معبد ومالك ،  
فقال أهل المدينة لهم

- تحلف بالله انكم سمعتم ابن سريج فى مكة قبل قدومكم  
قالوا :

- اجل سمعناه ، فسمعنا ما لم نسمع مثله قط ، ولقد نفص علينا  
كل غناء نسمعه بعد غنائه مهما كان جميلا ! ..  
تذكرت اللقاء الاول ..

وجاءنى خبر الاثر الذى تركه هذا اللقاء الثانى  
واعجبتنى نفسى ، وان نفسى لتعجبني حتى اخاف أن يقتلنى الاعجاب  
بالنفس ! ..



## ابن الرومية

### ● اليوم الاول :

نشأت خلاسيا ، مديد القامة ، أحول .. أُمى بيضاء .. أبى اسود ، وأنا منهما بين الاسود والابيض كان أبى من الخدم الارقاء عند بعض أتباع الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وكانت أُمى جارية رومية بيضاء عنده ، زوجها لابی فجئت أحمل من لونه ولونها هذا المزيج الاسمر الذى يصفه بعض الناس بالجمال ، ويقولون لولا ان معبدا أحول ، شديد الحول لكان من أجمل الناس بلونه وامتداد قامته !

جئت الى الدنيا محكوما بالرق مثل أبى وأُمى ، فرعيت لسادتي اغنامهم وابلهم وأنا صغير ، وسافرت البلاد بتجارثهم وأنا كبير ، وعدت اليهم بارباحها ، ولم أربح منها الا شرف الخدمة !

كنت مع ذلك أختلف أحيانا الى المفتى الفارسى ( نشيط ) الذى كان يقيم بالمدينة المنورة ، فاتعلم منه شيئا ثم اجلس الى ( سبائب خاثر ) المفتى الحاذق ، مملوك عبد الله بن جعفر الهاشمى فأرى كيف يغنى ويصنع صنعته فى فن الغناء العربى ، وكان هذا الفن وقتئذ فى نشأته يرتفع ويتسع على أيدي أمثال نشيط وسبائب خاثر ، حتى أخذت منهما ما شئت من أسرار الصناعة واشتهرت بالحذق وحسن الغناء وطيب الصوت وصنعت الالحان فأجدت وتفوقت عليهما ، وصار لى فى ضرب العود واستنباط الالحان طريقة انفردت بها فتقدمت على أهل عصرى من عرفاء هذه الصناعة ..

كان الغناء العربى المتقن قد نشأ بمكة أيضا كما نشأ عندنا فى المدينة ، وشق طريقه ومهده هناك العبقري ابن مسجح ، وسار على طريقته ابن سريج والغريز وغيرهما فتجاوبت أصداء فحول المفتين على الطريق بين العربيين ..

يقول الناس الآن : ليس فيمن يغنى بالمدينة ومكة والحجاز والشام ، أحد أعلم بالغناء من معبد ! ..

والحق انه لولا الاوائل الذين فتحوا لنا باب الغناء العربى المتقن ، ما بلغت فى هذه الصناعة شيئا .. وما زلت أذكر كيف كنت غلاما مملوكا لبعض موالى الخليفة معاوية وكانوا تجارا يكلفوننى برعاية تجارتهم ، فكنت



إذا تعبت أسندت رأسي إلى صخرة ، فاسمع وأنا نائم صسوتا يجرى في مسامعي ، فأقوم من النوم فأحكيه كإنى تلقنته وحفظته نائما ! ..

وسمعت مرة بعض من يحيون غنائي يقولون ان معبدا من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة وأحسنهم حنجرة وحلقا وهو فحل المثنى وامام أهل المدينة في الغناء ، لا يدانيه الا فحل المثنى وامام أهل مكة في الغناء « ابن سريج »

وسئل مالك بن ابي السمح وهو من أحسن المثنى أنت أحسن غناء أم معبد ؟ .. قال مالك والله ما بلغت قط شراك نعل معبد ! ..

ويعجبني الانصاف والصدق في القول ، وإن مالكا على تواضعه هذا لي ، لمن أحسن المثنى في المدينة ومكة وسائر الامصار

### ● اليوم الثاني :

تعلمت مني الغناء جارية تدعى « ظبية » .. وجاء رجل من أهل العراق فاشتراها ثم علمت انه باعها في البصرة لرجل من أهل الاهواز فعاشت معه في منزله هناك وأعجبته كل الاعجاب وحفظت عنها جواريه أكثر الالحان التي تعلمتها مني .. وكانت كلما طارحتهن لحنا قالت لهن : هذا من صنعة أستاذي معبد فيقول لها سيدها لقد شوقتنا الى رؤيته يا ظبية !

ثم ماتت ظبية وانقطعت عني أخبار هذا الرجل الذي لم أره قط ولا أعرفه

خرجت أخيرا من مكة أريد البصرة ، ثم بدا لي في البصرة أن أقصده الاهواز فنزلت في سفينة امتلأت بالجوارى وليس معهن الا رجل واحد هو صاحبهن ، وهن ملك يمينه ..

فلما صرنا في نهر « الابله » أمر الرجل جواريه فغنين وسمعهن مليا وأنا ساكت ، حتى غنت احدهن لحنا من الحاني فغلطت فيه ، فصاحت بها يا جارية ، ان غناءك هذا ليس بمستقيم !

فغضب مولاها وقال لي

— صه ! .. ما شأنك أنت بالغناء ؟

فعدت الى السكوت ، فغنت جارية أخرى لحنا لي من شعر عبد الرحمن ابن أبي بكر

بابنة الازدى قلبي كئيب

مستهام عندها ما ينيب

ولقد لاموا فقلت : دعوني

ان من تهون عنه جيب

انما ابل عظامى وجسمى

حبها والحب شيء عجيب

فاختلت بعض أقسام اللحن فى حلق الجارية ، فقلت لها مغضيا

- يا جارية لقد أخللت بهذا الصوت ! ٠٠

فصاح الرجل

- ويلك ! ٠٠ ما أنت والغناء ! الا تكف عن هذا الفضول !؟

ثم غنت الجارية الثالثة لحنا لى فى قول كثير عزة

خليل عوجا فابكيا ساعة معى

على الربع نبلغ حاجة ونودع

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى

وللعين : أذى من دموعك أو دعى

فلا عيش الا مثل عيش لنا مضى

مصيفا القما فيه من بعد مريع

فقلت لها ما قلته لزميلتيها وبينت لها خطأها فوجدت صاحب  
الجوارى يكاد يسيل سيفه ليقتلنى من شدة غيظه منى ، فاندفعت أغنى هذا  
الصوت على وجهه الصحيح ، واجتهدت فى أدائه وتحفظت ، فصاحت  
الجوارى وقد زلزلت السفينة عليهن وعلى صاحبهن طربا وعجبا ، ووثب  
الرجل فقبل رأسى ، وقال

- سيدى أخطانا عليك ولم نعرف موضعك وقدرك ، وأنا أعتذر اليك  
ما جرى !

فقبلت اعتذاره وسألته

- ممن أخذت جواريك هذه الالحان !؟

- من جارية كانت لى ، وقد ماتت ، وكانت - رحبها الله - قد أخذت  
هذه الالحان من « معبد » سيد مطربى المدينة

- اكان اسمها « طيبة » ؟؟

- نعم ! فمن أدراك !؟

- هى من تعليمى وتخرجى فانا معبد !؟

فاكب الرجل والجوارى على يدى ورجلى يقبلونها ويقولون

- كنتمنا نفسك طول الوقت حتى جفوناك فى المخاطبة ، واسأنا

عشرتكم ، وأنت سيدنا ومن كنا نتمنى على الله أن تلقاه ! ٠٠

ثم قام الرجل فجاءنى بخلمة من أفخر ملابسه ، وأعطانى ثلثمائة دينار  
وهدايا وطيوباً ، وانحدرت معى فى السفينة الى الاهواز وأقمت فى منزله  
أطارح جواربه الحانى حتى حفظنها وبرعن وصارت فيهن واحدة أو اثنتان

فى مثل براعة « طيبة » رحمها الله ! ..  
كان أهل الحجاز طوال هذه المدة يسألون عنى ويبحثون حتى عدت اليهم  
وقد انقضت شهور كثيرة ! ..

### ● اليوم الثالث :

جاء البريد من دمشق الى المدينة يطلبينى ..  
قال لى صاحب البريد : ان أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، قال : لقد  
اشتقت الى معبد ! ..  
دخلت على أمير المؤمنين ، فاذا هو جالس عند بركة قد ملئت بماء ورد قد  
خلط بمسك وزعفران فقال : غننى يا معبد :

لهفى على فتيه دان الزمان لهم  
فما يصيبهم الا بما شاءوا  
مازال يعلو عليهم ريب دهرهم  
حتى تقانوا وريب الدهر عدا

فما غنيت اللحن ، حتى نزع ثيابه وألقى نفسه فى بركة ماء الورد  
والمسك والزعفران ، ففاص فيها ، ثم خرج منها ، فاستقبلته الجوارى  
بثياب غير الثياب الاولى ..  
ثم شرب وسقانى من ابريق ، وقال : غننى يا معبد :

يا ربع مالك لا تجيب متيما  
قد عاج نحوك زائرا ومسلما  
جادتك كل سحابة عطالة  
حتى ترى عن زهرة متبسما  
لو كنت تدرى من دعاك اجبت  
وبكيت من حرق عليه افن دما

فغنيت اللحن واجتهدت فى غنائه بملء صوتى واحساسى ، فرأيتنه قد  
أخذته رعدة الطرب ، فألقى نفسه بثيابه فى البركة ففاص فيها ثم خرج ،  
فنزعت الجوارى ثيابه وألبسته غيرها ، ثم شرب قدحا وسقانى ، وقال لى :  
- بحياتى غننى :

عجبت لما أدتنى  
انذب الربع المحيلا  
واقفا فى الدار أبكى  
لا أرى الا الطللولا  
كلما قلت اطمأنت  
دارهم فالوا : الرحيلا

فلما غنيته وثب في البركة ثم خرج يرتعد ، لا أدري أمن الطرب أم من  
برد أصابه لكثرة ما رمى بنفسه في الماء ، فجاءت الجوارى بالمجامر والبخور  
حتى سرى فيه الدفء فسكن وشرب قدحا وسقاني ! ..

وانتشى الوليد ، وبأن في وجهه السرور بى في ذلك اليوم ، وقال لى  
مبتهجا مبتسما :

— يا معبد سررتنى ، وأسمعتنى شيئا لم أسمع من خلق مضى ولا مغنية ،  
ولا أظن انى أسمع مثله أبدا ..

ثم دعا بخمسة عشر ألف دينار فصبها ذهباً نضارا يبرق بين يدى ..  
وقال :

— يا معبد .. من اراد أن يزداد عندنا حظوة فليكنتم الاسرار !  
قلت :

— ذلك ما لا يحتاج سيدى الى ايصالى به ! ..

### ● اليوم الرابع :

تمضى الايام ، وتزحف الشيخوخة على جسدى كله ، وبخاصة حنجرتى  
وحلقى ، فانا الان أكاد أعجز عن الغناء وهو حياتى ! ..

أصابنى الفالج ، أرتعشت أوصالى .. بطل صوتى .. صار من كان  
يطرب لى ، يهزأ بى ويضحك اذا حاولت أن أنطق حرفا ..

أمر أمير المؤمنين الوليد بن يزيد بحملى اليه حين سمع بهالى ، وقال لى :  
— لو كانت الصحة والعافية مما يمكن شراؤه ، لاشتريتهما لك  
بالتفاس ! ..

وانزلنى أمير المؤمنين فى قصره ، لتعتنى بى الجارية المغنية الحاذقة  
سلامة القس التى تعيش هناك منذ اشتراها أبوه الخليفة يزيد بن عبد الملك  
هى وزميلتها « حبابة » التى توفيت منذ بضعة وعشرين عاما ..

وقفت سلامة على سريرى تبكى وتغنى بصوت خافت لحنا لى تندبنى به  
والموت يحوم على سريرى :

قد لعمرى بت لى

كاخى الداء الوجيع

ونجى الهيم منى

بات أدنى من فجيى

كلما ابصرت ديفى

خاليا فاظت دموعى

قد خلا من سيد كان

لنا غير مضيع

ففاضت دموعي حزنا وطربا وأنا على قيد أنملة من الموت .. ورأيت الخليفة  
وبعض اخوته قد تجردوا في قمصانهم وأرديتهم الخفيفة يحفون بسريري !  
وما أبالي أن ياخذني الموت بعد ساعة أو بعض ساعة ، فقد أخذت نصيبى  
من الدنيا ، وما فرطت في أمر الآخرة من شيء ! ..  
الموت يزحف ، وسلامة تفنى وتبكي .. والخليفة مشغور في أمري ،  
يريد أن يخرجني بنفسه الى موضع قبري ، تكريما لي ! .. فالحمد لله  
أولا وآخر ! ..



## بطة الأفراح

### ● اليوم الاول :

نشأت في ( الحيرة ) من أرض العراق ٠٠ منزلي الآن بمدينة الكوفة ، وأهل من قدماء العرب سكان هذا الاقليم منذ الجاهلية ، عاشوا فيه تحت حكم ( المناذرة ) ملوك الحيرة المشهورين ، حتى جاء الاسلام فدخل فيه أكثر أهل الحيرة مع أكثر أهل العراق ، وبقي على دينهم القديم أناس ٠٠

في صباى الباكر كنت خفيفا رشيقا حسن المنظر ، ابيع الفساحية والرياحين ، أحملها الى قصور الامراء والكبراء فى الكوفة ، فيأذنون لى أن أستمع عندهم الى جوارهم المغنيات اللاتي جلبن من الحجاز والشام ٠٠ ولا يتردوننى لما عرفوا عنى من خفة الروح واللباقة والهيام بالغناء حتى لاستغنى به عن الطعام والشراب وكل لذائذ الحياة ٠٠ ويسمحون لى - فى عطف بالغ - بالوقوف قرب مجالسهم أصيخ الى المغنيات ، حتى حفظت الكثير من الألحان ٠٠ وكنت منذ صباى مطبوعا على الغناء ، حسن الصوت ، سريع الحفظ ، فاشتريت عودا وتعلمت الضرب عليه ٠٠ ثم أردت الزيادة من العلم بالغناء فرحلت الى بعض نواحي الحجاز وأخذت من أهل هذه الصناعة كثيرا من أسرار صناعتهم حتى دخلت فى الصنعة وأحكمتها ٠٠ وصرت وحدي مطرب العراق كله ، فليس فى العراق غيرة من الكوفة الى البصرة الى النجف ٠٠ الى شرقه وغربه ، الا بعض الضعفاء ممن لا يؤبه لهم فى هذه الصناعة ولا يطلبهم أحد من الكبراء وأهل الثراء ٠٠

ومع صناعة الغناء ، لم أنقطع عن عمل آخر لى ، فاني أكرى الايل الى الشام وغيرها ، وكنت دائما جمالا نشيطا ، لان صناعة الغناء كانت تكسب فى العراق أحيانا ، حين يجرى اليها أمير لا يحب الغناء فيأمر بمنعه ! ٠٠

وأنا أتنقل بين الكوفة والحيرة والنجف والبصرة ، أحمل عودى وأرتزق وما أصعب الارتزاق بالغناء فى العراق ! ٠٠

يقول الناس ان مطربي الحجاز يكسبون عشرات الالوف من الدراهم فى سهرة واحدة ٠٠ واذا طلبهم الخليفة فى دمشق انفتح لهم باب الثراء ٠٠ وأين أنا من ابن سريج ومعبد والفريض ومالك ابن أبى السمح وابن عائشة وحكم الوادى وغيرهم ممن سمعنا عن ثرائهم ١٩ ٠٠

هؤلاء أغناهم عملهم بين مكة والمدينة ودمشق ، ولم يكسب بينهم الا

( ابن محرز ) على تفوقه فى الغناء والتلحين ، لانه منزول فى بيته لا يقصد  
الناس الا قليلا ٠٠

وقد جاء ابن محرز أخيرا الى الكوفة قاصدا أميرها ، فتلطفت له حتى  
دعوته الى منزلى وغنيته لحنى :

**أنا حنين ومنزلى النجف**

**وما نديمى الا الفتى القصف**

**اقصرع بالكاس ثغر باطية**

**متسرعة تارة واغتصوف**

**من قهوة باكر التجار بها**

**بيت يهود قراها الخسوف**

**والعشى غضى ومنزلى خصب**

**لم تقلنى شقوة ولا عنف**

فلما سمعنى ابن محرز وهو البصير بالغناء ، قال لى :  
— أحسنت يا حنين والله ، ولم تبق شيئا جميلا لم تأت به ، من الشعر  
الى اللحن ! ٠٠

فشكرته وسألته أن يسمعنى بعض غنائه ، فغنائى هذا اللحن :

**وحر الزبرجد فى نظمه**

**على واضح الليت زان العقودا**

**يفصل ياقوته دره**

**وكالجمر ابصرت فيه الفريلا**

فسمعت من غنائه ما هالنى وحيرنى ، وأذهلنى تلحينه وجمال حنجرته ،  
فخشيت أن يسمعه الأمير ثم يسمعه الناس فيستولوا عليهم بروعة غنائه  
ويسقط غنائى وتبور بضاعتى ٠٠ فقلت له :

— كم تمنيت من المال حين فارقت بلدك قاصدا العراق !؟ ٠٠

— ألف دينار ! ٠٠

— فانك لا تجمع هذه الدنانير كلها الا بعد أن تضنى بضعة أشهر فى  
فى العراق ، ولك منى هذه الدنانير الخمسمائة فخذها عاجلة ضربة واحدة  
تملا بها كيسك ، وانصرف راشدا الى بلدك ! ٠٠ ثم احلف لى انك لا تعود  
الى العراق مرة أخرى فانه مورد رزقى ، ولك فى الحجاز والشام متسع !

أخذ ابن محرز ما أعطيته وانصرف ٠٠ ولو أعطيته أقل من ذلك لرضى به  
لانه لا يجب معاشره الملوك ولا السعى الى الناس ، ولا يؤثر على الخلوة  
شينا ! ٠٠

## ● اليوم الثاني :

جاء الى الكوفة أمير جديد اسمه خالد بن عبد الله القسري ، فأبطل  
الفناء بالعراق كله ، فصرّت لا أستطيع الفناء عند أحد من الناس ، حتى  
ساعات حال وانقطعت كارها الى صناعتي الأولى ، أكرى الإبل بين المراق  
والشام .. وهي صناعة لا يكفيني رزقها ..

انتظرت طويلا ، فلم يرحل عنا هذا الأمير كانما خلت الدولة الاموية من  
الامراء فلا ترسل إلينا بأمير آخر يكون له رأى حسن في الفناء وأهل  
صناعته ! ..

فلما طال الانتظار ، وساءت الحال ، وأحوجت الخاصة ، دخلت اليه  
يوما مع عامة الناس حين أذن لهم بالدخول ، ومعى العود أخبته في ثيابي ،  
فقلت له :

- أصلح الله الأمير .. كانت لي صناعة أعود بها على عيالي ، فحرمها  
الأمير فأضر ذلك بهم وبى ! ..  
قال الأمير :

- وما صناعتك ؟ ..

فكشفت عن عودى وقلت : هذا ! ..

فعبس الأمير فظننت أنه سيامر بقتلى أو سجنى ، ولكنه قال لي وقد زال  
عبوسه :

- غن ! ..

فحركت أوتار عودى وأنا أقول في نفسى : « هذا رجل صالح يحب من  
يعظه ويذكره بالموت والآخرة » .. ثم غنيت في هذا المعنى :

**أيها الشامت المعير بالدهر**

**أنت المبرا الموقوـو**

**أم لديك العهد الوثيق من الايام**

**بل انت جاعل مـمـرود**

**من رايت المنون خللن أم من**

**ذا عليه من أن يضام خفير**

فبكى الأمير هما ورد عليه من الاتعاض بذكر الموت في هذا الفناء ، ولا أظنه  
طرب لغنائي أو التفت الى لحنى .. ثم قال لي :

- قد أذنت لك وحدك خاصة بالفناء .. فلا تجالس سفيها ولا معريدا  
في غنائك ! ..

قلت :

- نعم .. أصلح الله الأمير ! ..



ومضيت فرحا فقد. فتح الأمير من جديد باب الرزق لى وكأنه يظن انى  
سأغنى الناس عن « الموت » كما غنيتة هو ، وأنتى سأجلس فى أفراحهم  
أضرب العود وأغنى بالمواظ بينما العروس فى الجلوة ، والناس يضجون  
بالسرور .

### ● اليوم الثالث :

نقل الخليفة أميرنا خالدا القسرى ، وجاءنا غيره ، فلم يكذب يجلس فى  
دار الامارة بالكوفة حتى سأل عنى ، فأسرعت اليه أقول له : لبيك سيدي !  
وكنا ليلة فى سهرة عند هذا الأمير ، فإذا حاجبه يدخل ويقول له ان  
الفقيه العظيم « الشعبي » يطلب الاذن بالدخول ، فأشار عليه بعض الحاضرين  
ان يعتذر له من عدم لقائه فى هذه الساعة من الليل ، حتى لا يرى ما نحن  
فيه من الغناء ..

ولكن الأمير اذن للفقيه الامام الشعبي فدخل .. وقال له الأمير :  
- يا أبا عمرو .. لو كان غيرك لم آذن له ونحن على هذه الحال ! ..  
قال الشعبي فى ذكائه ولباقته وحلاوة منطقته المأثور عنه :  
- أصلح الله الأمير ، عندى لك الستر لكل ما أرى منك ، والشكر على  
ما تولينى ان شاء الله .

- كذاك الظن بك يا أبا عمرو .. وأنت أنت ! ..  
ثم التفت الشعبي نحوى فتضاءلت وانكشيت كأننى أريد أن أختبئ منه  
ولو فى جوف عودى ! .. فابتسم وقال لى :

- كيف أنت يا أبا كعب ؟ ..

قلت :

- بخير يا سيدي أبا عمرو ! ..

قال لى :

- أحزق الزير فى عودك وأرخ البهم ، فذلك أفضل لنفمة هذين الوترين !  
ففعلت ذلك ، وضربت فوجدت نفمة العود أحلى ، فقال الأمير لاصحابه  
هامسا :

تلمونننى على أن آذن لهذا الشيخ الجليل بالدخول فى كل حال ؟ ..

ثم أقبل الأمير على الشيخ الامام الشعبي قائلا :

- يا أبا عمرو .. من أين عرفت حزق الزير وارشاء البهم فى أوتار العود؟!

قال الشعبي باسم

- ظننت ان الامر هناك ! ..

قال الأمير :

— فان الامر كما ظننت هناك كله ! •

ثم قال له الامير غامزا بعينه :

— فمن أين عرفت حينئذ !؟ •••

فالتفت الى الشعبي وقال :

— هذا بطة أعراسنا وأفراحنا فكيف لا أعرفه !؟

فضحك الامير وجلساؤه ، وغنيت فأجدت وأطربتهم ورأيت الشعبي ينصت منبسط الاسارير ، وأعجبني جدا انه قال عنى : هذا بطة أفراحنا •  
أمر لى الامير بجائزة كبيرة •• وكانت ليلة لم أر مثلها ، ولا استتمعت بشيء فى الدنيا أمتع منها ، لوجود الشعبي فيها ، وهو من هو بين الناس ، خاصتهم وعامتهم •••

### ● اليوم الرابع :

اجتاز أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك الكوفة فى طريقه الى الحج ، فوقفت له فى بعض الطرقات ومعى عودى والى جانبيه زامر يزمر لى ، وأنا أغنى :

امن سلمى يظهر الكوفة

الآيات والطلل

يلوح كما تلوح على

جفون الصيقل الخلل

فقال هشام لمن معه :

— من هذان !؟ ••

قالوا :

— حنين المغنى وزامره ! ••

فأمر بى وبالزامر فحملنا فى محمل على جمل ، وسار بنا ، فغنيت وهشام يسمع •

صاح هل ابصرت بالغبتين

من اسماء نارا

موهنا فميت لعينيك

ولم توقد نهسا

كتلال البرق فى المزن

اذا البرق استطارا

اذكرتنى الوصل من سعدى

واياما قصارا

فلم ازل أغنى لهشام حتى نزل ، فأمر لى بمائتى دينار ، وللزاهر بمثلها !  
وكانت عطية قليلة ، فان بعض الامراء يعطون المغنين أضعافها ، ومع ذلك  
حسدنى بعض الناس وقالوا لى :

— أنت تفنى منذ خمسين سنة ، ما تركت لكبير من الكبراء مالا ولا دارا  
ولا عقارا الا أتيت عليه ! ..

قلت لهم :

— بابى أنتم ! .. اما هذه أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلوموننى ان  
أغلى بها الثمن ؟! ..

### ● اليوم الخامس :

جاءتنى دعوة من ابن سريج ومعبد والغريص أن أزورهم فى الحجاز ،  
فخرجت اليهم ، فلما كنت على مرحلة من المدينة جاءوا مع جمبع عاقل  
يتلقوننى ، وذهبوا بى الى منزل السيدة سكينه بنت الحسين ، فلما دخلنا  
أذنت للناس كلهم أن يدخلوا فقصت بهم الدار وصعدوا فوق السطح ، ثم  
سألونى أن أغنى لحنى الذى أوله : « هلا بكيت على الشباب الداهب » ..  
فغنيتهم وازدحم الناس على السطح ليسمعونى فسقط الرواق على من تحته  
فسلموا جميعا وخرجوا أصحاء ! .. الا أنا فقد تهشمت عظامى ! ..

وسمعت سكينه بنت الحسين تقول :

— لقد انتظرنا حنينا مدة طويلة كأننا والله كنا نسوقه الى الموت ! ..

وأرانى لا بد ميتا ، فانى أشعر بالموت يتمشى فى جسدى علوا وسفلا ! ..  
وأرى بعينى شبح الموت ! ..

## غلام من اليمن

### ● اليوم الاول :

أول ما عرفت قسوة الدنيا كنت غلاما صغيرا ، هاجرت من بلدى فى اليمن مع أمى واخوتى واخوانى الايتام ، لا نملك شيئا ، قد أجديت أرضنا ، وأخذ الجوع يخنقنا .. فنزلنا « المدينة » وهى يومئذ مزدحمة بأهلها الامائل الذين كثر فى أيديهم المال مما يفرهم من أعطيات الخلفاء ، وصاروا مضرب الامثال فى التغنم والرفاهة وطيب العيش ! ..

أويننا الى خص على مشارف المدينة المنورة ، وقالت لى أمى :

— اذهب يا مالك فاسأل الناس ، فانهم متى رأوا يؤسك أشفقوا عليك وأعطوك مما أعطاهم الله ! ..

فكنت قليلا ما أسأل الناس ، الا على مقربة من دار بعض أحفاد عبد الله ابن الزبير ، فسمعت يوما صوتا عجا ينبعث من هذه الدار ، فوقفت على بابها أتسمع ، فاذا غناء لم أسمع مثله قط ، سألت بعض خدم الدار عنه فقالوا لى : هذا « معبد » أشهر المغنين فى المدينة ! ..

صار دأبى بعد ذلك الا أسأل الناس احسانا الا وأنا واقف على باب هذه الدار التى ينبعث منها غناء « معبد » كل ليلة تقريبا .. فاذا عدت الى أمى واخوتى الجياع ، لم أعد الا بقليل من الزاد لا يشبعهم ، فتقول لى أمى غاضبة :

— كأنك لا تطوف بالمدينة ولا تطلب من أحد شيئا ، ول تقف فى مكان واحد لا تريم ، فمن مراك وأعطاك أخذت منه ، ومن منعك لم تلحف عليه فى السؤال ، والناس لا يعطون الا لمن يسألهم الحافا ..

قلت لأمى :

— هو ذاك والله ! .. وإنى يا أماء لمشغول البال بما هو أجدى علينا من استجداء الناس ! ..

قالت غاضبة

— وأى شيء أجدى علينا من أن تنشيط فى السؤال فى كل مكان بالمدينة ؟ .. وماذا يشغلك أيها الاحمق الجاهل عن طلب الدمش لاخوتك الصغار الجياع المساكين ؟ ! ..

قلت لها :

— غناء أسمعه من دار بعض آل الزبير بن العوام ، لا يتعلق به أحد من  
المفنين في المدينة كلها ! ٠٠

فلطمت أُمي خديها وصاحت :

— اخوتك واخواتك يقتلهم الجوع وأنت واقف على باب أولئك السادة  
تسمع الغناء ؟ ٠٠ أية مصيبة يا ربى حلت بنا من حماقة هذا الغلام وبلادة  
حسه ؟ ٠٠

## ● اليوم الثاني :

ضربتني أُمي ضربا مبرحا لاني لم أكتسب شيئا أمس ، ولكني لا أبرح  
موضعي على باب آل الزبير ، استمع الى معبد ، فاحفظ ألحانه ، ولا أنبئ  
كلمات الشعر الذي يفتنيه ، فاكتفى بحفظ النغمات دون الكلمات ، فاذا رددت  
اللحن مترنما كان لحننا خالصا لا أعرف له كلاما ! ٠٠

واليوم رأيت صاحب الدار واقفا عند بابه كمادتني كل يوم وليلة فقال لي :

— اظنك تقف على بابي لتسمع غناء معبد ؟ ٠

— نعم يا سيدي ! ٠٠

— من أنت ؟ ٠٠

— غلام من اليمن ، اسمي مالك بن أبي السمع أصابنا الجذب فجئت المدينة  
ومعني أُمي واخواتي واخوتي الصغار ، وأنا أسأل الناس لهم ، وقد لزمت  
باب دارك ، أسمع معبدا وأسأل الناس ! ٠

— فكيف وجئت ملازمتك لبائنا ؟ ٠٠

— أما الغناء الذي أسمعه فلا شيء مثله ، وأما العيش فوالله ما شجبت  
على بابك شبة قط ، ولا انقلبت منه الى أهلي بخير ! ٠٠

جزع الرجل وتجهم ، وأمر لي ولأمي واخوتي بمنزل ورزق يجري علينا  
وكسوة ، وخادم يخدمنا ، وعبد يحمل إلينا الماء ! ٠٠ وقال لي :

— هل تستطيع أن تغني شيئا مما سمعت ؟ ٠٠

كان معبد قد حضر كمادته ، فجلس يسمعي وأنا أترنم بالحنانه دون  
كلمات ، فاديتها كلها بما فيها من نبراته وتعليقاته وصيحاته وقراراته  
وعطفاته ومداته ولياته ، نغمة نغمة ٠٠ حتى رأيت الدهشة في وجه معبد  
كما رأيته في وجه النبيل الزبيري الذي أدخلني داره بعد أن وقفت على بابها  
أياما وليالي !

قال الرجل لمعبد :

— خذ هذا الغلام فخرجه وأطلععه على أسرار الغناء ، فاذا عرفه الناس يوما ،

كانت محاسنه منسوبة اليك وقالوا : هذا خريج معبد وتلميذه ! ٠٠

### ● اليوم الثالث :

مضت مدة منذ اجلسنى معبد لاول مرة يطارحنى الالحان ويعلمنى ، وقد مهرت وحذقت حتى ادهشت معبدا بحذقى ومهارتى ٠٠ ووجدنى معبد اقلعه فى التلحين ، فنصحنى الا افعل ذلك ، ولكنى لم انتصح ، وصرت الحن على طريقته ، فاذا سمعنى الناس قالوا : هذه الحان معبد ، فاقول لهم : بل الحانى ! ٠٠

غضب معبد وذهب الى صديقه الزيرى وقال له :

— هذا الغلام قد عرف طريقتى وادعاها لنفسه ، وهو يتزايد على الايام لانه ما زال شابا ، وأنا اشيخ واطف ، ويجف حلقى ، ويتغير صوتى حتى يتجافانى من كان يشتهى سماعى ! ٠

قال له يواسيه :

— سيقول الناس انك عوضتهم من نفسك بهذا الغلام الذى يجوى فى نهجك !

قال معبد وهو منكسر :

— صدقت أيها الامير !

فامر الرجل لمعبد بجائزة وكسوة حتى طابت نفسه ، وقمت انا الى معبد فقبلت رأسه ، وقلت له :

يا ابا عباد ٠٠ اساءك منى هذا الغناء الذى أجرى فيه على طريقتك !؟ ٠٠ والله لا أغنى لنفسى شيئا أبدا الا نسبته اليك وقلت للناس : هذا من صنعة معبد ٠٠ فطب نفسا وارض عنى !

قال معبد :

— اوتفعل هذا ، وتفى به يا مالك بن أبى السمع !؟ ٠٠

قلت :

— أى والله وأزيد عليه ان شئت ! ٠٠

قال معبد :

— ان رأيت ألا تفعل ذلك كان أقرب الى العدل ، فانك أحق بشمرة عملك !

### ● اليوم الرابع :

سافرت الى مكة أغنى عند بعض نبلائها من قريش ، فنزلت بدار صديق لى ، فسمعت غناء من غلام يشتغل حائكا عنده ، فقلت للغلام : أعلم علينا هذا الغناء ، فغناه حتى حفظت اللحن فأخذته ووجدت كلامه ردينا فاخترت له شعرا جيدا والبسته هذا اللحن فصار جميلا رائعا ، وغنيته للناس فرأيتهم

يقولون : هذا لحن ممالك ، ووالله ما هو الا ما سمعته من ذلك الحائك ولا  
أدرى من أين وقع له ، ولعله من فطرته وطبعه في الغناء ! ..  
افتتن الناس هنا بغنائي حتى مدحني شاعر منهم فقال :

لاعيش الا بمالك بن أبي السمع  
فلا تلحنى ولا تلم !  
ابيض كالبنر أو كما يلمع البارق  
في حالك من الظلم  
من ليس يعصيك ان رشلت ولا  
يهتك حق الاسلام والحرم  
يارب ليل لنا كحاشية البرد  
ويوم كذاك لم يدم  
نعمت فيه ومالك بن أبي السمع  
الكريم الاخلاق والشيم

صنعت في هذا الشعر الجميل لحننا طرب له الناس ، وربحت في هذا  
اللحن ثناء الشاعر وثناء كل من سمع الشعر واللحن ! ..  
وقال لي أحد العارفين بصناعة الغناء :

— يا أبا الفضل .. ان الناس ينسبون الحانك الى معبد ، فما تقول ؟ ..  
— اني أخذ الحانته فأحسنها وأهيئها فينسبها الناس لي ..  
— ليس الامر كذلك والله يا أبا الفضل ولكنك تقي المعبد بما وعدته حين  
كان يملك الغناء ، من نسبك ألحانك اليه عرفانا بجميله ! ..  
— أترى ذلك ؟!

— نعم ، فان لك صنعة كثيرة حسنة ، تجرى في أسلوب واحد ، ويشبه  
بعضها بعضا ، ولو كنت تدعى الالحان لاختلف غناؤك .. وقد سمعنا  
لحنك : « لاعيش الا بمالك بن أبي السمع » .. فهل هذا أيضا من تلحين  
معبد ؟! ..

فلم أحر جوابا ولزمت الصمت ! ..

### ● اليوم الغامس :

أشخصني أمير المؤمنين الوليد بن يزيد اليه في دمشق ، فغنيت له أول  
مرة فلم يعجبه غنائي واحتبس صوتي تهيبا له ، فلما خرجت من حضرته  
قيل له :

— يا أمير المؤمنين ان هذا المغنى قد هابك فاحتبس لسانه فأبعت اليه مرة  
أخرى ..

فلما أرسل يطلبني ، وقفت قبل دخولي مجلسه في دهليز بالقصر ، فقلت

للفراش : اسقنى قدحا من شراب ولك دينار ، فسقانى وأخذ الدينار ، ثم  
وإذنى قدحين آخرين وأخذ دينارين أيضا ٠٠ حتى انتشيت ودخلت على الوليد  
ابن يزيد أخطر فى مشيتى فلم أسلم عليه وأخفت بحلقة الباب ففقتتها ، ثم  
رفعت صوتى فغنيت :

لا عيش إلا بمالك ابن أبى السمح  
فلا تلجنى ولا تلم ! ٠٠

فطرب الوليد ، ورفع يديه ، حتى بدا إبطاه ، وقام فاعتنقنى وقال لى :  
ادن يا ابن أخى ٠٠ وأمرنى فأعدت اللحن مرات ، وهو يزداد طربا ، وأجزل  
صلى ٠٠

ثم غنى المطرب القدير ابن عائشة ، فازداد طرب الوليد ، وهو يفضل  
ابن عائشة على غيره من المغنين ويقول ان غناؤه يتركه كأنه يتقلب على الجمر  
من فرط حرارته ! ٠٠

وابن عائشة يظن نفسه أعقل الناس ويتهمنى بالحق ، وما الحق الا فى  
رأسه هو ! ٠٠

فبينما نحن فى سرور عند أمير المؤمنين الوليد وقد فرغنا من الغناء وفرنا  
بالجوائز ، هجم على القصر جماعة الثائرين على أمير المؤمنين ممن يتهمونه  
بشتى التهم ، وأولها انشغاله بالغناء والنساء والشراب وتبذيره فى أموال  
الدولة وتبديدها فى لذاته ! ٠٠

ولما رأيت السيوف مصلنة فى أيديهم تريد رأس الوليد النفث الى ابن  
عائشة فقال لى :

— اثبت بنا فى مكاننا فان هؤلاء لا يقصدوننا !  
قلت له :

— بل اهرب بنا أيها الغبى المتعاقل !

فجادلنى فى ذلك الموقف الضنك وقال لى : لماذا نهرب نحن ، وماذا يريدون  
من أمثالنا !؟ ٠٠

قلت له وقد نفذ صبرى وملانى الخوف والسيوف تقترب :

— لو أخذوا رأسينا لجعلوا بينهما رأس الوليد ، ثم جمعوا الناس وقالوا  
لهم تحسينا لفضلهم : أمسكنا بهذا الفاسق ، ومعهم هذان الفاسقان يفتنيانه  
ويشربان فى مجلسه ٠٠ فجمعنا رءوس الثلاثة ! ٠٠ فيكون قولهم هذا  
تبريرا وتحسينا لامرهم عند العامة ! ٠٠

فرايت ابن عائشة قد فهم كلامى ، وجرينا كنرسى رهان فى دحاليذ القصر  
حتى خرجنا ونحن لا نصدق اننا نجونا ! ٠٠

قال لى ابن عائشة وقد ابتعدنا عن دمشق وأخذنا طريقنا الى الحجاز :

— ما رأيت منك عقلا ولا حكمة قط الا فى ذلك اليوم ! ٠٠ فلو بقينا مع



الوليد ، لرفع القتلة على رماحهم ثلاثة رؤوس لا رأسا واحدا !

### ● اليوس السادس :

تمضى الايام .. يتناقص صوتى ويجف حلقى كما حدث لمعبد وغيره من  
شيوخ المطربين ! ..

مررت امس بفتية من قريش جلوسا فسألوني ان اغنيهم فاعتذرت بذهاب  
صوتى وضيق انفاسى ، فقالوا : يكنينا منك القنيل ! .. فرفعت صوتى فلم  
أقدر ، ثم خفضته فلم أقدر ، فبكيت وجعلت أصيح : واشباباه ! ..

ضعف بصرى فصرت كفيفا ، فبينما أنا فى الحمام الكبير بالمدينة ، وصاحب  
الحمام يدعك جسدى وينظفه ، سمعت حس انسان بجانبى يقول لى : يا عماء  
.. من أحسن الناس غناء ؟!

قلت له : كم بلغت من السن أيها الفتى ؟

قال : عشرين سنة ! ..

فبكيت وصحت بما تبقى فى صررتى :

- واشباباه !



## الزرقاء تلنقط اللؤلؤتين

### ● اليوم الاول :

تحدث الكوفة كلها عنى الآن ، ويقول ظرفاؤها وعشاق الجمال فيها :  
ما على وجه الارض مثل سلامة الزرقاء ، حسنا وحلاوة ورقة وبراعة فى  
الغناء ، فلا يلحقها الوصف فى ضرب من ضروب جمالها وفتفتها !

وافتنى بى محمد بن الاشعث الكاتب الكوفى ، فقال هذه الابيات التى  
ملأت الكوفة وسارت بها الركبان الى مكة والمدينة ودمشق والبصرة :

امسى لسلامة الزرقاء فى كبدي  
صدع فقيم طوال الدهر والابد  
لا يستطيع صناع القوم يشعبه  
وكيف يشعب صدع الحب فى الكبد  
الا بوصل التى من حبها انصدعت  
تلك الصلوع من الاسقام والكمد

وقد صنعت لحننا فى البيت الثانى من هذه الابيات وغنته محمد بن الاشعث  
فصاح وقد تملكه الوجد والطرب :

- كيف يشعب صدع الحب فى كبدي يا سلامة !؟ .. كيف يشعب صدع  
الحب !؟ ..

وأنا مع ذلك غير سعيدة فى حياتى ، فما أنا الا جارية فى دار عبد الملك  
ابن رامين تاجر الجوارى فى الكوفة ، ومعى جارتان جميلتان تحسان الغناء  
هما « ربيعة » و « سمدة » وعدد من الوصائف ..

وأغنياء الكوفة وأهل الشرف والوجاهة يدخلون دار ابن رامين ويخرجون  
.. يسمعون جواريه يغنين أو يتحدثن .. وهو يبيع الوصائف الجميلات  
ولكنه يحتفظ بى وبزميلتى ربيعة وسمدة ، ليجمع المال من هؤلاء الوجهاء  
الكرام بعد غنائنا بين أيديهم ..

وأمس اجتمع غنيدنا معن بن زائدة وروح بن حاتم وعبد الله بن المقفع  
وبعض ذوى الرياسة فى الكوفة من رجال الدولة الاموية ، فقال لى سيدى  
ابن رامين :

- يا زرقاء .. غنى ..

## اية حال يا ابن رامين

### حال المعجين المساكين

فغنيت هذا الصوت ، ورددته مرارا حتى استبد الطرب بالقوم ، فقام معن بن زائدة فصوب بين يدي عشرة آلاف درهم ، ثم قام روح بن حاتم فصوب مثلها .. ولم يكن في يد ابن المقفع ساعتئذ مال ، فأخرج صك ضيعة له وقال لي : هذه ضيعة لي خذيها ، فليس عندي من الدراهم شيء يصلح لك ! ..

فلما انقضى المجلس ، اجتمع لابن رامين عشرون ألف درهم وضيعة كبيرة ولم يكن لي في هذا كله الا جهد الغناء ، وعناء استخراج المال من خزائن اصحابه ! ..

### ● اليوم الثاني :

يعاملني ابن رامين الآن معاملة طيبة ، فانا أكبر موارد رزقه .. يجيء الناس الى داره لسماع صوتي والنظر الى وجهي .. ثم يصدرون عن داره وقد ملأوها أموالا ..

وهو يعطيني بعض المال الذي يكسبه من المعجين بي ! ..

وقد جاءنا محمد بن الاشعث الذي اكسبني شعره شهرة في العراق والشام والحجاز ، وهو من ظرفاء الكوفة وفتيان قريش فيها ، وحبه للجواري لا يقف عند حد ..

لم يكد ابن الاشعث يجلس حتى بصر باحدى الوصائف الجميلات فاعجبته ، فقال لي : هبي لي هذه الجارية يا زرقاء ! .. فوهبتها له ، فلما أخذها ومضى بها الى بيته ، نظرت ارى أثر ذلك في ابن رامين وهو صاحب الجارية ومالكها ، فوجدته لا يتكلم ولا يعارض ما صنعت ، كأنني أنا المالكة لهذه الجارية أتصرف في أمرها كيف أشاء ، وأهبها لمن أشاء ، فيخسر ابن رامين ثمنها وما أنفقه عليها ..

لقد أدرك ابن رامين أخيرا ان ما يدخل خزائنه من المال ، انما هو من عملي ، فصار لا يبالي أن أحب لاحد أصدقائي جارية جميلة لا يقل ثمنها عن ثلاثين ألف درهم ! .. وما وهبتها له الا نكابة في ابن رامين ! ..

### ● اليوم الثالث :

غنيت الليلة ساعة أو ساعتين لبعض وجهاء الكوفة ، ثم جاء الخادم يستأذني في دخول يزيد بن عون الصيرفي الملقب بالماجن .. فأذنت له .. وقد صار الاذن لي دون مولاى ابن رامين ، فانا صاحبة الامر في هذا بعد أن كان هذا اليه وحده ! .. ان شئت اذنت بالدخول ، وان شئت منعت ! ..

دخل يزيد بن عون الصيرفي ، فألقى بين يدي ، وهو أثر عندي لظرفه وكرمه وحبه لي وتمييزه الجيد من الرديء في الغناء تمييزا دقيقا لم أره عند

أحد سواء ممن يفشون بيت ابن رامين لسماعى ، مع كثرة العارفين بالغناء  
منهم ٠٠

ادخل « الماجن » الصيرفى يسه فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين ، وقال لى :

— انظرى يا زرقاء ٠٠ جعلت فداك ! ٠٠

نظرت الى اللؤلؤتين ، فحلف لى انه نقد فيهما بالامس أربعين ألف درهم .  
قلت له :

— فما أصنع بذلك ياماجن ؟ ٠٠

قال :

— أردت أن تعلمى ! ٠٠

فغنيت صوتا تأنقت فى أدائه تأنقا خلاف ما كنت أفعل قبل حضوره ،  
حتى أحس ذلك وفهمه كل من حضر ، ثم قلت له :

— يا ماجن ٠٠ هب لى اللؤلؤتين ٠٠ ويحك !

قال :

— ان شئت والله وهبتهما لك !

قلت :

— قد شئت !

قال :

— اليمين التى حلفت بها لازمة لى أن أخذتهما الا بشفتيك من شفتى  
يا زرقاء ! ٠٠

تهامس الحاضرون ، يقول بعضهم لبعض :

— ان أصحاب هذا البيت انما ينكسبون مما ترون ، ولولا الماجن وأمثاله  
لما جمع ابن رامين ما جمع من الذهب والفضة ٠٠ واللؤلؤ ٠٠

ولم يتشاغل الحاضرون فى الانصراف ، فقد فهموا انى لا أريدهم شهودا  
لنظر التقاطى اللؤلؤتين بشفتى من شفتى الصيرفى الماجن ! ٠٠

ووثب ابن رامين يقول متكلفا سببا للانصراف :

— يا غلام ٠٠ ضع لى ماء للوضوء ! ٠٠

ثم خرج ليخلى المكان ٠٠ وكانت على رأسى جارية تخدمنى فأومأت اليها  
أن تخرج ، فانصرفت مستأذنة كأنها تريد حاجة ! ٠٠

وخلا المجلس الا منى ومن يزيد الصيرفى الملقب بالماجن ! ٠٠

فمشى على ركبتيه وكفيه ، واللؤلؤتان فى شفتيه فقال لى : هاك ! ٠٠

فلما ذهب آخذهما بشفتى صد عنى يمينا وشمالا ليستكثر من  
ملاستهما ، فلما وجدته يزوغ منى مرة بعد مرة أمسكته حتى انتزعت

بشفتى اللؤلؤتين من شفتيه ، وقد رشح جبينى عرقا حياء من ذلك ! ٠٠  
فلما اخذتهما أردت أن أعرفه اننى غلبته ، وأنه المخبون فى هذه الصفقة  
فقلت له :

– المخبون منا من خسر اللؤلؤتين ! ٠٠  
فقال لى :

– أما أنا فما أبالى ٠٠ لا يزال طيبه هذه الرائحة فى أنفى وفى أهدا  
ما حييت ! ٠٠  
وقد فرح ابن رامين باللؤلؤتين ، وأخذهما ليضيفهما الى كنوزه ! ٠٠

### ● اليوم الرابع :

سقطت الدولة الاموية ٠٠ واضطربت احوال الكوفة ، اذ صارت  
عاصمة الدولة الجديدة ، دولة بنى هاشم أو بنى العباس ، وبدأ ابن رامين  
يبيع جواريه ، فباع ربيحة وسعدة لبعض الهاشميين الحكام الجدد ٠٠  
وباعنى أنا للهاشمى جعفر بن سليمان بن على ٠٠ ومضى بى جعفر الى البصرة  
التي أصبح والده واليا عليها ٠٠

لم يكن الوالى سليمان بن على يعلم ان ابنه جعفرا اشتراى حتى وشى بنا  
بعض الوشاة ففاجأنا الرجل ليلة وأنا أغنى والعود بين يدى ، وجعفر يصيح  
طربا ٠٠ فقال الرجل لابنه :

– ويحك ٠٠ أما علمت ان عبد الله بن على قد تحرك بالثورة ، وقد يهجم  
علينا وينتزع منا البصرة ، ويقتلنا جميعا ، وأنت على هذا الحال ومعك  
جارية تغنيك قد اشتريتها كما بلغنى بثمانين ألف درهم ! ٠٠

فوثبت الى الوالى فأكببت على رأسه فقبلته ودعوت له بالنصر على أعدائه  
وأظهرت له فى كلامى من العقل والنهم ما أعجبه ، فانصرف ولم يعد الى  
مغاضبة ابنه فى شأنى ! ٠٠

وبعد أن استقرت الاحوال ، وأخفق الناثرون على الدولة ، دعا جعفر إياه  
ليسمع غنائى ، فاقترح الرجل أن أغنيه :

إذا ما أم عبد الله

لم تحلل بواديه

ولم تشف سقيما هيج

العزى دواعيه

فقلت للشيوخ :

– فديتك ٠ قد ترك الناس مثل هذا الغناء منذ زمان ٠٠ ولكنى أحفظه  
وأغنيه ! ٠٠

ثم غنيت له هذا اللحن القديم ، فرأيت بهز رأسه طربا .. فعجبت لقلة علمه بالغناء المتقن .

### ● اليوم الخامس :

لم أر مثل هذا اليوم منذ صرت جارية لجعفر بن سليمان ، فقد انفجرت غيظه فجأة ، ومضى يستجوبني ، ويمطرنى بالسؤالات العجيبة عن أيامى الماضية فى بيت ابن رامين ، ولم تقنعه جواباتى ، حتى قال لى :

— هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة فى بيت ابن رامين ؟  
فعلمت من سؤاله هذا ان شيئا قد بلغه ، وعزمت أن أصدقه ، ايشارة للمسلامة ، فقلت له :

— لا والله .. الا يزيد بن عون الصيرفى الملقب بالماجن ، فانه قبلنى قبلة !

ورويت له باختصار شديد قصة هذه القبلة واللؤلؤتين ! ..

فرأيت وجهه قد احتقن ، ولم يتكلم ، وخرج ولم يعد الا بعد وقت طويل ! ..

ويا عجباً ! .. كيف يطلب هذا الرجل من جارية كانت فى كل وقت معروضة للبيع ، أن تبقى مصونة لا تمس طوال ماضيها قبل شرائه اياماً !

### ● اليوم السادس :

ليتنى لم أعمش حتى أرى هذا اليوم ! ..

جاء جعفر بن سليمان بيزيد الصيرفى الماجن ، بحيث أرى وأسمع ما يجرى له ..

وسأله عن أمور لفقها له ، فدافع الماجن عن نفسه ونفى كل تهمة .. ولم يدر الماجن ان تهمة الحقيقية التى يستجوبه عنها هى قبلة اللؤلؤتين التى مضت عليها سنوات ! ..

لم يستطع جعفر أن يمسك الماجن بجرم ، ولكنه أصر على اتهامه بجرائم ملفقة ! ..

وأمر جعفر الجند فخلعوا ثياب الماجن ، ووثبوا يضربونه بالسياط ! .. ووضعت أصابعى فى أذنى حتى لا أسمع صراخ الماجن ، وقد زاد عدد السياط التى ضربوه بها على خمسين سوطاً ..

ثم خفت صوته حين جاوز عدد السياط مائتين .. ثم كفوا عن ضربه .. وحملوه ميتاً .. والأمير جعفر يغمره الارتياح ، فقد قتل غريمه المسكين !

## مجلس الطرب والفكاهة

### ● اليوم الاول :

زميلتي « مكنونة » جارية مقيمة حاذقة ، جميلة الوجه ، لكنها نحيفة مكشوفة من وراء ! ..

إذا رأيتها من خلف وهي تمشي رأيت في قوامها استواء تاما كاستواء خشبة صلبة ، من ظهرها الى عجزها الى فخذها ، حتى قال لها بعضهم مازحا : يا مكنونة .. ظهرك جميل الاستواء كظهر الطست ! ..

ولكن مكنونة لا تبالى ما يقولون عن ظهرها ، فهي بارزة الصدر ، حسنة البطن ، مكتملة الحسن في كل شيء تواجه به الناظرين .. وتمشي مشية لطيفة ، تشد قوامها فيكون صدرها متقدما عليها ، كأنه يقول عنها للناس : أنظروا ! أو يقول لهم : افسحوا لها الطريق ! ..

وأنا والله أجمل منها وجها ، وأحسن غناء ، ولكن حظها عظيم ، وحظي قليل ، فإن « المهدي » ولي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، اشتراها بمائة ألف درهم ، ولا علم لابيه بذلك ، ولو علم ، لانتزعها منه وباعها واسترد دراهمه ، فإن أباه هذا بخيل متشدد ! ..

والناس يسمونني « بصبص » .. ولا أعلم اسما لي غيره ، وأعيش منذ طفولتي في دار مولاي يحيى بن نفيس في المدينة ، ويجيء الاشراف والظرفاء فيسمعون غنائي ، وغناء زميلاتي جوارى ابن نفيس ، ولكني أبرعن جميعا ، وأشدهن تقدما في الغناء ..

وممن يغني دارنا ليسمعني ، محمد بن يحيى ، حفيد الامام الحسين ، وعبد الله بن مصعب من آل الزبير بن العوام ، وكثير من الهاشميين والقرشيين ! ..

وأبخل زوارنا وأبعثهم للضحك اسمه « مزبد » .. يبلغ في بخله حد الجنون ، الا انه لطيف خفيف ! ..

قلت لجلسائي أمس : أنا آخذ لكم من مزبد درهما كاملا لا ينقص وزنه شعرة واحدة ! ..

فصاحوا :

- والله ما يقدر الشيطان نفسه أن يأخذ درهما من مزبد ، ولا مقدار حبة شعير من الدرهم ! ..

وقال لى سيدى ابن نفيس :

— أنت حرة لئن أخذت منه درهما ، ان لم اشتر لك قلادة ذهب وجوهر  
بمائة ألف دينار ، وثياب وشى بما شئت من المال العظيم ، ثم اجعل لك  
مجلسا بالعقيق خارج المدينة عند العشب والماء ، فانحر فيه لك ناقة أو  
بقرة ، واجمع لك ظرفاء المدينة ! ..  
فقلت له :

— جىء به وارفع عنى الغيرة ، مهما داعبته ! ..  
قال :

— أنت حرة فاصنعى ما شئت ، فقد رفعت عنك الغيرة ! ..  
فذهب عبد الله بن مصعب الى مزبد فقال له :

— أبا اسحاق .. أما تحب أن ترى بصبص جارية ابن نفيس ! ..  
فتوسل اليه أن يصحبه الى مجلسى ! ..

فلما جاء وغنيت صوتا شرب ابن نفيس والقوم معه أقداحا ، وتصنعوا  
السكر وتناوموا ، فأقبلت على مزبد فقلت :  
— يا أبا اسحق ، كأنك تشتهى أن أغنيك :

**لقد حثوا الجمال ليهربوا**

**مننا فلم يثلموا**

فالقى الرجل نظرة على القوم النائمين فاطمان وهمس :

— هل تعلمين الغيب ؟! .. فهذا والله ما أشتهى ان أسمه الساعة  
منك ! ..

فغنيتها وهو ينعر ويصفق طربا ، وأنا أسأله الا يفعل ، حتى لا يصحو  
النائمون ! ..

ثم نظرت فى عينيه وقلت له :

— أبا اسحاق ! .. أليس فى نفسك أن أقوم فأجلس لصبيقة بك  
وأغنيك !

**قالت وابشتها وحدى فبيحت به**

**قد كنت قلما تحب الستر فاستتر**

**ألست تبصر من حولى فقلت لها**

**غطى هسواك وما ألقى على بصرى**

فصاح طربا ، وقال :

— كأنك تعلمين مافى الارحام ، وما تكسب الانفس غدا ، وبأى أرض  
تموت ! .. وكأنك .. وكأنك ..

قلت له :



— استغفر ربك يا أبا اسحاق ، ولا يخرجك الطرب الى مثل هذا القول  
تم غنيته هزجا :

انا ابصرت بالليل

غلاما حسن النحل

فقصن البان قد أصبح

مسقيا من الطل

فكاد يخرج من ثيابه طريا ، وصاح :

— كانك نبية مرسله فى هذه الصناعة ! ..

فقلت له وقد قربت منه جدا : « قد نهيتك عن مثل هذا الكلام .. فالان  
برح الخفاء ، وظهر ما احتجب من حبك لى ، وأنا أعلم انك تستهى أن تقبلنى  
قبلة شق التين » ! ..

فدنا منى ، فنحيته متلطفة ، وقلت له وقد ملكته كخاتم فى أصبعي :

— أبا اسحاق ! .. أرايت اسقط من هؤلاء السائمين .. يدعونك  
ويخرجوننى اليك لاغنى ولا يشترون ريحانا بدرهم !؟

يا أبا اسحاق : هلم درهما نشتري به ريحانا ! ..

فتغير وجهه حتى كلع وصار كوجه الكلب حين يتهيا للعض أو العراك ،  
ثم وثب صارخا مستغيثا :

— واحرباه ! .. أيتها الخاطئة ! .. والله لو غيبتنى مائة صوت ،  
ومنيبتنى مائة من « شق التين » .. ما كان ذلك كفاء درهم ولا دائق يخرج  
من كيسي ! .. الا ان انقطع والله عنك ذلك الوحي الذى كنت ظننت انه  
يوحى اليك ! ..

فضج القوم بالضحك ، وخرجوا من تناوهم ، وركبوا الرجل بالدعابة  
والسخرية ، وقالوا لى :

— أما حذرناك من درهمه ودانقه . وقلنا لك انه لو علم ان الجنة  
لا يدخلها الا بدرهم ، لرحزح نفسه عنها الى النار ! ..

### ● اليوم الثانى :

كثر المعجبون بى ، وكلهم يزعم انه انما يحب غنائى ، ولكن أشعارهم  
تم عليهم ، وتشى بمشقةم لى لا لغنائى ! ..

هذا شاعر يقول :

بصبص أنت الشمس مزانة

فان تبذلت فانت الهالال

سبحانك اللهم ما هكذا

فيما مضى كان يكون الجمال

إذا دعت بالعود في مشهد  
وعاوتت يمنى يديها الشمال  
غنت غناء يستفز القتي  
حذاقاً وزان الحلق منها الدلال

وبالامس حضر مجلسي أبو السائب المخزومي فغيتت :

قلبي حبيس عليك موقوف  
والعين عبرى والدمع مذروف  
والنفس في حسرة بفتتها  
قد شف ارجاءها التساويف  
ان كنت بالحسن قد وصفت لنا  
فانني بالهوى لموصوف  
يا حسرتا حسرة اموت بها  
ان لم يكن لي لديك معروف

فطرب السائب وبكى ولطم خديه وقال :

— لاعرق الله قدرى ان لم أعرف لك معروفك ! .. بأبى والله أنت ! ..  
انى لارجو أن تكوني عند الله من الشهداء لما تولينا من السرور !  
وجمل يصيح : واغوثاه ! .. واغوثاه ! .. يالله لما يلقى الماشقون ! ..  
فلما هدا السائب المخزومي ، سألت فتى فى المجلس أعرف انه يحبني ،  
أن يأتيني بحاجة ، فقام ليأتى بها فنسى أن يلبس نعله ومشى حافيا ، فقلت  
له : نسيت نعلك ! .. فتنبه ولبسها وقال لي :  
— أنا والله كما قال الشاعر :

وحبك ينسيني عن الشيء في يدي  
وشغلني عن كل شيء أحاوله

فظننت به حقاً ، لا عشقا ، لانه يذكرني والتعل في بيت واحد ! ..

### ● اليوم الثالث :

قدم أمير المؤمنين المنصور المدينة منصرفا من الحج ، وقيل ان بعض  
حاشيته يزعم أن زميلتي « مكنونة » التي اشتراها ولي العهد « المهدي » قد  
حظيت عنده ، حتى نافست زوجته « الخيزران » .. وان مكنونة قد ولدت  
بنتا سميتها « عليا » وانها تعلمها الغناء منذ طفولتها .. فليت شعري ، أظن  
مكنونة ان ابنتها الصغيرة هذه ، ستكون مغنية تباع فى سوق الرقيق  
مثلها ، فهي تنسئها على ما نشأت عليه !؟ ..

استقبل أهل المدينة مقدم الخليفة بفتور ، ولما أخذ يتأهب للروح ، قال

عبد الله بن مصعب ، حفيد عبد الله بن الزبير :

ارائج انت ابا جعفر  
من قبل ان تسمع من بصيصا  
هيهات ان تسمع منها اذا  
جاوزت العيس بك الاعوصا  
احلف بالله يميننا ومن  
يحلف بالله فقد اخلصنا  
لو انها تدعو الى بيعه  
بايعتها ثم شقت العصا

فبلغت الابيات الخليفة ، فغضب ودعا عبد الله بن مصعب فقال له :  
- أما انكم يا آل الزبير قديما ما قادتكم النساء ، وشققتم معهن العصا ،  
حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ! ..

يشير الخليفة في كلمته هذه الى خروج جد هذا الفتى « الزبير بن  
العوام » ، رضى الله عنه ، في وقعة الجمل مع السيدة عائشة رضى الله عنها ،  
مع ان الزبير انصرف من الوقعة تائما ولم يحارب وقتلوه غدرا ! ..

وجاءنى عبد الله بن مصعب فسألته عن حاله بعد غضب الخليفة عليه  
فقال : والله لا أبالي .. ولئن خرجت عليه يابصبص لا يابعنك ، فما هو عندى  
بأفضل منك ! ..

### ● اليوم الرابع :

رحل المنصور ، فبلغنى من بعض من شيعوا موكله خارج المدينة ، انه  
قال : و يعجبني الحداء ، فانه أحسن فى السمع من غناء بصيص وامثالها  
من القيان المتبذلات ، وأحرى أن يختاره أهل العقل ! ..  
ثم أمر فحدا به الحادى :

انى وان كان ابن عمى كاشحا  
لمزاحم من دونه وورائه  
وممسه نمرى وان كان أمرا  
متزحزا فى ارضه وسمايه  
واذا ترش فى غناه وفتره  
واذا تصعلك كنت من قرنايه  
واذا غدا يوما ليركب موكبا  
صعبا فعلت له على سيسائه

فقال المنصور :

- هذا والله أحت على المروءة ، وأشبه بأهل الادب من غناء بصيص التى

يزعم ذلك الزبيرى الاحق انه يبايعها بالخلافة ! ..

ثم اراد ان يتكرم على الحادى فأمر باعطائه درهما واحدا ! ..  
فقال له الحادى :

- يا أمير المؤمنين .. حدوث بهشام بن عبد الملك منذ سنين فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وتأمر لى أنت بدرهم واحد ؟ ! ..  
فقال المنصور :

- ذلك رجل ظالم كان يفتصب الخلافة ويأخذ مال الله من غير حله ،  
ويتفقه فى غير حقه ! .. وانى أمرك بأن ترد المال الذى أخذته منه ! ..  
فبكى الحادى وقال :

- يا أمير المؤمنين ، قد مضت لهذا السنون ، وقضيت به الديون ،  
وتمزقته النفقات ، وما بقى عندى منه شيء ! ..

فلم يزل المقربون الى الخليفة يسألونه ان يعفى الحادى من رد المال الذى  
أخذه من الخليفة الاموى هشام ، حتى كف عنه ، على أن يعدو به ولا يأخذ  
شيئا ، واسترد منه الدرهم اليتيم الذى كان أعطاه ! ..

فهذا الخليفة والله أشنع بخلا بدراهمه من « مزبد » .. وأنبج منه فى  
معاملة الناس ! .. فهل يلام ذلك الفتى الزبيرى الذى حلف يميناً لو اننى  
شققت العصا على هذا الخليفة لخرج معى عليه وبايعنى بالخلافة ؟ ! ..

## تلميذة الموصلى وجارية الرشيد

### ● اليوم الاول :

نشأت فى بيت واسع يهوج بالجوارى والغلمان ، صسفارا وكبارا .. كل يوم أرى جارية أو غلاما يخرج من هذا البيت ولا يعود ، ثم يجيء غلام أو تجيء جارية لا نعرفها ولم تكن معنا من قبل فى البيت ! ..

صاحب البيت اسمه « قرين » صناعته « نخاس » يبيع الجوارى والغلمان ويشترهم .. وهو من هذه التجارة فى ربح ينهر عليه كالطر بلا انقطاع !

جوارى « قرين » النخاس .. قسمان : أحدهما قسم الجوارى الفانتات والمغنيات ، والآخر قسم جوارى الخدمة ، ومن لا موهبة لهن الا موهبة الفتاة العادية .. وشتان بين الثمن الذى تباع به الجارية من القسم الاول ، والثمن الذى تباع به جارية القسم الثانى ! ..

وكذلك الغلمان ! ..

فمن كان منهم مغنيا أو ذا موهبة ترفع من ثمنه عند المشترين ، اهتم به « قرين » النخاس وجاء اليه بالمدرسين ومن يشقفه ويعلمه أصول الحياة فى بيوت السادة .. ومن لم يكن كذلك باعه كيفما اتفق ، ورضى فيه بما تيسر من الربح ! ..

كنت صغيرة السن حين اشتراى « قرين » من سوق الرقيق وضمنى الى جوارى بيته .. وبدت له منى مخايل الذكاء ، فضلا عن جمالى ، وقد عرف النخاس الذكى اللماح الذى حنكته التجارب أن جمالى هذا سوف يصبح باهرا ساحرا بعد سنوات قلائل .. فقال لى يوما وهو يلاطفنى :

— يا ذات الخال .. أراك أجمل الناس وجها ، ولك خال على خدك لم ير الناس أحسن منه فى موضعه ، وانك لجديرة بأن تباعى للسراة والاعيان والكبراء ، ولكنى أحب أن أسمعك تفتن لحننا مما تحفظين ، فان رأيت أن لك حنجرة عذبة ، جئت لك بمن يطارحك الالحن ويعلمك الغناء ، فانك عندئذ تصبحين من أغلى الجوارى ثمننا ، فأبيعك لعظماء بغداد ، وأربح أنا ، وتعيشين أنت فى قصورهم معزة مكرمة ! ..

فلما غنيته ما أحفظ من الالحن ، نهر وصفق ورقص ، وقال لى والبهجة تعصر ملامح وجهه فرحا وطمعا :

- ويحك يا ذات الخال .. والله انك لجميلة الصوت جمالا مفسرطا ،  
كانما اتفق صوتك ووجهك على أن يتقاسما ما في الدنيا من متاع الاسماع  
والابصار ، ومثلك - اكرمك الله - لا يصلح لتثقيفه في الغناء الا كبير  
المغنين في بغداد ورأس صناعتهم ، ابراهيم الموصلى ! .. وان غلا ثمن  
الدروس عنده ! ..

### ● اليوم الثاني :

جاءنى سيدى « قرين » النحاس بكبير المطربين والملحنين ابراهيم  
الموصلى ، وأفرد لى حجرة خاصة ، فسيحة مريحة ، واشترى لى عودا ..  
وأسرف فى برى واكرامى ، كأننى أعز أولاده وبنااته :

تأملنى الموصلى وقال لى والاعجاب بجمالى يظفر من عينيهِ :

- ما اسمك يا صبيحة الوجه !؟ ..

- ذات الخال ! ..

- أهذا اسمك أم لقبك !؟ ..

- اسمى « خنت » .. ولكنى لا أسمهم هنا ينادوننى الا بذات الخال ،  
لا ترى من موضع الخال على خدى هذا ..

وأشرت الى خدى ، والخال الاسود الجميل الذى يتخذ فيه موضعا بديعا  
يلفت العيون والقلوب ..

اهتز الموصلى طربا لجوابى هذا ، وافتتن بظرفى وحلاوة اشارتى ..  
وقال لى :

- والله لاعلمنك حتى تحذقى بالصناعة فلا يفوتك منها شئ ، ولا تفورك  
فيها مغنية فى بغداد كلها ..

ثم بدأ الموصل درسه الاول .. وتعلمت فى هذا الدرس الاول كيف  
أمسك بالعود وأضرب عليه ضرب المبتدئين ! ..

فلما أتم الموصلى الدرس ، تنفس كأنه يزفر من الوجه ، وسلم وحيا  
وانصرف ، وهو لا يريد أن يصرف عنى عينيه ! ..

ثم توالى الدروس فى أيام كثيرة حتى برعت فى الغناء وضرب الصود ،  
وأخذت عن الموصلى ألحانا كثيرة من غناء الفحول القدماء ومن غنائه هو ..

وتوثقت علاقتنا حتى صارت حبا .. وما كنت أظن أن مثله فى شهرته  
وثروته وجامه يتعلق بمثلى ، ولا ظننت انى أتعلق بمثله ! ..

### ● اليوم الثالث :

جاء الموصلى يطارحنى الالحان ، فقال لى :

- اتعلمين من يريد شرائك الآن يا خنت ١٩

- لا أعلم ! ٠٠

- هارون الرشيد ! ٠٠

هزنى الخبر ، سألته بلهفة وقد تعاطفنى الخبر حتى ظننت أن الموصلى  
يعزج :

- ومن أدواه بى وبمكاني يا سيدى ١٩ ٠٠

- أنا ! ٠٠

صحت إبراهيم الموصلى ، ونظرت اليه باهتة ، فقال لى متلطفا ياسما :  
- لا تعجبنى ، فما يصلح لك أن تعيشى الا فى قصره ، وما يعرف قدر  
غنائك وصنعتك أحده كالرشيد ٠٠

وجاء من القصر قهرمان اشترانى من قرين النخاس ، فاشتط فى الثمن  
حتى باعنى بسبعين ألف درهم ، وقد كان يقول لى من قبل انه اشترانى  
بخمسين درهما وأنا طفلة صغيرة ! ٠٠

ووجدت فى القصر جارتين اصطفيتهما من دون سائر الجوارى هما :  
ضياء ٠٠ وسحر ٠٠ « بكسر السين » ٠٠

كانتا من أحب الجوارى الى الرشيد ، فصرت معهما ، وحظيت مثلهما ٠٠  
ثم تفوقت عليهما بتقديمى فى صناعة الغناء ! ٠٠

ويزعم بعض الناس ان الرشيد قال شعرا فينا نحن الجوارى الثلاث ،  
ويدعون أن هذا الشعر بيتان هما :

**ان سحرا وضياء وخنت**

**هن سحر وضياء وخنت**

**اخدت سحر ولا ذنب لها**

**ثلثى قلبى ، وترباها الثلث**

لم يقل الرشيد هذا الشعر ، ولكن لفته عليه بعض الوضاعين الذين  
كثروا فى بغداد وكثر وضعهم للشعر ونحله للشعراء ولغير الشعراء ٠٠  
وأشد من هذا امعانا فى التلفيق قولهم ان الرشيد قال فينا هذه الابيات:

**ملك الثلاث الانسات عنانى**

**وحللن من قلبى بكل مكان**

**مالى تطاوعنى البرية كلها**

**واطيعهن وهن فى عصياني**

**ما ذاك الا أن سلطان الهوى**

**وبه عزّون أعز من سلطاني**

وانما قال هذا الشعر العباس بن الاحنف ، كأنه يتفكه ، فلم يجيء الا  
بما يسمح عند سامعه ممن يعرف الرشيد وحفاظه وهيبته ! ٠٠

## ● اليوم الرابع :

سهر الرشيد ، فدعاني فوافيته في مجلسه فلم أجد معه الا الموصل ، فقال لي الرشيد :

— يا خنت غنى صوت « الروم » ..

فغنيت هذا اللحن وكان يسميه « صوت الروم » لانه يصف الجوارى الروميات :

جنن من الروم وقاليقلا

يرفلن في المرط ولين الملا

مقرطقات بصنوف الحل

يا حبذا البيض وتلك الحل

فاستحسن غنائي ، ثم أمر الموصل ، فغنى :

جزى الله خيرا من كلفت بحبه

وليس به الا الموه من حبي

وقالوا لها : هذا مجبك معرضا

فقالت : أرى اعراضه أيسر الخطب

فما هو الا نظيرة بتبسسم

فتتشب وجلاه ويسقط للجنب

فرغ الموصل من غنائه ، فصرفه الرشيد ولم يامر له بجائزة .. وصمت برهة ثم قال لي :

— يا خنت .. أسألك عن شيء ، فاصدقيني ! .. هل كان بينك وبين ابراهيم الموصل شيء حين كان يطارحك الالحن في دار الفخاس « قرين » ١٩

دهمني سؤاله وحبرني ، فتلكات في الجواب ، ولكني لم أستطع أن أكذب لكيلا يسأل ويتحرى ويعرف الحقيقة ويماقبني .. قلت :

— نعم ! .. مرة واحدة .. ولم يكن شيئا ذا بال ! ..

وجم الرشيد ، وقال :

— فلهذا نظم الموصل فيك وغنى هذه الاشعار الكثيرة التي يرويها الرواة ويفنيها المغنون ! ..

ورأيت الكراهة في وجهه ، وأرسل من فوره الى « حموية » الوصيف في القصر ، فقال له :

— يا حمويه .. قد وهبت لك هذه الجارية فخذها ..

## ● اليوم الخامس :

جاءني حمويه اليوم يقول لي :



- سأحدثك بما يسرك ويشرح صدرك ! ..

- خيرا .. ان شاء الله ..

- طلبني أمير المؤمنين منذ ساعة فقال لي : ويلك يا حمويه ، أوهبنا لك الجارية لتسمع غناءها وحدك !؟ .. فقلت له : يا أمير المؤمنين : مر فيها بأمرك ! .. قال : نحن عندك غدا ! ..

قلت لحمويه :

- قد كنت في قصره لا أغني له الا وأنا في الوشي والديباج والجوهر والذهب .. فأى شيء أردتديه أو أتحملي به ، وأنا عندك !؟ ..

قال :

- لا تبتئسى ، فوالله لن تبرزى اليه الا في أبهى الحلل ! ..

ثم مضى حمويه فاستأجر من بعض الجوهرين في الكرخ ملابس فاخرة مما اعتاد أصحاب الجوارى استئجاره لهن في الأفراح والليالي والاعراس .. ثم مضى الى بعض من يعرفهم من الجوهرين البغداديين ممن يهابونه لمنزلته في القصر ، فاستأجر لى منهم عقودا من اللؤلؤ والجوهر ثمتها اثنا عشر ألف دينار ! ..

فلما جاء الرشيد وأخرجني اليه ، تعجب الرشيد لحسن منظري ، وقال لحمويه :

- ويلك يا حمويه ! .. من أين لك هذا وما وليتكم عملا تكسب فيه ما تشتري به هذا الجوهر الثمين وهذه الثياب التي أراها على جاريك !؟ ..

فأخبره حمويه بما فعل من استئجار الجواهر والثياب حتى تبدو في زى لائق في حضور أمير المؤمنين ..

فجلس الرشيد ، ففنيته ما اقترح من الالمان حتى اكتفى ، وأمر لى بجائزة عظيمة ، وقضى لى حوائج كثيرة ، ثم بعث الى التجار أصحاب الجوهر فأحضرهم واشتراه منهم ، ووهبه لى ! ..

فلما هم بالانصراف قال لى في عطف بالغ :

- أبقيت لك حاجة !؟

قلت في امتنان :

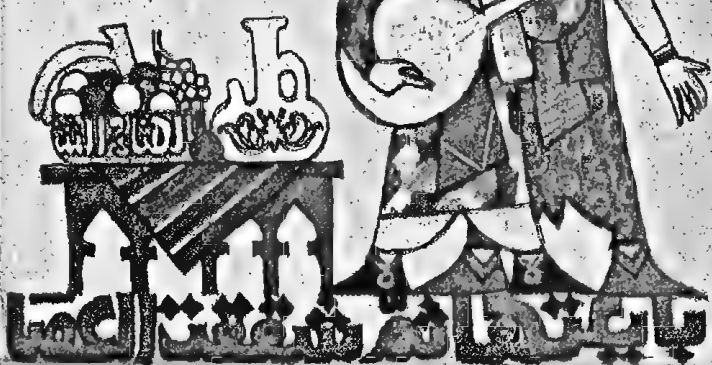
- لم تبق لى حاجة الا قضيتها لى يا أمير المؤمنين ، ولكنى أسألك أن تولي حمويه عملا في بلاد المعجم بضع سنين !

فولاه الرشيد الحرب والخراج في بعض المواقع هناك ، وأن حمويه لمن أحسن وأبرع أرباب السيوف في عسكر الرشيد ..

### ● اليوم السادس :

بينما نحن في أسعد الاوقات بقصرنا في هذه الجهة من بلاد فارس ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سمعت وسمع حمويه صوت مفن يأتى من دار قريبة منا ، يقنى هذه الابيات  
من شعر ابراهيم الموصلى وصنعته :

تقول ذات الخيال

لى : يا خلى الببال

فقلت : حاشاك من أن

يكون حالك حالى

اعرضت عني لما

اوقعتنى فى الحببال

ان الخلى هو الفا

فل الذى لا يبالى ! ..

فلما فرغ المفن من اللحن ، تفكر حمويه قليلا ثم قال لى وقد اعتكر  
مزاجه وتريد وجهه :

— لولا أن يقول الناس : قتل حمويه جاريته لريبة ، لقتلتك الساعة ،  
لما ورد على قلبى من هذا الشعر وهذا الفناء ! .. فمن صاحبهما !؟ ..  
قلت :

— هذه من مداعبات ابراهيم الموصلى حين كان يطارحنى الالخان ، وأنا  
أستحق بهذا الشعر التكرمة والاعزاز منك ! .. ألا تراه يعترف بأننى قد  
أعرضت عنه وأننى غافلة عنه غير مبالية به !؟ .. فما ذنبى !؟ ..  
تهلل وجه حمويه ، وقال :

— نعم .. صدقت ! .. ليس لك ذنب ! ..

## السجن طريق الشهرة

### ● اليوم الاول :

ما فكرت يوما أن أحترف الغناء ، ولا تصورت انى أمسك بالعود وأضرب على أوتاره وأغني للناس وألقى استحسانهم ثم ألقى أجر الغناء قليلا كان أو كثيرا ..

غنيت تلذذا بالغناء ، أطرب نفسي وأصحابي ولا أكتب شيئا .. وهربت في صباى من جميع الكتائب التى الحقنى بها أهل ، أسعى وراء المقتن ، أسمع منهم ، وأتعلم وأتطرب ولا أتكسب .. ونسيت في غمرة طلبى للغناء أن أتعلم القراءة والكتابة ، فعشت حتى مطلع شبابى أميا أجهل كيف أكتب اسمى ..

واستبد بى حب هذا الطريق ، حتى صار يطرقنى فى المنام طيف رائع الجمال ، لا أدري أهو جنى أم انسى .. فيغنينى ألحانا لم أسمع مثلها حلاوة وبراعة فى الصنعة والأداء والنبرات وامتداد الانفاس ، مع ضرب بالآوتار كأنه يخرج من أصابع ساحر مبدع ! .. وكنت أسأله :

— لماذا أصبح من نومي فأجدنى غير قادر على أداء ما تسمعني من هذه الألحان ؟ ..

فيجيب دائما :

— ستجدها متفرقة فى ألحانك طوال حياتك .

فأعود أسأل :

— وهل ستكون لى الحان ؟!

فيضحك وينصرف ! ..

وقلت له يوما وقد تجارينا فى الكلام عن الغناء وكان قد غفاني لحنا كاد أن يذهب بعقل :

— هب لى هذا اللحن حتى أحفظه وأغنيه ، ثم لا تهب لى بعده شيئا ! .

فشملتني منه نظرة حنان كأنى طفل وقال لى :

— يا بنى لو حفظته فغتيه الناس لاصيبوا بالجنون .. فما حظك من ذلك ؟ ..

ثم انصرف الطيف في لمحة عين ! ..

## ● اليوم الثاني :

كنت جالسا وقد أغلقت باب بيتي ، ومجلسي ليس فيه غري ، وعودي في يدي أترنم وأجس أوتاره ، وأنشط نفسي للفناء ، فلا تنشط !

وإذا بشيخ ذي هيئة وجمال ، في قدميه خفان قصيران وعلى بدنه قميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة قد لزقت برأسه كأنها منه ، وبجانبه عكازة من الفضة ، ورائحة المسك تفوح منه حتى ملأت البيت ، فأذهلتني المفاجأة ، وهممت أن أسأله كيف دخل والباب موصد ، فسبقني فسلم فأحسن السلام ، فرددت عليه ، ودعوته الى الجلوس ..

وحدثني فوجدت عنده أدبا وظرفا .. فسألته : هل لك في الطعام ؟ .. فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : هل لك في الشراب ؟ .. فقال : ذلك اليك ..

شربت في قدح كبير ، وأعطيت ضيفي مثله ، فلما شربه ، قال لي : هل لك أن تغني شيئا من صنعتك أو من صنعة الاوائل ، فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت ما لا يحسن أحد من المطربين أن يغني مثله ، فلم يزد الشيخ على أن قال : أحسنت ! ..

فاظنني استحسانه القاتر لفنائي ، فهمت به ، ولكنه بادر يقول مبتسما : هل لك أن تزيدنا ؟ .. فنظرت اليه مستهينا بعقله ، وقلت في نفسي : ظننت الشيخ ممن يعقلون هذه الصناعة ، وهو لا يكاد يعصرف شيئا فيها ، واندفعت أغني لحنا ، مجتهدا فيه لا مبالاة بهذا الشيخ المتطفل على بيتي ، وانما تقفنا في الصنعة وتطربيا لنفسي ! ..

لم أفرغ من اللحن حتى قال لي : أتأذن لي في الفناء ، فهذه نوبتي ؟ .. فاستصغرت هذا الشيخ جدا ، واستضعفت عقله إذ يغنيني بعد الذي سمعته مني ، وخطر لي ما قد يجيء في غنائه من سخف فضحكت حتى استغريت من الضحك ، فقال : ما يضحكك ؟ .. قلت : شيء خطر ببالي ، فامض لما عزمتم عليه من الفناء .. أمتعنا الله بك ! ..

أمسك الشيخ بالعود فجسسه وربط أوتاره ، وضرب .. فوالله لكانه ينطق بلسان عربي مبين ، ثم انطلق يغني ، فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله اني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي .. ثم غنى صوتا ثانيا فكاد عقلي أن يذهب طربا وارثيا لما سمعت ..

وفرغ الشيخ من غنائه ، فنظر لي مليا ثم قال : هذا غناء ومهيته لك فغنه للناس ، فقلت متلهفا : أعدده يا سيدي حتى أحفظه ! .. فقال : لست تحتاج الى اعادته مني فانك حفظته وأحكمت حفظه ! ..

فالتفت ورائي اطلب شيئا ، وما كانت لفتتي هذه الا كلمحة البرق ،  
واقبلت بوجهي على الشيخ فاذا به قد اختفى من المجلس في هذه اللحمة ،  
قارتعت وقمت أعدو وأصبح نحو الباب فوجدته مغلقا كما تركته قبيل  
ظهور الشيخ في البيت ، ففتحت الباب وعدوت الى الباب أسأله ، فقال  
لي : أى شيخ تسأل عنه ؟! .. ما دخل اليك اليوم أحد ! ..

### ● اليوم الثالث :

تعدت اتأمل امرى ، فاذا صوت يقول ولا أرى صاحبه : لا بأس عليك  
يا صديقى ! .. أنا الطيف الذى تسمع غناؤه فى نومك ! .. وأنت الآن  
أحسن المغنين ، فلا تعجب عن احتراف الغناء ، فان هذا العصر هو عصرك ،  
وأنت رأس هذا الفن منذ اليوم ..

واختبرت نفسى فوجدتني أحفظ ما غنانيه هذا الشيخ ، وأنا الى ذلك  
أحسن الناس صنعة فى الغناء وأغزهم غلما به .. وصرت أغنى لبعض  
كبراء الهاشميين من رجال الدولة ، حتى سمع عنى أمير المؤمنين المهدي ،  
فطلبني ولازمته أغنى فى مجلسه ، وما سمع قبلي أحدا من المغنين الا اثنين  
لا أكثر .. فقد مضى عهد أبيه الخليفة المنصور من قبله ولم يكن يسمع الغناء ،  
وكذلك كان الخليفة عبد الله السفاح من قبله .. فانقضت خمس وعشرون  
سنة لا يدخل المغنون قصر الخليفة العباسي ، اذ كانت خلافتهم فى أول  
أمرها ، وهم انما ناروا على بنى أمية لما كان من تعاطيهم الشراب ، وادمانهم  
سماع الغناء والملاهي وتضييعهم أموال المسلمين فى اللهو والسماع .

فلما جاء ثالث الخلفاء العباسيين المهدي ، سمع الغناء وأجاز عليه ..  
ولكنه كان لا يشرب النبيذ ولا غيره من الاشربة ، فلما صرت فى بطانته  
أرادني على ترك الشرب فابيت عليه ، وكنت أقتيب عنه الايام ، فان جثته  
جثته منتشيا ، فضربني وجبسنى مدة وتعلمت القراءة والكتابة فى العجس ،  
وكنت قبل أن أتعلم فصيحاً ألهج بالشعر كبنى تميم لاني تربيت فى بعض  
بيوتهم ، فاكتملت فصاحتي بالقراءة والكتابة ..

هكذا بدأت قصتى فى الغناء .

وصرت فى بطانة الخليفة المهدي فلم أجد فيها سعادة ولا راحة ،  
وكنت أظن أنني وقد وصلت الى الخليفة وصرت ثالث من يغني للخلفاء  
العباسيين وأولهم اتفاقا للصنعة والاداء ، قد بلغت أعظم ما أرجو لنفسي  
فى الحياة ! ..

ضيق المهدي على الخناق ومنعني أن أغنى للناس ، حتى اجترات يوما  
فقلت :

- يا أمير المؤمنين ، انما تعلمت هذه الصنعة للذتى وعشرتى لاخوانى ،  
ولو أمكننى تركها لتركها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل ! ..

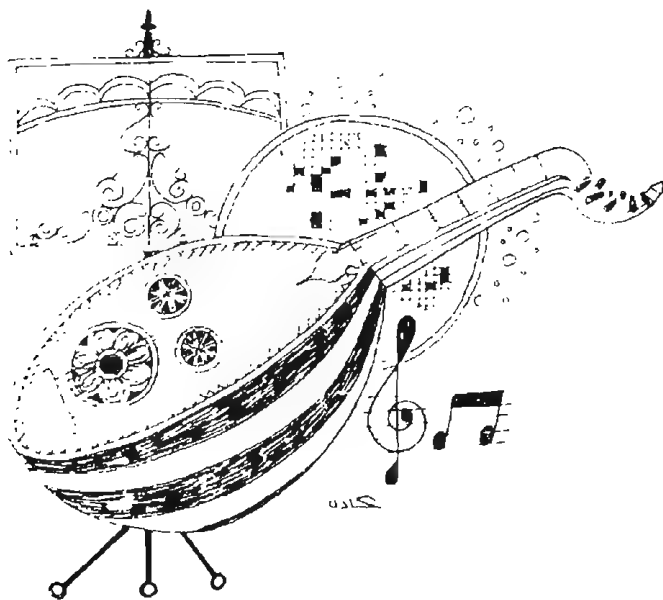
فغضب المهدي غضبا شديدا من جرأتى هذه وشدد على النكير ! ..

وكان وليا عهد المهدي ، موسى الهادي ، وهارون الرشيد شباين  
صغيرين ، فكانا يحبان سماعي سرا ، حتى وشى بهما أحد الخدم وقال  
لايهما انهما لا يكتفيان بسماع الغناء ، بل يضيفان الى سماعه شرب النبيذ  
ويستهتران بشربه مع الموصلين ..

فجئء بي الى الخليفة فأمر بضربي ثلاثمائة وستين سوطا ، وقيدني باغلال  
ثقال حتى ظننت انني ساموت من هذا العذاب ، فاجترأت وقلت للمهدي :

- يا امير المؤمنين .. ان جرمي ليس من الاجرام التي يحل لك بها  
سفك دمي !

فاستشاط الخليفة غضبا ، ووثب فضربنى بالسيف وهو في قرابه ،  
فشجنى به ، وسقطت مغمشيا على .. فلما أفقت أخرجوني وأنا أرى  
الدنيا صفراء وحمراء وخضراء من حر ضرب السياط ، والبسوني على جلدي  
الممزق جلد كبش ذبيح لتهدأ جراحي ! ..



## لعبة الجارية

### ● اليوم الاول :

المال عندي - بحمد الله - كثير لا ينفد ، ولكنني أخاف من نفاده اذا حبس عني أمير المؤمنين الرشيد عطاءه ولو شهرا واحدا أو بعض شهر . وقد سافر - أعزه الله - لغزو الروم منذ مدة ، فاعتراني خوف من الفقر ، على كثرة ما عندي من المال ، فقلت في نفسي : أقصد الى جعفر بن يحيى البرمكي الوزير ، فانه محب لي ، وهو كريم لا يراني حتى يأمرني . بجائزة ..

كانتني كنت ناسيا من شدة خوفي على المال الذي في خزانتي ، وشدة رغبتي في المال الذي في خزانة جعفر بن يحيى ، فما خطوت خارج داري حتى تذكرت ان جعفرا يصحب الرشيد في غزاته هذه التي لا أدرى متى يفرغ منها ، فانه عبأ الجيش ومضى ليؤدب « كلب الروم » - كما يسميه - مع انه « منك الروم » العظيم « تقفور » الذي يقال انه أقوى الملوك ! ..

قلت في نفسي : أذهب اذن الى الفضل بن يحيى البرمكي فانه لا يقل كرما عن أخيه جعفر ! .. ركبت دابتي ومضيت اليه تتنازعني الآمال ! .. قلت له ، وقد غنيته صوتا شرب عليه وطرب

- يا أبا العباس ، جعلت فداك ، هب لي دراهم أو دنانير ، فان الخليفة في الغزو ، ولا أعلم متى يعود ! ..

### قال الفضل

- ويحك يا أبا اسحاق .. ما عندي من المال ما أرضاه لك ، ولئن أعطيتك قليلا ، ليقولن الناس : الفضل بن يحيى أعطى إبراهيم الموصلي عطاء البخلاء ! ..

جزعت وقلت للفضل :

- فما العمل أيها الأمير !؟

تفكر شيئا فقال

- ما هنا فرصة طيبة ! .. أتانا رسول من صنعاء ، يعمل الينا ولاء حاكم اليمن ويرفع الينا حوائجه .. ووجه الينا صاحب اليمن بخمسين ألف دينار يشتري بها محبتنا ، وهو يعلم اننا لا نأخذ منه هذا المال ،



فالتمس منا أن يشتري لنا به ما نشاء من أسواق بغداد ! ٠٠ وقد علمت  
أنك تعرض جاريتك « ضياء » للبيع ، فأنا أقول لرسول صاحب اليمن :  
أذهب الى ابراهيم الموصلي فاشتر منه جاريتك ضياء ، وجئنا بها فأننا نقبلها  
هدية من سيدك صاحب اليمن ! ٠٠

ثم قال لى الفضل :

— يا ابراهيم ٠٠ اذا جاءك هذا الرجل يشتري جاريتك فلا تنقصها عن  
خمسین ألف دينار !

### ● اليوم الثانى :

بكر على دارى رسول صاحب اليمن ومعه صديق لى يتشفع به عندى ،  
فقال لى الرسول :

— يا أبا اسحاق ٠٠ جاريتك ضياء ، هل تبيعها ؟ ٠٠

قلت :

— لا والله ، فقد تعبت فى تعليمها حتى صارت فى الغناء حاذقة راوية  
محسنة كل الاحسان ، وقد طلبها منى الامراء والوزراء فأبيت أن أخرجها  
من دارى ! ٠٠

فوثب صديقى الذى جاء معه فقال :

— يا أبا اسحاق ٠٠ قد تشفع الرجل بى عندك فشفعنى !

فلم أجه بشيء ، وأغمضت عيني كأنى أفكر وأقلب وجوه الراى ، فقال  
لى صديقى :

ناشدتك الله أن تقبل وتشفعنى ، فقلت له :

— قد شفعتك ! ٠٠

فوثب رسول صاحب اليمن فسألنى :

— فبكم تبيعنى الجارية ؟

قلت :

— بخمسين ألف دينار ، لا أنقص منها دينارا واحدا ٠٠

قال الرجل :

— هل لك فى ثلاثين ألف دينار مسلمة لك معجلة ؟ ٠٠

فلما وقع فى سمعى ذكر ثلاثين ألف دينار ، ارتج على ، ولحقنى خوف  
وشبه ارتعاد ، كأننى أصبت بالحصى ، وقلت فى نفسى وأنا أعالج اضطرابى  
ورعدتى : قد كان شرائى هذه الجارية على أربعمائة دينار فقط ، فالربح  
فيها بأكثر من تسعة وعشرين ألف دينار ! ٠٠

وأشار على صديقى الذى معه بالبيع ، وركبتنى الوسائس فخفت أن

تموت الجارية فى تلك الساعة قبل أن أبيعها ، أو أموت أنا ، أو يموت  
الفضل بن يحيى ، أو يموت رسول صاحب اليمن هذا : فيضيع المال !  
فقلت للرجل :

هات المال - وخذها بارك الله لك فيها ! ..

### ● اليوم الثالث :

بكرت على الفضل بن يحيى فى قصره ، فإذا هو جالس وحده ، فلما بصرت  
بى ضحك كثيرا ، ثم قال لى :

- يا ضيق الحوصلة ! .. ياتسرع ! .. يا شديد الحرص ! .. حرمت  
نفسك عشرين ألف دينار ؟ ! ..

قلت :

- جعلت فداك ! .. دع ذا عنك ، فوالله لقد داخلنى شيء أعجز عن  
وصفه لك ، وخفت أن تحدث بى حادثة ، أو بالجارية أو بالمشتري .. أو  
.. بك ! .. أعاذك الله من كل سوء ، فبادرت بقبول الثلاثين ألف  
دينار ! ..

فلم يفضب الفضل وقال لاحد غلمانه :

- جىء بالجارية ضياء ! ..

فجاء الغلام بجاريتى وكان رسول صاحب اليمن قد أهداها اليه بمقرب  
شرائها وخروجه وإياها من دارى ..

وقال لى الفضل :

- خذ جاريتك مباركاً لك فيها ، فالما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية !

فلما نهضت وأخذت الجارية ، ضحك الفضل وقال لى :

- مكانك يا إبراهيم ، فإن رسول صاحب ولاية أرمينية قد جاءنا فقضينا  
حوادثه ، وجددنا خدمته ، ونفذنا كتبه .. وقد ذكر أنه جاءنا بثلاثين ألف  
دينار يشتري لنا بها ما نحب .. وسارسله اليك فأعرض عليه جاريتك هذه  
ولا تنقصها عن ثلاثين ألف دينار ! ..

### ● اليوم الرابع :

طرق بابى رسول صاحب إمارة أرمينية ، فقلت للغلمان : لا تجيبوه  
ولا تفتحوا الباب له حتى يتعب ! ..

فلما تعب الرجل من وقوفه على بابى ، أمرت الغلمان فأدخلوه ، وكان  
معه صديق آخر لى يتشفع به عندى كما فعل رسول صاحب اليمن من  
قبل ! ..

فقاولنى الرجل بالجارية ، فقلت له متأففا :

— تمنيا ثلاثون ألف دينار ، لا أنقصها دينارا ! ..

قال :

— معى عشرون ألف دينار تأخذها معجلة مسلمة لك فى مجلسنا هذا !

فلم أكد — مع كلام الرجل حتى اعترانى من الخوف مثل الذى اعترانى عند لقائى برسول صاحب اليمن ، وجهدت أن أتماسك وأصر على الثمن الذى أمرنى به الوزير الفضل بن يحيى ، فما استطعت شيئا ، وأخذت المال من الرجل .. عشرين ألف دينار فقط ، وسلمته الجارية ، ومضى بها الرجل ليبديها الى الفضل ! ..

مكثت فى بيتى أياما لا أجرو على زيارة الفضل ، حتى أرسل يدعونى ، فلما رآنى ضحك حتى ضرب الأرض برجله وقال :

— ويحك يا ابراهيم ! .. حرمت نفسك عشرة آلاف دينار !؟

قلت :

— أصلحك الله ! .. خفت والله ما خفت فى المرة الاولى !

فعاد الفضل يضحك ثم قال :

— لا ضير ! .. يا غلام .. اخرج جارية ابى اسحاق اليه ..

فأخذت الجارية ، وعدت الى دارى فقلت لها :

— أنت حرة لوجه الله تعالى ! .. كسبت لى فى أقصر مدة خمسين ألف دينار ! ..

ولما صارت الجارية حرة ، تزوجتها على صداق قدره عشرة آلاف درهما

### ❶ اليوم الخامس :

جاءنى بعض خدام الخلافة يقولون :

— أجب أمير المؤمنين ! ..

قلت مبتهجا :

— أو قد عاد أمير المؤمنين من غزاته !؟

قالوا :

— انه يدعوك أن تسافر اليه فى الشام ، فانه عاد من الفزو ، وهو الآن يريح الجيش هناك ! ..

فلما بلغت معسكر الرشيد فى الشام ، دخلت اليه فى مجلس لم أر

أحسن منه ، مفروش بأنواع الرخام ، فهنأته بالنصر على « كلب الروم » وهو لا يقبل من أحد أن يسمى ملك الروم إلا بهذا الاسم ! ..

دعاني الرشيد الى طعامه ، ثم توليت منادته الى العصر ، وغنيت له حتى طرب وانثنى ، وخلع على خلعة من فاخر ثيابه ، وأمر لي بجائزة كبيرة ! ..  
ثم قال لي

- يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى فى بغداد !؟

ققصت عليه قصة جاريتي ضياء ، وما صنعتها ، وما صنع الفضل ابن يحيى ، ورسولا صاحب اليمن وصاحب أرمينية ، فضحك الرشيد ، حتى ظننته لا ينقطع عن الضحك ! ..

ودخل جعفر البرمكى ، فوجده مستغرقا فى الضحك ، فالتزم الصمت حتى فاء الرشيد الى نفسه ، فأمرنى أن أقص عليه قصتى مع شقيقه الفضل ! ..

وعاد الرشيد يضحك ، يشاركه فى ضحكه جعفر ! ..

ثم قال الرشيد

- يا جعفر .. قد أخذ ابراهيم من الفضل خمسين ألف دينار فى أقصر وقت ، فكم تعطيه أنت على هذه القصة !؟ ..

## إقطاعية ذى الرمة

### ● اليوم الاول :

سمعت الوزير جعفر بن يحيى البرمكي يقول أن أمير المؤمنين الرشيد يحفظ ديوان الشاعر ذى الرمة كاملا ، حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ويجب أن يسمع الغناء فيه ! ..

قلما كانت السهرة في قصر الرشيد ، غنيته لحنا في شعر لذى الرمة فاطربه .

وأمر لي بجائزة عظيمة ، فقلت بين يديه فقلت له :

— يا أمير المؤمنين : لي حاجة بعد هذه الجائزة التي أكرمتني بها ، وهي حاجة تقوم عندي مقام كل فائدة ! ..

قال :

— أى شيء حاجتك هذه ؟ ! ..

قلت :

— تقطعني شعر ذى الرمة ، أغني فيه ما أختاره ، وتحظر على المغنين جميعا أن يداخلوني فيه ، فاني أحب شعره واستحسنه ، ولا أحب أن ينتصه على أحد منهم ! ..

تبينت السرور في وجه الرشيد لما قلته ، وأجابني الى ما سألته ، وقال :

— ما سألت شططا يا إبراهيم ! .. قد أقطعتك شعر ذى الرمة كله خالصا لك وحدك لا يتنازع فيه أحد من المغنين ! ..

فأريت المغنين من حولي يضحكون ويستصغرون عقلي ، ويقولون هازئين :

— لقد استصخمت القطيعة يا إبراهيم .

فلم التفت اليهم ، وقلت للرشيد :

— أأذن لي في التوثق يا أمير المؤمنين ؟ !

قال الرشيد وقد بان التعجب في ملامحه :

— توثق كيف شئت ، فما سألنا الا قطيعة سهلة لا قيمة لها ولا منفعة

فيها لاحد ! ..

قلت :

- بالله وبحق رسوله وبتربة أمير المؤمنين المهدي ، الا جعلتني على ثقة من ذلك ، بأنك تحلف لي انك لا تعطى أحدا من المغنين جائزة على شيء يغنيه في شعر ذي الرمة ، فان ذلك وثيقتي التي تثليج صدري !!

فضحك الرشيد ، وحلف لي مجتهدا لئن غناه أحد من المغنين في شعر ذي الرمة ، لا أنا به شيء ، ولا سمع غناؤه !!

شكرت أمير المؤمنين ، وانصرفت بعد ذلك مع زملائي المغنين !

فلما كنا في بعض الطريق قال لي اسماعيل بن جامع ، ذو الصوت الذهبي والصنعة الجميلة في الغناء :

- يا أبا اسحاق ! .. والله لقد هزئت بك كما هزىء بك سائر المغنين في مجلس الرشيد ، عند طلبك شعر ذي الرمة خالصة لك دون جميع أهل صناعتك ، ثم تقيتني الى خيئك وبراعة تدبيرك حين رأيته تستحلف أمير المؤمنين الا يسمع غبرك أحدا يغني في شعر ذي الرمة ، ولا يجيزه بشيء ، فقد دلتني ذلك علي انك علمت ان الرشيد يحب هذا الشعر ، ويجب أن يسمع الغناء فيه ، فأردت أن تستأثر بجوائزه كلها ..

قلت :

- هو والله كذلك ! ..

قال :

- ما رأيت أشد حمقا من هؤلاء المغنين فقد علموا من قديم دهائك ودقة تدبيرك ، وفاتهم أن يتبينوا ما وراء تدبيرك في شمس ذي الرمة عند أمير المؤمنين ! ..

### ● اليوم الثاني :

لم أستطع أن أنظم شعرا أغني فيه لحننا جديدا للرشيد ، وخانتني قريحتي فلم تسعفني ببيت واحد من الشعر ، على غزارة ما تفيض به حين لا أكون محتاجا الى فيضها ! ..

دخلت الى بعض حجرات دارى مغموما ، فاسبلت الستور ، وغلبتني عيني فتمت فتشلت لي في النوم شيخ عجيب الخلقة ، فقال لي : يا موصلي مالي أراك مغموما ؟ ! .. قلت : لاني لا أجد شعرا أغني فيه الرشيد الليلة ؟ ! .. قال : وأين ذهب عنك قول ذي الرمة :

الا يا اسلمي يا دارمي على البلى  
ولا زال منهلا بجروعاك القطر

وان لم تكوني غير شام بقفصة  
تجر بها الاذيال صسيفية كسج  
اقامت بها حتى ذوى العود في الثرى  
وساق الثريا في ملائته الفجر

ثم غناني الشيخ لحنا جميلا في هذا الشعر وكرره حتى حفظته وأحكيت  
وانتبهت من النوم وأنا أتغني به كأنني أنا الذي صنعته ، فنادت جارية لي  
فأحضرت لي عودا ، وما زلت أترنم بالصوت حتى استوى لي على أحسن وجه  
.. وطارحته الجارية حتى حفظته وأتقنته ! ..

فلما جلست في السهرة بين يدي الرشيد ، غنيته هذا اللحن ، فطرب  
واستعاديته فأعدته مرات .. وأسكت المغنين جميعا ، وما زال ليلته كلها  
يستعديني هذا اللحن .. ثم أمر لي بثلاثين ألف درهم ! ..

### ● اليوم الثالث :

جلست الليلة بين يدي الرشيد ، وعن يميني « زلزل » أعظم ضاربي  
العود .. وإلى يساري د برصوما ، أبرع زامر ، وغنيت :

صحا قلبي وعاد الى عتلي  
واقصر باطل ونسيت جهل  
دايت الغايات وكن صورا  
الى هجرني ولظعن حبلى

وضرب زلزل علي غنائي أحسن ضرب بالعود سمعته قط ، وزمر برصوما  
في الناي أحسن زمر يقدر عليه الانسان ، حتى ظننت ان الجدران من  
حولنا تتحرك طربا لما تسمع من هذا الغناء والضرب والزمر ، واشته طرب  
الرشيد حتى وثب على رجله وصاح : يا آدم .. لو رأيت من يحضرني من  
ولذلك اليوم لسررت بهم ! ..

ثم فاء الرشيد الى نفسه فجلس وقال : استغفر الله ! ..

والرشيد على شغفه بالغناء ، كثير الذكر لله عز وجل ، وما رأيته أسرف  
في الطرب مرة ، الا شفع ذلك بالاستغفار ! ..

وهذا الشعر الذي غنيت فيه ، من نظم أبي العتاسية ، وكان حاضرا  
مجلسنا فرأيت يبكى حتى أخضلت لحيته ، ولكنه كف عن الطرب والبكاء  
عندما أمر الرشيد لي ولزلزل وبرصوما بجوائز ضخمة ، ولم يامر له بشيء ،  
وهمس لي :

— عجبت لامير المؤمنين .. اليس ما غنيت فيه من كلامي !؟ ..

فكيف يامر لك بجائزة ويتساني ..

قلت له

- انه لا يعرف انك صاحب هذا الشعر يا أبا العتاهية !

قال لى :

- فأذكر له اذن انى صاحبه ! ..

فلما ذكرت ذلك للرشيده ، ابتسم .

وقال لابی العتاهية كانه يعاتبه :

- انما طربت للغناء والضرب والزمر . لا لشعرى ! ..

فاوشك أبو العتاهية أن يقع متشيا عليه من الغم والكمد ، حتى أسعفه  
الرشيده قائلا :

- ولك أنت أيضا يا أبا العتاهية جائزة ! ..

### ❶ اليوم الرابع :

قال لى الرشيده الليلة قبل أن يجتمع عنده المغنون فى السهرة :

- أتلعب بالنرد ؟!

قلت :

- نعم يا أمير المؤمنين ، ولكنى اذا قمريت من الالعاب أخذت حقى منه ، واذا  
قمرنى أخذ منى حقه ! ..

قال :

- ويحك ! .. أتلعب القمار ؟!

قلت :

- فهذا والله هو الشرط ! ..

فلعبنا . على الثياب التى كانت على بدنى ، والثياب التى كانت على بدن  
الخليفة . فلما رأيت الرشيده أقل معرفة منى بالنرد ، تقامرت له ، فقمرنى  
وقلت له :

- لقد غلبتنى يا أمير المؤمنين ، وحكم النرد الوفاء بشرطه ، فانا الآن  
أخلع ثيابى فتلبسها فقال لى :

- ويلك ! .. أنا ألبس ثيابك كأننى بعض المغنين ؟!

قلت :

- أى والله ، اذا أنصفتنى يا أمير المؤمنين ! .. واذا لم تنصفنى أمكنك  
ذلك ! ..

قال :



- ويلك ! .. الا تقبل منى فدية ١٩ ؟  
قلت :

- بلى .. وما الفداء ١٩ ؟  
قال :

- أعطيك كل ما على جسدى من ثياب !  
قلت :

يأمر لى أمير المؤمنين بذلك ، وأنا استخير الله ! ..  
فضحك الرشيد ، ودعا بغير ما عليه من الثياب فلبسه ونزع ما كان عليه  
فأخذته فاذا شيء عظيم القيمة جدا ! ..  
ثم قال لى الرشيد فجأة :

- يا ابراهيم .. ما رأيت أحذق منك فى كل شيء .. أتظن انى غفلت  
عن براعتك فى الرد ، وانك تقامرت لى فغلبتكم وأنا قليل الاهتمام بالرد  
وليس لى به شغل يجعلنى أغلب فيه أصحابه والمستغلين به من أمثالك ١٩ .  
فقلت بسرعة أحاول تبرئة نفسى :

- والله يا أمير المؤمنين ، ما فاتنى انك لا تهتم بالرد ولا تشتغل به ،  
ولكنك فى هذه المرة غلبتنى وقمرتنى بحق ، فان هيبتك منعتنى من  
استحضار الذهن ، فصرت كأننى لم أر الرد فى حياتى ! ..  
قال ضاحكا :

- ما يفليك أحد يا ابراهيم .. فما فعل شعر ذى الرمة عندهك ، وكم  
كسبت منه حتى يومنا هذا ١٩ ؟

فورد على قلبى من سؤاله هذا الذى فاجأنى به ، ما أوشك أن يسكت  
قلبى عن الخفتان ، وعلمت انه لم يفته معنى استخلافى اياه الا يسمع مغنيا  
غبرى فى شعر ذى الرمة وان الرشيد لبألف الذكاء ، ولكنه يدارى ذكاءه  
أحيانا ، ليبلى ما يريد بلوغه من أمر .. وقد ظننت انه لم يكن متنبيا الى  
معنى استنارارى فى مجالسه بالغناء فى شعر ذى الرمة ! ..  
استحثنى الرشيد :

- أجب يا ابراهيم .. كم بلغ ما أخذت على غنائك فى شعر ذى الرمة ١٩ ؟  
قلت :

- ألف الف درهم .. يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك !  
فضحك وقال :

- لقد أقطعتك ما أحببت ! ..

ثم أمر الرشيد فدخل المغنون وبدأت السهرة ، وكنت قد أعددت لها لحنا  
جديدا فى شعر ذى الرمة ! ..

## غضب الرشيد وكرمه

### ● اليوم الاول :

مررت عصرًا ببستان مزدهر أنيق ، مفتوح الباب ، وإذا مغن يصدح في البستان بصوت جميل وصنعة متقنة ، وحوله مستمعون قلائل تبدو عليهم نظرة النعيم ، وقد تملكهم الطرب فهم يتصايحون ويشربون ، وأراهم من كتب ولا يرونني لانشغالهم بأمرهم ، فحدثتني نفسي أن أدخل عليهم بغير إذن ، فقلت لنفسي أعظها وأحذرهما مغبة التطفل : قد علمتنا مجالسة الخلفاء والكبراء ومنادمتهم ، أن نستأذن في كل دخول أو خروج ، بل في كل نطق أو سكوت ! .. فقلت لي نفسي : ولكن هؤلاء الجالسين مع مغنيهم في هذا البستان ليسوا بخلفاء ولا كبراء ، وإن بدت عليهم النعمة ، والله ما أنت في هذا بخير من ابن ذي الجناحين الطيار في الجنة ! •

قلت لنفسي :

– تعين عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب !؟

قالت :

– نعم .. هو بعينه .. عليه السلام وعلى آل بيت رسول الله ..

قلت :

– ويحك يا نفسي .. وأين أنا منه !؟ .. وهذا نسبه الشريف يجمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم في جده عبد المطلب !؟ .. وكيف أساميه فأكون أحق من بشار بن برد حين زعم أنه لو ملك من المال ما كان يملكه ابن جعفر ، لساماه في الجود ولم يترك فقيرًا إلا أعطاه من دراهمه ودنانيره ! •

ضحكت نفسي وقالت :

– دع هذا عنك ، فلا أكلفك أن تساميه في الجود ولا في الحساب والنسب ! .. ولكن أقول لك : اصنع كما صنع هذا الشريف حين صنع مرة غناء عند قوم فدخل عليهم بغير إذن وقال لهم :

– إنما ادخلني عليكم مفتيكم لا سمعته يفني :

قل لكسرام يباينا يلجوا

ما في التصابي على الفتى حرج

قلت لنفسى : افعل اذن .. غير متشبه بابن عم رسول الله ، فأين أنا منه ، بل أين منه خليفتنا هارون الرشيد نفسه ، وهو ملك المشرقين وسيلطان الخاقين ، وهو ابن عم رسول الله أيضا ؟ !

دخلت البستان على استحياء ، فلما صرت أقرب ما أكون منهم ، وجدته لا أعرف أحدا منهم الا مغنيهم فانه تلميذى ومريدى هاشم بن سليمان ، ووجع القوم لرؤيتي ولعلمهم قالوا فى أنفسهم : من هذا الطفل الذى يقتحم علينا بلا اذن منا ؟ ! .. ولعلمهم هموا بزجرى وطردى ، الا ان هاشما المغنى وثب من بينهم يجرى حتى لقيتنى ، فعانقنى وقبل يدى ، وسلم تسليم صديق مشتاق شديد المحبة لصديقه ! ..

جلست الى القوم ، فرحبوا وانطلقت أسارىهم بعد تجمهم ، الا أنهم لم يعرفونى .. فقلت لهم :

- انى اجتزت بكم فسمعت غناء هاشم بن سليمان فاستخفنى وأطربنى فدخلت اليكم ، واثقا بأنه لا يعاشر الا فتيانا ظرفاء مثله ، وها أنتم هؤلاء تغربوننى بظرفكم وحلاوة شمائلكم ..

قال أحدهم :

- ان نفوسنا صارت متعلقة بك وبمعرفتك ، فمن أنت ، أمتع الله بك ؟ !

فصاح هاشم المغنى :

- ويحكم .. اما تعرفون أبا اسحاق ابراهيم الموصلى ؟ !

بهت القوم لحظة ثم وثبوا فضمروا رأسى بالقبلات ، وقالوا : انعمت علينا وسررتنا وبذلت لنا مودتك ، وأجلستنا منك مجلسا يتمناه الاشراف والكبراء ولا يظفرون به ! ..

### ● اليوم الثانى :

قلت اليوم لابنى اسحاق وقد رأيته منتفشا بما صار اليه من الحذف فى التلحين والفناء ومعرفة تراث الاقدمين فى هذه الصناعة

- أما سمعت اللحن الجديد الذى صنعته فى قول عمر بن ابي ربيعة :

ليت هذا انجزتسا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجد

فنظر الغلام الى نظرة منكرة وقال :

- لا والله يا أبت ما سمعته ! ..

قلت وانا أفكر فى نظرتك التكرار هذه ، ما سببها ؟ ! ..

- اسمعه اذن .. ثم هات رأيك بصراحة !

غنيته الصوت مجتهدا فى أدائه كل الاجتهاد ، كأننى أغنى فى حضرة

خليفة أو ولي عهد أو وزير ، لعلنى بما بلغه ابنى هذا من العلم بالالحان ورواية غناء القدماء ، فضلا عن جودة صنته ودقة غنائه وأدائه على صغر سنه ..

فلما فرغت من اللحن ، وضمت العود جانبا ، وتطلعت الى ابنى انتظر رايه ، كائننى والله كنت فى امتحان هو فيه الامتاذ وأنا التلميذ !

لكنه لم ينطق ، ونكس راسه متجهما مفكرا ، فصحت به استجته :

— الا تقول شيئا ؟

فتحمل كأنه يعالج هما ثقيلًا يحاول زحزحته عن صدره ، ثم قال فى صوت خافت :

— يا أبت .. ان الملحنين والمغنين من حولك يعدون عليك انقاسك ، ويعيبون محاسنك ، وأنت عنهم فى شغل .. ولو سمعوا لحسنك هذا لخاصموك فيه وعابوه وانتقصوا من قدرك وأنت رأس هذه الصناعة ، وهم ذيول وزعانف !

قلت : ولم ذلك لله أبوك ؟

قال : لان ابن سريج امام القدماء من أهل الصناعة قد عمل فى هذا الشعر لحنا رائعا وجئت أنت فعارضته بهذا اللحن الذى لا يقاربه . ولن يترك الناس لحن ابن سريج افتنانا بلحنك هذا .. وستجده منهم من يقول : قد جرى الموصلى فى غبار ابن سريج فكبا دون مداه ، وظهر تقصيره ، وثبت لابن سريج فضله وتقدمه !

قلت لابنى وقد أخذتنى العزة :

— اترك كل شعر صنع فيه ابن سريج لحنا فلا تصنع فيه لحنا جديدا ، لكيلا يقال اننا نعارضه بالحنانا فنقصر عنه ؟

قال هادئا :

نعم .. نترك ما تداوله ابن سريج والقدماء من الشعر فى غنائهم الذى يرويه الرواة ، وناخذ فى غيره ، فان الشعر كثير ، ولخير لنا أن ننظم الشعر ونلحنه ، من أن نعمل الى شعر صنع منه القدماء الحانا فائقة ، فنصنع فيه ما يتركنا نحجل وراءهم كأننا أصابنا الكساح !

غضبت أشد الغضب من جرأة هذا الولد ، فانه جعل ابن سريج قمة الغناء ، وجعلنى السفح أو دون السفح ، وجعله فرسا يجرى فى الرهان ، وجعلنى كسيحا أحجل وراءه ، فما أشعر الا ويدي تمتد الى الغلام فتلطيه على وجهه لطمة هائلة ، فذهض لا يتكلم ، وخرج ! وبقيت فى مكانى خزيان اسفا ، لا أدري ما أقول ولا ما أصنع !

### ● اليوم الثالث :

اعتكفت العشية فى منزلى ، فجاءنى خادم من خدم الخليفة الرئيسى

فاستحثني بالركوب اليه ، فخرجت اليه شبيها بالراكض حتى دخلت عليه  
 فلما هو جالس على كرسي في صحن واسع بالدار ، ليس عنده الا خادم  
 يسقيه ، فلما رأني هتش لي وسر وقال : « يا موصلي .. اني اشتيت أن  
 أجلس اليك ، وأحببت الا يكون معي ومعك أحد » .. ثم صاح بالخدم ،  
 فوافاه مائة وصيف كانوا مستترين بالاعمدة ، فجاءني بعضهم بمقعد  
 فجلست عليه تجاه الرشيد ، وقال لي : « بحياتي أطربني بما قدرت » !!  
 ففعلت واجتهدت في ذلك ورجوت الجائزة ، فبينما أنا كذلك ، جاء الخادم  
 مسرور الكبير فآسر في أذن الخليفة كلمة ثم تنحي ، فاستشاط الخليفة  
 غضبا ، واحمرت عيناه ، وانتفخت أوداجه ثم صاح :

« حتام اصبر على آل بنى ابي طالب ؟! » .

ذعرت من صيحة الرشيد ، وكدت أموت خوفا من منظره غاضبا ، ووعيده  
 لآل ابي طالب بالقتل الذريع .. وقلت في نفسي : أنا لله .. ليس عند هذا  
 الملك الجبار الساعة أحد يخرج غضبه عليه سوى .. وأحسبه مسيقع بي  
 ويقتلني ، فيذهب دمي هدرًا ، فما أنا من آل ابي طالب فأكون شهيدا ، وأنا  
 أنا مغبض جاء يغنيه ويسليه ! .

ثم حملني الطمع في النجاة من القتل على أن أندفع مغنيا هذه الابيات :

نعم عوننا على الهمسوم ثلاث

فترعات من بعدهن ثلاث

بعدها اربع تتممة عشر

لابطاء لكنهن خثاث

فاذا ناولكنهن جوار

عطرات يفيض الوجوه خثاث

تم فيها لك السرور وما طيب

عيشنا الا الخثاث الاناث

صاح الرشيد في وجهي وقد حاجه الغناء :

ـ ويلك ! .. اسقني ثلاثا لا أمت هما ! ..

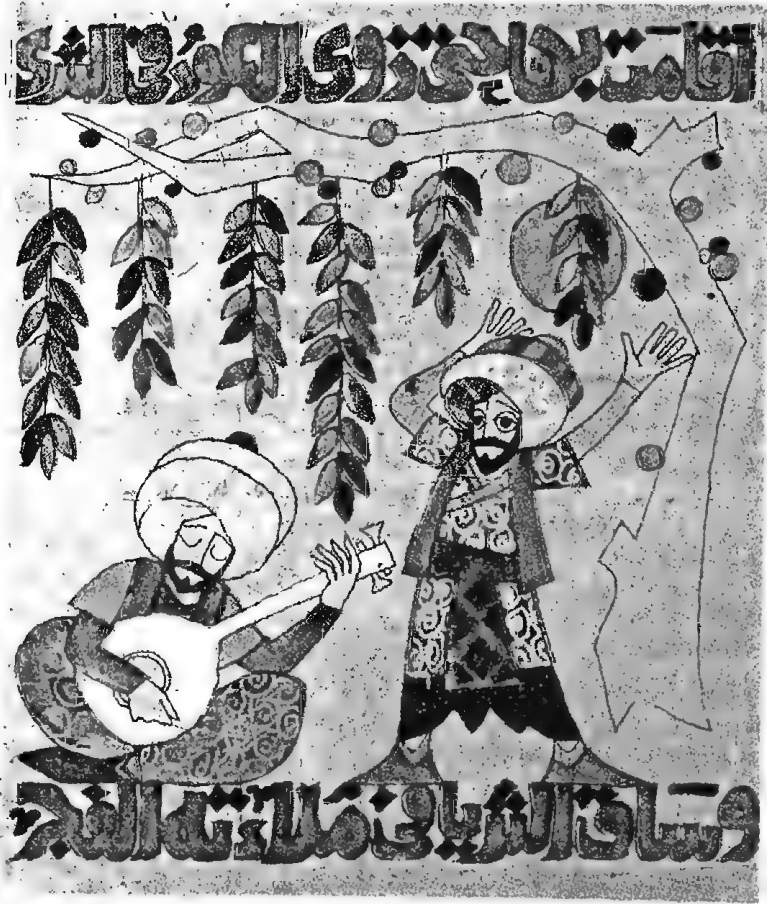
فشرب ثلاثا متتابعات ، وقال : « غن هذه الابيات مرة أخرى .. ويلك »  
 فلما غنيتها ثانية ، هدا قليلا وقال : « هات ثلاثا أخرى .. وأعد غناء  
 الابيات » فأعدتها ، فقال : « حث على بأربع تنمة العنتر كما يقول الشعر »  
 وأتم الرشيد العنتر فانتشى وانبسطلت أساريره ، وعادت اليه أريحيته ،  
 وانقشع غضبه ، ونسي المؤمرين به من آل ابي طالب ـ أبناء عمومته ـ  
 ثم نهض مثقلا بالنشوة خفيفا بها في وقت معا ، وقال لي : « ثم ياموصلي  
 فانصرف الى بيتك » !

نقمت بملؤني الغم لضياح الجائزة ، فلم أكد أخطو خطوة حتى نادى

الرشيد مسرورا الخادم فقال بلسان ينطق في نشوة ، وبلهجة متومسلة  
لا يحتاج اليها خليفة في اصدار امره النافذ الى خادمه المطيع :

- يا مسرور .. اتقيت عليك بحياتي ، ويحقي ، الا سبقت الموصل  
الى منزله بمائة الف درهم ، لا استأمر فيها ولا في شيء منها !

فلم اصدق ما سمعت من كلام الخليفة لخادمه ، ولكنني امنت من خوف ،  
ومضيت الى منزلي منهلا .. فما دخلت من الباب حتى وجدت مسرورا  
وأعوانه يخرجون منه وقد سبقوني الى منزلي بالمائة الف درهم .



## تاجر الجوارى

### ● اليوم الاول :

كثير من زملائي علم صناعة الغناء يحسدوننى ويقولون : فاز والله ابراهيم الموصلى بنصيب الاسد من جوائز الخليفة هارون الرشيد .

ويعلم زملائي علم اليقين اننى واياهم مضطرون الى الاشتغال بأعمال تجارية ، وأعمال أخرى متنوعة ثقيلة على النفس ، نمارسها سرا وعلانية لنجمع نفقات حياتنا الباهظة التى لا تفى بها مكاسبنا من صناعة الغناء وحدها ، مهما كثر ما يحصل عليه المغنى من جوائز الخليفة وهدايا الامراء والكبراء ..

وقد غمرتني عطايا الخلفاء والوزراء والنبلاء ، حتى بلغ ما اعطانيه الخليفة موسى الهادى - رحمه الله - مائتى ألف دينار من خالص الذهب فى يومين اثنين فقط ! .. كان ذلك كرما منه لم يحظ بمثله مغن آخر غبرى ، ولو عاش الهادى لينبت حيطان منزلى بالذهب والفضة ، ولكنه لم يعيش فى الخلافة الا عاما وبعض عام ، وجاء يعقبه أخوه هارون الرشيد ، وهو بالقياس الى الهادى يعد شبه بخيل وان كان من الاجواد بالقياس الى الاغنياء الاشحاء فى هذا الزمان ، ولا استثنى الا ابرامكة الكرام ! ..

لو عاش الهادى لاكتفيت بصناعة الغناء وما يأتينى من جوائزه المائلة ، أما الآن فان جوائز الرشيد لا تكفى مطالب الحياة المرهقة فى بغداد ، وسط البذخ الذى يتقلب فيه سادتنا الذين فتنى لهم !

فهل يلومنى أحد على احترافى التجارة فى الجوارى المغنيات .. أعلمهن اصول الغناء وأصقلهن حتى يصلحن لحياة القصور ثم ابعهن للنبلاء من بنى هاشم ، والاثرياء من العرب والعجم المستعربين المتحكمين فى المناصب العليا للدولة ! ..

وأحمد الله اننى أبيع الجوارى بيعا شرعيا ، لا أقدمهن للإمور والسمير فى ليالى بغداد ، ثم أقودهن فى مطلع الفجر عائداً الى بيتى ! ..

وأنا أجتلب الجوارى من أسواق الرقيق ، صغيرات جميلات الوجوه والاجساد ، واشترط فى لون بشرتهن البياض أو الشقرة أو السمرة المائلة الى البياض .. ولا أشتري الجوارى الصفر المجلوبات عن الصين ، ولا القاتمات الالوان المأخوذات من الهند والسند ، ولا الزنجيات المستوردات

من أفريقية ، فان هؤلاء الصقر والسود لا يصلحون الا للخدمة فى المطبخ .  
أو كنس المنازل ، أو رعاية الاطفال ..

وأنا أول من ذهب فى تقسيم الجوارى هذا المذنب ، فجعلت السود للخدمة ، والبيض للفناء والمنادمة ..

وكان الناس قبل ذلك يجلبون الجوارى البيض الحسان للمتعة أو « لتبييض النسل » على حد قول جفاة الاعراب الباحثين عن زوجات أو اماء من غير نساء البادية الجافيات ! ..

وأما الغناء فكان الناس يعلمونه لذوات الاصوات الجميلة من الجوارى الصقر والسود ، وحجتهم فى ذلك ان الرجل لا حاجة له فى الجارية السوداء أو الصفراء الا الغناء وحده ، وليس به حاجة عندها الى شىء سوى الغناء .

وقد استطعت أن أقلب هذه القاعدة فى نخاسة الجوارى واستخدمهم ، فصارت البيضاء والشقراء للغناء والمنادمة ، وانصرفت السوداء والصفراء الى الخدمة فى البيت والمطبخ ! ..

ثم نشأت طائفة من الجوارى الصقر والسود حظين عند ساداتهن وولدن لهم البنين والبنات ، حتى كثر الخلاسيون من نسلهن ، وكلما رأيت زميلنا فى الصناعة « الامير ابراهيم بن المهدي » وهو أخو الخليفة الرشيد ، تذكرت هذا الصنف من الجوارى ، فان ابراهيم بن المهدي اسود اللون ، لا يشك أحد فى لون من ولدته من الجوارى اللاتي كن فى ملك الخليفة المهدي رحمه الله ! .. وان زميلنا الامير ابراهيم بن المهدي ليشمخ علينا مع هذا ، ويفخر بأنه هاشمى النسب من أحفاد عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، وان كان غارقا الى أذنيه مثلنا فى صناعة الغناء ! ..

وقد نفقت بضاعتي عند الخلفاء والامراء والوزراء والاثرياء ، وبعث الجوارى البيض المغنيات بأثمان عالية ، واقتدى بى المطربون والملحنون جميعا وامتلات مقاصير بيوتهم بالجوارى الحسان البيض والشقر من بنات الروم والكرد والفرس والارمن وغيرهن ! ..

## ● اليوم الثانى :

ضحكت حين سمعت صديقا شاعرا لى يهجونى ، لانه اعتبرنى مسئولا عن غلاء اسعار الجوارى المغنيات .. كان هذا الشاعر قد أحب جارية فاراد شراها من مولاهما فأغلى عليه ثمنها حتى أعجزه عن شرائها ! .. هذه الجارية تعلمت الغناء على يدي وبعثها لمولاهما هذا الذى يقالى بها السوم حتى يبلغ أقصى ربح يستطيعه ..

ولما ينس الشاعر من الحصول عليها قال معرضا بى

لا تجزى الله الموصلى إيا أسحاق

عنا خيرا ولا احسانا



**جاءنا مرسلًا بوحي من الشيطان**  
**اغلي به علينا القيانا**  
**من غناء كانه مسكرات الحب**  
**يصمى التلويح والاذانا**

وسمع هارون الرشيد عن جارية مغنية عندي ، فطلبها واشترعا مني  
بسةة وثلاثين ألف دينار ، فأقامت عنده ليلة واحدة ، ثم أرسل الى حاجبه  
الفضل بن الربيع يقول له : اننا اشترينا هذه الجارية من ابراهيم ونحن  
نحسب انها من « بابتنا » وتصلح لنا فيما يصح به مزاجنا ، وليست كما  
ظننتها ، وما قربتها ، وان كنت سمعت بعض غنائها • وقد ثقل علينا  
تمنها ، فاذهب الى ابراهيم فقل له أن يحطنا من ثمنها ستة آلاف دينار ••  
فجاءني ابن الربيع في منزل وأخبرني بما قاله الرشيد ، فقلت له : أراد أن  
يلو قدرك عندي ، فقال ابن الربيع : ذاك أراد ! •• فقلت : قد حططتك  
انتي عشر ألف دينار !

فرجع الفضل بن الربيع الى الرشيد بالخبر فقال له الرشيد : ويلك !  
•• أدفع الى هذا الرجل ماله ، فما رأيت سوقة قط أنيل منه نفسا ! ••

وكان ولدي اسحاق قد علم بما حططته من المال ، فاستكثره وقال لي :  
ما كان لحطيطة هذا المال معنى ! •• فقلت له : أنت أحمت ، فوالله لو  
أخذت ثمن الجارية ولم أحطط منه شيئا لما أعطانيه الرشيد الا وهو كاره ،  
ثم يحقه على وأكون عنده صغير القدر ، ولكنني مننت عليه - وهو الخليفة  
العظيم - ومننت على حاجبه أيضا ، فانبسطت نفسه وعظم قدرى عنده ، ثم  
دفع الى المال كله لا ينقص دينارا واحدا ، وانما اشتريت هذه الجارية من  
سوق الرقيق بأربعين ألف درهم تساوي ثلاثة الاف دينار أو أقل ، فربحت  
فيها هذا الربح العظيم ! •

ثم قلت لولدي :

— كيف رأيت يا اسحاق !؟ •• من البصير •• أنا أم أنت !؟ ••

قال :

— بل أنت •• جعلني الله فداك ! •• وقد تعلمت منك درساً يفيدني  
مدى عمري ! ••

**● اليوم الثالث :**

يمتلئ منزلي الآن بالجوارى المغنيات اللاتي أودعهن أصحابهن عندي ،  
وهم جميعا من المطربين والممثلين اصدقائي الذين يسافرون الى الامصار  
للارتزاق ثم يعودون ••

هؤلاء الاصدقاء يسافرون الى أقصى البلدان آمنين على جوارهم في بيتي ،  
ولا يأمنون عليهم في بيت احد سواى من أهل صناعتنا •• حتى بلغ

ما اجتمع منهم عندي الآن ثمانين جارية مغنية ، كلهن ودائع لاصدقاء أعزاه  
ياكلن ويشربن ويكتسبن من مالى ، وأرى أن ذلك واجب لابد لى من أدائه  
لاصدقائى الذين استودعوني جواريتهم وهن رأس مالهم ، أو جزء كبير من  
رأس مالهم ! ..

وكل جارية حين ترد الى مولاهما ، لابد لى من كسوتها واعطائها بعض  
المال ، حتى تعود اليه وهى فى أحسن حال ، فضلا عما تكتسبه من زيادة  
العلم بصناعة الغناء ..

وهذا ما جعل الرشيد يقول مرة فى مجلس الغناء أمام جميع الحاضرين :  
ما أعرف احدا أكثر أصدقاء من ابراهيم ! ..

وهو يصغنى بأننى أكثر السوقه نبلا ، وانما يقصد بالسوقه عامة الناس  
من ليسوا من أولاد الخلفاء ولا من بنى هاشم ولا من طبقة الحكام ! ..

### ● اليوم الرابع :

اصبحت السماء متغيمة ، تطلش طشبا خفيفا ، فنشطت للصباح ،  
والغناء .. واذا بتلميذى « مخارق » صاحب الصوت الذهبى يدخل منزلى  
فيسلم ويجلس وهو يترنم ببعض النغمات ..  
قللت له :

— يا مخارق .. ان صناعة الغناء ما عادت تفى بمعيشتى ! ..  
فدهش مخارق وقال :

— وكيف ذلك يا أستاذ وانت أقرب اهل الصناعة الى الخليفة وعظماء  
الدولة ، ولك من عطائهم نهر يجرى بلا انقطاع ! .. ولك من بيع الجوارى  
المغنيات نهر اخر يجرى بالزيادة لا بالنقصان ، وقد سمعتك مرة تقول انى  
ما دخل خزانك من بيعهن بلغ عشرين ألف ألف درهم .. فمن الذى يملك  
هذا المال كله ويشتكى ضائقة العيش ايها الاستاذ !؟ ..  
قلت له :

— اسمع ويحك ، أنت حدث غر لا تدري من هذه الدنيا شيئا .. أقعد  
ويحك ! فقد أتانى خبر ضيعة تجاورنى فتمنيت أن املكها ، ولكن تمنها  
مائة ألف درهم ! ..

قال مخارق ..

— وما تكون مائة ألف درهم ، وفى خزانك اضعاف اضعافها والحمد  
لله !؟

قلت :

— صدقت .. ولكن نفسى لا تطيب بدفع هذا المال ، فاجلس وخذ عنى  
هذا اللحن :

فام الخليسون من هم ومن مسلم  
وبت من كثرة الاحزان لم انم  
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا  
اعمد ليحيى خليف الجود والكرم

فلما أخذ مخارق هذا اللحن متى وأحكمه ، قلت له : امض الساعة الى باب يحيى بن خالد البرمكى الوزير ، فاستاذن عليه ، وحدته بخبر الضيعة وأعلمه انى صنعت هذا اللحن ولم أر أحدا يستحقه الا « فلانة » جاريتة ، فإنه سيدهوها حتى تطرح عليها الصوت وتحفظه ..  
فقبل مخارق ذلك ، فأمر له الوزير بمشرة الاف درهم ، وأمر الخدم بأن يحملوا الى دارى مائة ألف درهم ثمن الضيعة ! ..

### ● اليوم الخامس :

جاء مخارق وقال : ما أراك الا سارعت فاشتريت الضيعة ! .. قلت : لا والله .. فما كدت أرى المال محمولا على رءوس الخدم حتى شجحت به فصار مثل أموالى التى حوتها خزائنى ! .. فاجلس حتىلقى عليك صوتا يفوق ذلك الصوت :

وفرح بالمولود من آل برمك  
بقاة الندى والسيف والرمح ذو النصل  
وتبسط الآمال فيه لنفسه  
ولا سيما ان كان من ولد الفضل

فسمع متى مخارق ما لم يسمع مثله قط من روائع الالكان ، فلما أحكم حفظه أمرته أن يذهب الى الفضل بن يحيى البرمكى ويعلمه بخبر الضيعة وما وصلنى أمس من مال أبيه .. فلما سمع الفضل القصة قال ضاحكا : أخرى الله ابراهيم فما أبخله على نفسه مع كرمه على الناس ! .. ثم دعا جارية فأخذت منه اللحن ، وقال له : أحسن والله أستأذك الموصلى التلحين وأحسننت أنت الغناء ، ثم أمر لمخارق بعشرين ألف درهم ، وأمر لى بمائتى ألف درهم ، لم أكد أراها حتى شجحت بها على الضيعة ، فلما جاءنى مخارق قال لى : والله ما أظن أحدا نال فى هذه الدولة ما نلت يا أبا إسحاق ، فلماذا تبخل على نفسك بشيء تمنيته دهرًا وقد ملكك الله أضعاف ثمنه ١٩

ثم اننى ألقيت على مخارق لحنًا ثالثًا فذهب فغناه جعفر بن يحيى وقص عليه قصة الضيعة فأمر لمخارق بثلاثين ألف درهم ، وأمر لى بثلاثمائة ألف درهم ! ..  
وجاء مخارق فقال لى : ما خبر الضيعة ١٩ .. فان عندك الان من يحيى البرمكى وولديه ستمائة ألف درهم ، ستة أمثال ثمن الضيعة ! ..

فقلت له : هذا صك الضيعة ! .. لم أشتريها من هذه الستمائة ألف درهم ، بل أشتريها لى الوزير يحيى بن خالد البرمكى من ماله وكتب الى

قائلا : « قد علمت يا ابا اسحاق ان نفسك لا تسخو بشراء الضيعة من مال يحصل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها من مالي ووجهت لك بصكها » ! ..

فنظر مخارق في وجبي مبهوتا متحيرا ، فانفجرت باكيا احرا بكاء ، وظلمت ابكى حتى اشتفيت ، ومخارق يبكي معي ! ..

ثم قلت له : يا مخارق اذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، واذا غنيت فمثل هؤلاء ! .. هذه ستمائة الف درهم ، وضيعة بمائه الف ، ولك انت ستون الفا .. حصلنا ذلك اجمع وانا جالس في مجلسي لم ابرح منه ، فمتى يدرك زماننا احدا مثل هؤلاء ؟ ..

## من غناء كانه سكرات الحب



## الليالى الأربع

### ● اليوم الاول :

ضج الخدم واستيقظت الجوارى فى بيتى قوئبت مذعورا أصبح ليهم :  
ما أيقظكم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وقد نام الناس وليس فى بغداد  
كلها يقظان غيركم ؟!

دنا خادم منى وقال بصوت يرجف رعبا :

— هذا أمير المؤمنين هارون الرشيد يقف على باب دارك وحوله ما لا يحصيهم  
إلا الله من الخدم والاتباع ! ..

ارتديت ملابسى كلسج البرق .. جريت والخدم تفتح الابواب .. تفصارت  
فى نفسى الظنون ! .. فما الذى يحمل الخليفة العظيم على زيارتى ، وأنا  
خادمه وصنيعته ، ولو بحث فى طلبى ، لكنت عند قدميه فى أية ساعة من  
ليل أو نهار ؟!

أسرعت الى الباب وبى مثل الجنون من الخوف والزهو والفرح وسوء  
الظنون ، فتلقيت أمير المؤمنين فاهويت على حافر حماره فاشسجت حافر  
الحمار تقبيلا ، ثم رفعت رأسى أقول :

— يا أمير المؤمنين ، أنى مثل هذه الساعة تظهر ؟!

قال :

— نعم .. شوق طرق لك بى ! ..

ثم نزل فدخل وجلس فى طرف من الايران واجلسنى الى جواره ، فقلت له :  
— سيدى أنتشط لشيء تأكله ؟!

فأصاب من الطعام شيئا يسيرا ، ثم دعا بشراب كان خدمه يحملونه ..  
فلما فرغ قلت :

— سيدى ، أوغنيك ، أم تغنيك اماؤك ؟!

قال :

— بل الجوارى ..

فاخرجت اليه كل جارية مغنية فى بيتى ، فاخذن مجلسا قبالة وفى  
أيديهن عيادتهن ..

فقلت :

— يا سيدى .. اضرين كلهن ، ام واحدة واحدة !  
قال :

— تضرب اثنتان ، اثنتان .. وتغنى واحدة فواحدة .

فضربت الجوارى وغنن ، والرشيذ يسمح ولا ينشط لضرب ولا غشاء ،  
فانه سمع فحول المغنين جميعا ، وصار له بالغناء بصر وذوق ودقة فهم لم  
أجد مثلها فى أحد ، الا فى الوزير جعفر البرمكى ..

فلهذا عجزت الجوارى عن اطرايه ، على أن فيهن بعض المجيدات لكنهن  
أقل مما يطلبه فى الغناء اجادة وحذا ..

فخشيت أن يخرج من بيتى متكبرا ، حتى غنت جارية صغيرة كانت آخر  
من غنى :

يا موى الزند قد أعيت قوادحه

اقبس اذا شئت من قلبى بمقباس

ما اقيح الناس فى عينى وأسمعهم

اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فطرب الرشيد لغنائها ، واستعاد اللحن مرارا ، وشرب عليه ، ثم سأل  
الجارية :

— من صاحب هذا اللحن ؟

فخرجت أن تكذب الجارية فى الإجابة لأن الصدق فى هذا المقام قد  
يفضيه ، الا انها أمسكت عن الكلام ، ونضج جسمى عرقا وعلمت أن الرشيد  
لا يخرج من بيتى حتى يعرف اسم صاحب اللحن ، وهو ما أخشى أن يعرفه !  
فاستدناها فتعاسمت ولم تقترب منه خوفا ، فأمر فأقيمت حتى وقفت بين  
يديه فأخبرته بشئ أسرته إليه ! .

انتفض الرشيد واقفا ، ولم ينظر ناحيتى ، وخرج من بيتى ، فدعا بجماره  
فركبه ، ثم التفت فقال لى :

— يا ابراهيم .. ما ضرك الا تكون خليفة ! ..

ثم انصرف وحوله الخدم والحشم يضيئون الظلام بشاعلمهم ويوقظسون  
ليل بغداد ..

كدت أموت خوفا وجزعا ، فان الجارية أخبرته ان اللحن من صنعة أخته  
الاميرة عليه بنت المهدي .. وكانت عليه قد وجهت الى بهذه الجارية لاطارحها  
بعض الحانى لتحفظها وتحكمها وتؤديها اليها ..

فهذا ما أسخط الرشيد ، لانه شديد الغيرة على حرمة ، وانه ليسمع غناء  
أخته عليه ولكنه يغار عليها ، ويتقصى أخبارها ، ويضيق عليها فى شراء  
الجوارى والعلمان ، وان كان يأذن ل أخيها ابراهيم بن المهدي بالغناء مع سائر

المغنين ويهب له الجوائز كما يهبها لهم ..

قبل طلوع الشمس ركضت الى قصر الخلافة فالتقيت بمسرور الفرغانى  
خادم الرشيد ، فسألته :

— اكننت على علم بما انتوى امير المؤمنين من زيارتى فى تلك الساعة ولم  
تخبرنى ؟!

قال مسرور :

— لا والله ! .. ولكن امير المؤمنين هب من نومه ليلا ، فدعا بحماره الاسود  
القريب من الارض فركبه ، وهو يؤثر ركوبه ويرتاح على ظهره ، وليس  
دراعة من الوشى وتلثم بعمامة موشاة والتحف بازار من الوشى ايضا ، ونادانى  
فقلت له : أين يريد امير المؤمنين فى هذه الساعة من الليل ؟ .. قال : اريد  
منزل ابراهيم الموصلى ! .. فخرج وأنا بين يديه ومعى اربعمائة خادم أبيض  
سوى الفراشين ، كما رأيت عندما وصلوا الى دارك ! ..

فقلت لمسرور

— أرايته غاضبا بعد انصرافه ؟!

قال :

— ولماذا يغضب ؟! .. لقد نشط لتلك الحركة فى الليل ، وسر بها ، فلما  
كان الصباح ، استدعى أخته عليّة . وأمرنى أن أقف على الباب .. ثم لم  
ألبث أن سمعت عليّة تغنى لحنا كأنه اللحن الذى غنته جاريتهما التى سمعها  
فى بيتك ؟!

قلت لمسرور

— اكننت تعزف يا مسرور ان هذه من جوارى عليّة أخت امير المؤمنين ؟!

قال مسرور فى خيلاء :

— لو جهلت ذلك لما استحققت ثقة امير المؤمنين ! ..

## ● اليوم الثانى :

جاءنى اليوم مخارق ، وهو مطرب صغير السن ، مطبوع يدعى الصنوت  
.. لم أسمع صوتا يقاربه أو يساويه الا صوت اسماعيل بن جامع ، وصوت  
ابراهيم بن المهدي ..

هؤلاء الثلاثة أجمل الاصوات فى أيامنا ، وقد أخذ عني مخارق فنسونا  
كثيرة ، وعرف الصنعة حتى برع ، فصار يحب سماعه .. وكان مخارق قبل  
ذلك خادما بقصر الخلافة فى غمار الخدم الذين لا يحصيهم الا الله ..

جلس مخارق بين يدي ، فطارحته لحنا فى شعر للاحوصى حتى أخذ اللحن  
وحفظه وأحكمه ، ثم غناه لى ، فسمعت والله أطيب غناء يخرج من حلق هذا  
الفتى الناشئ ، فجعلت أبكى وأقول له :

— يا مخارق .. أنت والله بعمى صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ..

### ● اليوم الثالث :

خرجت ركضا من بغداد الى قرية فيها امرأة تصنع أطيب التبيد ، لها بنت من أجمل النساء وجها وقواما وافتنهم حديثا ، لا يراها ذو قلب الا استحلاها وتعلق بها .. ولو كانت جارية تباع لاشتريتها بما أملك من المال ولو كانت تقبل التزويج لتزوجتها ..

قلت لها :

- انك يا خليلي رجل ظالم ، زعمت انك تهوانا ثم هجرتنا ! ..

قلت لها

- انى أستجير بك من ظلمك ! ..

ثم عدت من هناك وأنا أردد بيتين نظمتهما

وزعمت انى ظالم فهجرتنى

ورميت فى قلبى بسهم نافذ

ونعم ظلمتك فاعفوى وتجاوزى

هذا مقام المستجير العائد

ثم عكفت على تلحين ما نظمت ، ولعله يعجب أمير المؤمنين ..

### ● اليوم الرابع :

ضربت اليوم خادما من خدم الخليفة ضربا مبرحا ، ثم ركبته الى الخليفة لاخبره قصته ..

وفى طريقى الى القصر تذكرت كيف اننى منذ شهر بكرت على أمير المؤمنين حتى تصطبج ، فاذا أنا به خاليا وبين يديه جارية حلوة المنظر ، فقال لها : غنى فقد جاء الموصلى ! .. ففنت فى شعر أبى نواس :

توهمه قلبى فاصبح خده

وفيه مكان الوهم من نظرى اثر

ومر بفكرى خاطرا فجرحته

ولم ار جسما قط يجرحه الفكر

وصافحه قلبى فآلم كله

فمن غمز قلبى فى انامله عقر

فذهبت الجارية والله يعقل نحسن غنائها ، حتى كدت أفتضح فقلت : من هذه يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ؟ ! ..

فقال ضاحكا :

- هى التى يقول فيها الشاعر :

لها قلبى الغداة وقلبا لى

فتحن كذاك فى جسدين روح



ثم غنت مرة أخرى ، فطار عقل شعاعا ، حتى تنبه الرشيد وأدرك أن قلبى  
تعلق بالجارية ٠٠ فشرب وسقانى وسقاها ، ثم قال : غن يا إبراهيم فغنيت  
حسب ما فى قلبى غير متحفظ من شيء :

تشرب قلبى جها ومشى به  
تمشى حميا الكاس فى جسم شارب  
ودب هواها فى عظامى فشنها  
كما دب فى اللسوع سم العقارب

فطن الرشيد بتعريضى هذا ، وكانت جهالة منى ، فأمرنى بالانصراف ،  
ولم يدعنى الى مجلسه شهرا ، ثم دس الى خادمه هذا الذى ضربته اليوم ٠٠  
جاءنى هذا الخادم برقعة مكتوب فيها :

قد تخوفت أن اموت من الوجد  
ولم يدرك من هويت بما بى  
يا كتابى فاقر السلام على من  
لا أسمى وقل له يا كتابى  
ان كلما اليك قد بعثتنى  
فى شقاء مواصل وعذاب

فلما قرأت الرقعة فطنت لما وراءها وقلت للخادم : ما هذا ؟ قال :  
رقعة الجارية فلانة التى غنتك بين يدى أمير المؤمنين ! ٠٠ فوثبت على الخادم  
وضربته ضربا مبرحا ، ولما ركبت الى الرشيد وأعطيته الرقعة ، ضحك حتى  
كاد يستلقي ، ثم قال : « على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك »  
٠٠ ثم أمر لى الرشيد بجائزة عظيمة ! ٠٠

والله يعلم انى ما فعلت الذى فعلت من ضرب الخادم وتسليم الرقعة الى  
الخليفة ، جنوحا الى العفاف ، وزهدا فى الجارية الحسناء ، ولكن خوفا من  
القتل ، فانى لم أكد أقرأ تلك الرقعة حتى عرفت ان الخليفة يمتحننى ! ٠٠

## بائع الأهزاج

### ● اليوم الاول :

كاننى مللت طول البقاء فى الدنيا ، على ما أجد من حب الملوك لى : وحب الخاصة والعامة لفتاتى والى ، وبخاصة أهزاجى ، فكلهم يقول : هافى الدنيا مثل « حكم الوادى » فى تلحين الإهزاج وغنائها .  
ولكن الزمان امتد بى ٠٠ من عهد الامويين ٠٠ الى عهد الرشيد فى دولة بنى العباس ٠٠ وان ثمانين عاما عشتها وعانيتها ، لطويلة بفيه .

كان أبى « يحيى بن ميمون » رجلا فارسى الاصل اشتراه الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك واعتقه ، فعمل حلاقا للوليد يهذب شعر راسه ولحيته ٠٠ فرأيت فى طفولتى نعمة الخلفاء ، وثا بلغت الشباب صرت طويل القامة ولكن فى احدى حولا فكنت اسمع الناس يقولون : ما أحسن هذه الفتى لولا انه أحول ٠٠ ولم أكن أظن انى أصبح مفتيا فى يوم من الايام ، فقد كنت وأنا صغير السن ، أكرى الأبل وأنقل عليها الزيت من الشام الى المدينة المنورة وجدة وغيرها من مدن الحجاز .

ثم أخذت الفناء من عمر الوادى فى وادى القرى بين الشام والمدينة ، فكنت أقطع هذا الوادى أغنى بالأهزاج ، من أول قرية فى الوادى الى آخر قرية ، وهو من أوله الى آخره قرى منظومة متتابعة لا تنقطع ، فعرفتني الناس هناك ، وسميت « حكم الوادى » ! ٠٠ ثم صارت كنيى « أبا يحيى » !

ولست اكتب الآن يوميات ، ولكنى اكتب ذكريات فى يوميات ، فقد انقضى العمر الا ذبالة الشمعة التى أوشكت أن تذوب ثم يبلغ الكتاب أجله ، وأمضى فى الداهيين ! ٠٠

عمرت طويلا جدا ٠٠ حسبك أن تعلم اننى عشت من زمن بنى عبد الملك فى دولة بنى أمية ، حتى غنيت هارون الرشيد خامس خلفاء بنى عباس ، قرأت الدهر يتقلب تحت عيني ، والدنيا تتغير من حال الى حال والناس من باطلها فى غرور ! ٠٠

كان اكبر اساتذتى فى شبابى عمر الوادى ، ولكنى رأيت ايضا وسمعت جماعة من حذاق المغنين ، منهم عمر بن زاذان الذى كان الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك يشير اليه حين يغنى فى حضرته ويقول : « هذا جامع لذتى » ٠٠ لان هذا المغنى كان يجمع فى غناؤه لذات الطرب كلها ، فاستحق ان يصفه الوليد ويجزل له المكافاة ٠٠

وَمَا يَكْفُرُ الْكَافِرُ



وَمَا يَكْفُرُ الْكَافِرُ

سمعت في وادي القرى مغنين آخرين وكل هؤلاء كان يصنع الالحان ويفنى  
فيحسن فيما يصنع ويفنى ! \*

أول غناء استحققت عليه جائزة كان في زمن الوليد بن يزيد « الخليج »  
الذي مات قتيلا متهما بالفجور والخلاعة \*

ادخلني عمر الوادي على هذا الخليفة الاموي ، وهو يهم بالخروج من قصره  
وقد ركب حمارا وعليه جبة وشي ، ورداء وشي ، وفي رجليه خف وشي ، وفي  
يده عقد جواهر ، وفي كفه شيء لا أدري ما هو .. فقال الوليد لمن حاف به  
من المغنين ، وكلهم كبار بارعون :

— من غناني ما أستهوى قلعه ما في كمي وما على جسدي وما نحتي \*  
فغنوه كلهم ، وهو على ظهر حماره يسمع ولا يطرب ، فلما أوشك أن يمضي  
بحماره ، التفت فقال لي :

— أتغني يا غلام ؟

قلت :

— نعم يا أمير المؤمنين ! ..

قال :

— غن يا غلام اذن ، فما يسرنى أن أمضي حتى أعرف كيف غناؤك ! ..  
فاقتربت منه فغنيت :

**أكليلها ايوان**

**وجهها فتان**

**وخالها فريد**

**ليس له جيران**

**إذا هشت تشتت**

**كانها ثعبان**

فرايت الوليد يصغي ويضع راحتيه قرب اذنيه ليكون ذلك أجمع للصوت  
فيهما .. ورايت وجهه يضئ بالطرب والنشوة ، وكان الوليد بن يزيد طروباً  
يحب الغناء ، ويفنى أيضاً ويضرب بالدف ، ويجمع حوله المغنين والمغنيات !  
فلما فرغت من الغناء أخرج ما كان في كفه ، وإذا كيس فيه ألف دينار ،  
فرمى به في حجرى مع عقد الجواهر .. ثم دخل فناء داره فنزل عن حماره  
وبعث به الى جميع ما كان عليه ! ..

### ● اليوم الثاني :

لاقيت رجلا من طرفاء قریش ، فقال لي : يا حكم اننى قلت في غصائك  
شعرا امدحه وأمدحك .. قلت : جزاك الله من سيد كريم ، فماذا قلت ؟ ..  
فانشدني :

**أبو يحيى أخو القسول الغنى**  
**بصير بالثقال وبالخفاف**  
**على العبدان يحسن ما يفنى**  
**ويحسن ما يقول على الداف**

فاخذت هذا الشعر فصنعت فيه هزجا وغنيته للناس ، فسمعتني شيخ فقال  
لى : أحسنت .. فألقيت الدف من يدى على الارض وقلت له : اسمعنى فلا  
تقول لى الا أحسنت ؟! والله لو كنت تحسن فهم الغناء لتطحت هذا الحائط  
برأسك طربا ! ..

فضحك الشيخ ، وضحك الناس وضحكت أنا ! .

**● اليوم الثالث :**

عشت فى دولة بنى أمية ما عشت فلم اكسب من الغناء الا ما يشتترى  
قوتى وقوت عيالى ، ويكسونى ويكسوهم ! .. ولم يعطنى أحد من خلفائهم  
شيئا فيما الا ما اعطانيه الوليد بن يزيد مرة ، ثم لم القه بعدها .. ولو  
عاش لاعطاني جوائز كثيرة ! ..

فلما خرج الامر من ايدى الامويين ، انقطعت الى سيد من أمراء بنى العباس  
أعجبه اهزاجى ، فكان لا يطلب منى ان اغنى غيرها ، ويجزل لى المطاء حتى  
صرت الى حالة جميلة . وسعدت بانقطاعى الى هذا الامير الكريم ، وكان ذلك  
فى عهد أمير المؤمنين ابى جعفر المنصور رحمه الله ..

وذات يوم فوجئت بأكبر ابنائى يقول لى غاضبا :

— يا أبت .. أبعد هذه السن ، وبعد أن صرت كبيرا ، تترك الغناء الجيد  
المتقن الثقيل ، وتغنى هذه الاهزاج الخفيفة ، وهى غناء المختلن ! ؟ ..

فصرخت فيه :

— اسكت أيها الغلام فانك جاهل ! .. غنيت الثقيل ستين سنة ، فلم ازل  
الا القوت وغنيت الاهزاج منذ سنوات قليلة ، فاكسبتك واخوتك ما لم تروا  
مثله قط فى سالف أيامكم وأيامى ! ..

وسكت الغلام على مضض ، فانه لا يرى الاهزاج فنا رفيعا ولا صنعة عالية  
فى الغناء ، ويريد روائع الاغاني الثقيلة التى لا أجدها سواها عند الامير  
العباسي الذى غمرنى بكرمه ! ..

**● اليوم الرابع :**

بلغنى أن أمير المؤمنين المنصور أبدى دهشة كبيرة لما يصلتنى به المعجبون  
بى من الجوائز وانه قال : اصنع هذا شيئا الا تحسين الشعر بصوته وتطريب  
مستمعيه ، فمادام يكون ، ولاى شيء يعطونه أموالهم ؟ ..

كان يرى ذلك اسرافا منهم ، حتى علم ذات يوم ان قائدا من كبار قواده

هو على بن يقطين قد أجزل صلتى وكسانى ثيابا وحملنى على بظلة غارعة ..  
فحين علم المنصور هذا الخبر ، حرك رأسه مليا ، ثم قال ، الان علمت ان  
هذا يستحق ما يعطاه ، لان ابن يقطين لا يعطى شيئا من ماله باطلا ، ولا  
يضعه الا فى حقه ! ..

### ● اليوم الخامس :

علمت ان الخليفة المهدى قد عزم على المضى الى بيت المقدس فلما خرج  
موكبهُ ، عارضته فى الطريق ، وأخرجت دقئ ونفرت فيه ، وقلت : أنا والله  
يا أمير المؤمنين القاتل :

### ومتى تخرج العروس

#### فقد طال حبسها

فسارع الحراس ينعون وصولي اليه ، فقال لهم : دعوه ! .. واستمع  
لى وأمر لى بجائزة ..

على ان أعجب من هذا ، وقع لى فى عهد ابنه الخليفة موسى الهادى .. فقد  
حضرت مجلسه مع ابن جامع وابراهيم الموصلى وغيرهما ، فأخرج ثلاث بدر  
تحرى ثلاثين ألف درهم وقال لنا : من أطربنى فهى له ! ..

فغناه ابن جامع والموصلى وغيرهما فلم يصنعوا شيئا ، وعرفت ما أراد  
وكان يحب من الغناء ما توسط ، فلا يكون خفيفا ولا يكون كثير الترجيع ،  
فغنيته لحن ابن سريج :

### فراء كاثيلة المباركة القهواء

#### تهدى أوائل الظلم

#### اكنى بغير اسمها وقد علم الله

#### خفيات كل مكتتم

فوثب الهادى من فراشه طربا وقال :

— أحسنت ! .. أحسنت والله ! ..

ثم قال وهو ينتفض طربا :

— اسقونى ! .. اسقونى ! ..

فلما هدأ ، قال له ابن جامع :

— أحسن حكم الوادى والله يا أمير المؤمنين وانه لمحسن مجمل ! ..

فسررت أن يقرظنى ابن جامع فى حضرة الخليفة ، وحسدت منه ذلك ،  
وقلت له : لا عجب أيها القرشى أن تكون كريما عادلا ، فالشئ من معدنه  
لا يستغرب .. وعرضت عليه أن يأخذ نصف الجائزة فأبى .. فقئت له :  
مثلك يفعل ما فعلت فانك قرشى نسيب فان أردت تشرفنى بقبول هذا المال  
فعلت ! فقال لا والله .. لافعلت ! .. وبارك الله لك فيه ! ..

أما الموصل ، فحين رأى الفراشين يخرجون بالمال الى بيتي أسرع يقول  
لى : هل تعطيتنى يا حكم من هذا ؟ ٠٠ فقلت : لا والله ، ولا درهما واحدا ،  
لأنك لم تحسن أن تقول كلمة حق فيما سمعت منى فى مجلس أمير  
المؤمنين ٠٠

### ● اليوم السادس :

غنيت أمير المؤمنين هارون الرشيد الوانا من الفناء ، أمزاجا وغيرها  
فطرب ، وسر بى سرورا زائدا ، ولم يسمع فى ذلك المجلس أحدا غيرى من  
المغنين ، ثم أمر لى بثلاثمائة ألف درهم ، وكتب لى بها الى صديقى الأمير  
إبراهيم بن المهدي ، وكان أميراً على الشام ٠٠

فلما قدمت عليه بكتاب الرشيد أسرع فأعطاني ما أمر لى أمير المؤمنين ،  
وزادنى ثلاثمائة ألف درهم أخرى ، ناقصة ألف درهم وقال لى ، لا أصلك  
بمثل صلة أمير المؤمنين فأخذت منه مئتمائة ألف درهم الا ألف درهم  
وانست عنده ثلاثين يوما ، طارحته فيها ثلاثمائة صوت من أصوات القماماء  
ومن أصواتى ٠٠

### ● اليوم السابع :

صابتنى قرحة فى صدرى ٠٠ عجز الطبيب عن مداواتى وأظن هذا هو  
موجهى مع الذاهبين من أهلى وإخوانى ، وانى اليهم لفى شوق ٠٠ وقد حان  
يوم الرحيل ٠٠

عادنى صديقى الشاعر الدارمى ، وسألنى عن أمرى ودمعت عيناه ، ودعا  
لى بالشفاء ، ثم قال : يا أبا يحيى ٠٠ انى عملت بيتين من الشعر دعاء لله  
أن يشفيك ، افتأذن أن أنشدهما ، فلما أومات بالأذن ، قال :

ان أبا يحيى اشتكى علة

أصبح منها بين عواد

فقلت والقلوب به موجه

يارب عاف حكم الوادى

وكيف لى بالعافية وأنا التقط أنفاسى التقاطا ، وقد نهش الداء صدرى ،  
وضاقت الدنيا فى عيني كسم الخياط : ولم يبق لى الا نفثة مصدوراستوفى  
مدته فى الدنيا ١٩ ٠٠

## معاينة ابن المهدي

### ● اليوم الاول :

يزعم بعض المغنين اني اقسو في نقدي لالحن ابراهيم بن المهدي ، مع اعترافي بجمال صوته ، ويقولون لي : أليس له في جمال صوته شافع لديك يداري تقصيره في التلحين ؟! .. فأقول لهم : ان هذا الرجل يجتريء على رؤساء المغنين القدماء الذين نشأ الغناء على أوتار حناجرهم وعييدهم ، وأحكمته تجاربهم ، وتم أمره على أيديهم .. وعنهم رويتاه وعرفنا كيف هو .

وان هذا الرجل لا يفتأ يدعي انه « يجندر » غناءهم فيصلحه بجندرته هذه ويزيده رونقا وحلاوة .. ولعمري ما صدق ، فانه يقصد ولا يصدح ويهدم ولا يبني ، ويجاوز ما لا يستطيع اداءه من غنائهم الى قليل منه يستطيعه .. وما هو في هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، ولا يبلغ منهم قلامة ظفر وليس له حق اللعب في عملهم المتقن البديع ، وقد نصحتهم وأرثته خطاء فأخذته العزة بالاثم . وصغر خده لي ، كأنما صار له علينا حق السمع والطاعة في الغناء والتلحين ، بما ولدته أمه من الخليفة المهدي ، وكأنه والله يحدث نفسه بأنه « خليفة » على دنس الغناء والالحن لا يقل شأننا عن أخيه هارون الرشيد خليفة الدنيا والدين !

وان ابراهيم بن المهدي لعربي النسب ، قرشي هاشمي من جهة أبيه ، ولكن احواله ابتاعهم الناس من أسواق الرقيق ، ومعهم أختهم والدته ابراهيم هذا المزهو علينا بحسبه ونسبه .. وليس في بغداد كلها من لا يعرف خاله الذي يعمل بيطارا ، وفي شفته العليا شق أحدثه به قديما نخاسه الذي باعه في سوق الرقيق ، علامة يعرفه بها الناس جميعا ، فان هرب ردوه بها الى ساداته ! ..

— على انه والله — على قلة علمه بالصناعة — أكثر المغنين الذين نسمعهم الآن علما ، وأشعرهم وأبلغهم مقالا في كل مقام .. غير أن فصاحته تعينه على السباب والشتيم ، فيكون سليلط اللسان جارح الكلام حين يفضسب ، وحين يشرب ! ..

دسست اليه صاحبيا لي يعابته ويفظه ، وقلت لصاحبي : انطلق الى ابراهيم بن المهدي ، فأشرب معه أقداحا ، ثم قل له : يا سيدي .. أخبرني عن قولك « ذهب من الدنيا وقد ذهبت مني » .. أي شيء كان معنى لحبك الذي صنعته فيه ؟ .. وأنت تعلم ياسيدي انه لا يجوز في غنائك الذي صنعته



في هذا الكلام الا أن تقول « ذهبسو » بالواو .. فان قلت : « ذهبت »  
يفض التاء ، ولم تمدّها انقطع اللحن وانكسر ، وان مددت ضمة التاء فجعلتها  
كالواو ، فسد الكلام وصار قبيحا ككلام التبط والمجم والروم ! ..

فأتى صاحبي دار ابراهيم فحدثه كما حفظ عنى حرفا .. حرفا .. فتغير  
لونه وبان عليه الانكسار ، ثم قال لصاحبي : ليس هذا والله من كلامك ..  
انما هو من كلام الجرمناني اللثيم ! .. قل له عنى : انتم تصنعون هذا  
للصناعة ، ونحن نصنعه للهو واللعب والعبث ! ..

فلما حدثني صاحبي بما أسمع ابراهيم عنى ، قلت له : الجرمناني والله  
منا ، أنشينا بالجرمنة لغة ، وهو الذى يقول : « ذهبسو » ولو انه من  
قريش ! .. لقد كان الجرمنة قوما من العجم نزلوا بالموصل ، وصحب أبى  
بعضهم زمنا ولم يكن منهم ، ومضى على اختلاطهم بالعرب منذ فتح المسلمون  
بلاد العجم حتى يومنا هذا دهر طويل ، اعتدلت فيه السفتهم ، فليس  
لابراهيم بن المهدي أن يفخر بفصاحته على جرمنى هو أفصح منه لسانا ! ..

### ● اليوم الثاني :

سمعت في بيت أحد الكبراء جارية تغنى لحنا لى صنعته في شعر لكعب  
بن زهير .. فسألتها : من أين لك هذا اللحن ؟ قالت : طرحه الأمير  
ابراهيم بن المهدي أعزه الله تعالى ! ..

فقلت لصاحب الدار : وما لابراهيم بن المهدي أعزه الله ولهذا الصوت ؟  
سألنى الرجل متعجبا :

— أليس الصوت من صنعته ؟

قلت :

— هذا الصوت أنا صنعته ، وليس كما طرحه ، فان فيه كما سمعته من  
الحارية أخطاء كثيرة ..

وغنيت الصوت للرجل وجاريته ، فكتب لساعته الى ابراهيم بن المهدي :  
« ان أبى محمد الموصلى أعزه الله صار إلينا فأحتبسناه حتى غنى لنا الصوت  
الذى ألقيته — أعزك الله — على جاريتنا ، وزعم انه من صنعته ،  
وانه ليس على الوجه الذى غنّته الجارية ، فأحببت أن أعلم ما عندك ، جعلنى  
الله قداك ! .. »

وأنفذ الرجل رقعته الى ابراهيم ، فجاء جوابه سريرا يقول : نعم جعلت  
فداك ، صدق أبو محمد أعزه الله .. الصوت له ، وهو ما ذكره ، لكنى لعبت  
فى وسطه لعبا أعجبني ..

فلما قرأت هذه الرقعة كتبت اليه وقد ملكنى الحنق :

« اذا أردت يا هذا أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس ..  
وأصنع انت ان كنت تحسن ان تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير

مشارك في جد الناس بلعبك ، ومفسد له بما لا تعلمه .. وهذا الصوت ليس يتهماً لك أن تمخرق فيه وتقول : جندرتك ! .. كما اعتدت أن تقول كلما لعبت بصناعة القدماء ! ..

فلما أنفذت الرقعة إليه أحسست أنني اشتفيت منه ، وانتصفت للحق ، وتذكرت رؤساء صناعة الغناء في عهد بني أمية كأمين سريخ وابن محرز ومعبد ومالك وابن عائشة ، وقلت لنفسى : مافى الدنيا أحق ولا أجهل ممن يزعم أن هؤلاء الفحول لم يكونوا يحسنون تمام الصنعة ، ولا استيفاء الغناء ، وانهم عجزوا عما به يكمل ويتم ويحسن ، وأنه أقدر على الصنعة منهم ، وأنه قد كانت بقيت عليهم أشياء لم يهتدوا لها ولم يحسنوها فتنبه عليها هو فتمسها وحلها بجندرتك ! ..

### ● اليوم الثالث :

في السهرة .. قال لى أمير المؤمنين الرشيد : يا اسحاق تفن : شربت هدامة وسقيت أخرى

#### وراح المنتشون وما انتشيت

فغثيته ، فقال لى إبراهيم بن المهدي : ما أصبت يا اسحاق ولا أحسنت .. فقلت له : ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وإن شئت فغنه ، فإن لم أجذك أنك تخطيء فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك ، فدمى حلال ! ..

ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى فإذا نازعناها أحد بلا علم ، لم نجد بدا من الإيضاح والمدافعة ، فقال الرشيد : لا غرو .. ولا لوم عليك ، ثم نهض فخرج لشيء أراداه ! ..

فأقبل إبراهيم بن المهدي يقول لى : ويلك يا أسحق .. أتجترىء وتقول ما قلت يا ابن اللثيمة ! .. ففضيت وشتمته وذكرت أمه بالسوء ، ثلاث مرات ! .. ثم قلت له بعد أن شفيت نفسى بشتمة : أنا لا أقدر على أجابتك وأنت أخو الخليفة وابن الخليفة ، ولكن قولى فى ذمك ينصرف إلى خالك المشقوق الشفة العليا ! ..

وخطر لى إن إبراهيم يشكونى للرشيد وأنه سيسأل من حضر عما جرى ، فاتقيت عاقبة ذلك ، بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة تصير اليك فلا تزال تهددنى وتعادىنى كما تعادى سائر أولياء أخيك ، حسداً له ولولده على الأمر ولكنك تضعف عنه وعنهم ، فتستخف بأوليائهم تشفياً ، وأرجو ألا يخرج الله الخلافة من يد الرشيد وولده ، وإن يقتلك دونها ، فإن صارت إليك - وبالله العياذ - فحرام على العيش يومئذ ..

فلما عاد الرشيد إلى المجلس ، وثب إبراهيم فقال : يا أمير المؤمنين شتمتني وذكر أمى واستخف بى ! .. فغضب الرشيد وصاح : ما تقول يا اسحاق ويلك ؟! .. ثم أقبل على خادميه سرور وحسين فسألهما عن القصة فجعلوا يخبرانه ووجهه يتربد حتى انتهيا إلى ذكر الخلاف فسرى عنه ورجع إليه لونه ، ثم قال لإبراهيم متمهلاً : ماله ذنب .. شتمته فغرقك أنه لا يقدر على

جوابك .. ارجع يا ابراهيم الى موضعك وامسكه عن هذا ..

فلما انقضى المجلس استبقاني الرشيد وقال لي : يا اسحاق ! .. اتراى  
لم أفهم قولك ومراك .. قد والله رميت أمه بأفحش ما ترمى به المحصنات  
ثلاث مرات ! .. ترويلك ! .. لا تعد الى مثل هذا أبدا ! .. حدثني عنك ،  
لو ضريك ابراهيم أو قتلك أكنت أقتص لك منه وهو أخى .. يا جاهل !؟  
.. فاحتلات من كلام الخليفة رعبا وقلت : يا أمير المؤمنين ، قد والله قتلتنى  
بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنى ! .. فتنبه الرشيد وصاح بمسرور الخادم  
أن يرد ابراهيم اليه ، وصرفنى فأوصيت جماعة من الخدم أن يخبرونى  
بما يجرى ..

### ● اليوم الرابع :

قال لى مسرور خادم الرشيد : لما أنصرفت أمس واعد ابراهيم بن المهدي،  
تجهم له أمير المؤمنين ووبخه ووصفه بالجهل ، وقال له : أتمنخف بإسحاق  
الموصلى وهو خادمى وصنيعتى ونديمى وابن نديمى ، وتفعل ذلك بمجلسى  
وحضرتى !؟ هاه .. هاه ! .. وانت مالك وللغناء ، وما يدريك ما هو  
.. ومن أخذك به وطأرك إياه حتى تتوهم أنك تبليغ فيه مبلغ اسحاق الذى  
غذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن أنك تخطئه فيما  
لا تدريه ، ويدعوك الى إقامة الحجة فلا تثبت لذلك وتعتصم بستمه .. أليس  
هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل وسوء الادب ، من دخولك فيما  
لا يشبهك وغلبة ذلك على مرءوتك وشرفك ، واطهارك الغناء ولم تحكمه ،  
وادعائك مالا تعلمه حتى ينسبك الناس الى الجهل المفرط ! .. ثم قال له :  
والله العظيم وحق رسوله ، لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من  
السماء ، أو سقط من دابته ، أو سقط عليه سقفه ، أو مات فجأة ..  
لاقتلنك به ! .. فلا تعرض له وانت أعلم ! ..

فلما سمعت هذا الكلام كله من مسرور ، اطأنت نفسى وكنت أخشى أن  
يقتالنى غلمان ابراهيم ..

فلما جلست انتظر دورى فى الغناء ، أعرضت عن ابراهيم فضحك الرشيد  
وقال له : انى لاعلم محبتك فى اسحاق وميلك اليه والى الاخذ عنه ، وان هذا  
لا يجيئك من جهته الا بعد ان يرضى ، فأحسن اليه واكرمه واعرف حقه وبره  
وصله ..

وأصلح الرشيد بيننا .. الى حين ! ..

لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ



مِنْ أَوْلَادِهِمْ هَؤُلَاءِ

## دماء الزنادقة

### ● اليوم الاول :

قال لي امير المؤمنين هارون الرشيد قد سئمت المقام ببغداد والضيف مطوق عليها بحارته وركود هوائه ، فانا على نية السفر بعد غد الى بلدة « الرافقة » على الفرات ، فتاهب للخروج معنا ان شاء الله .

كنت اتوقع ان يتحرك الرشيد من بغداد للاصطياف في الرافقة والرقعة في الشام ، فهكذا يفعل كلما هجم الحر على بغداد . بل انه ليحصل ذلك في الشتاء وفي غيره من فصول السنة . وهو يحب الرافقة وقد بني فيها قصرا ، وبني رجال دولته قصورا كثيرة حتى اتصل عمرانها بمدينة الرقة ، فهما الان في الحقيقة مدينة واحدة ويراها الرشيد قد جمعتا اطيب مافي الشام كله من هواء وماء ! .

دخلنا قصر الرشيد هناك بعد سفر سريع انهكني ، واذن لنا الرشيد بالراحة حتى اليوم التالي ، فانعشنا الراحة وهبت علينا الانسام من الفرات ومن كل الجهات حتى امتلانا نشاطا ولم يبق الا أن يدعونا امير المؤمنين الى مجلسه . وكان معي مخارق وعلويه وابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وجماعة آخرون .

في السهرة غنى مخارق لحنا كنت صنعته قديما ، ثم غنى علويه من صنعته وأعقبه ابراهيم بن المهدي ، ثم غنيت لحنا لي في هذه الابيات من شعري :

بدير القوائم الاقصى

غزال شفتي احوى

برى جبي له جسمي

وما يدوى بما القى

واخفى حبه جهدي

ولا والله ما يخفى

فامر الرشيد لكل منا بجائزة ، وانصرف المغنن وبقيت أنا وابراهيم بن المهدي في مجلس الرشيد .

ثم دخل بعض رجال الدولة والقضاة وبنى هاشم . . . وجرى برجل مفلول اليدين الى عنقه بقميد ثقيل ، وعرفت فيه على بن الخليل من اصدقاء صالح بن عبد القدوس المشهور بالزندقة . . .

تأملت على بن الخليل فرايته نظيف الثياب ، جميل الوجه ، رابط الجاش  
كانه لا يدري أن الزندقة عقوبتها القتل ، فقلت فى نفسى ، ما لهذا الرجل  
ذنب الا مصاحبته لصالح بن عبد القدوس الذى تطارده شرطة الزنادقة التى  
وكل اليها الرشيد استنصالحهم من أصولهم ! -

قال الرشيد بعد أن نظر قليلا الى على بن الخليل :

- من أنت ؟!

قال الرجل ببساطة وخفة ظل :

- أنا على بن الخليل من أهل الكوفة ، ويقول صاحب شرطة الزنادقة عنى  
انى زنديق ! -

فلم يتمالك الرشيد نفسه أن ضحك حتى استغرب ، فطمع الرجل فيه  
وقال :

- أياذن لى أمير المؤمنين فى انشاد أبيات فيه ١٩

فلما اذن له الرشيد ، اندفع يتشد :

يا خير من وخذت بارحله

نجب الركاب بمهمه جلس

تطوى السباب فى أزمته

طى التجار عمائم البرس

خير البسرية أنت كلهم

فى يومك الفادى وفى أمس

لله ما هارون من ملك

بر السريرة طاهر النفس

انى لجات اليك من هرب

قد كان شردنى ومن لبس

واخترت كلمك لا اجاوزه

حتى أوسد فى ثرى رمى

والله يعلم فى بقيته

ما ان أفسمعت القامة الخمس

فامتحسن الرشيد الشعر ، ورق للشاعر ، واستتابه ، وأمر له بخمسة  
الاف درهم .. وأطلقه ! ..

ثم أدخلوا صالح بن عبد القدوس يرسف فى قيوده ، فقال له الرشيد :

- قد كتب الينا صاحب شرطة الزنادقة انك مقيم على زندقتك ، وأنت  
تفتن الناس ! ..

قال الرجل :

— ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ، واني قد تبت وصححت توبتي ! •

قال الرشيد :

— وكيف تتوب ، أو ترجع عما عشت فيه من شبابك الى اليوم وانت القاتل :

**والشيخ لا يترك اخلاقه**

حتى يوارى في ثرى دمه

فانك انما زعمت ألا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبدا ••

وأمر الرشيد بقتله لساعته ! ••

ولو استنظفني الرشيد لقلت له : ان هذا الرجل شهد على نفسه بالتوبة ، فلا يستطيع أحد تكذيبه الا أن يشق عن قلبه ، فيميز فيه الصدق من الكذب ولكن الرشيد منذ مدة يضمر قتل صالح بن عبد القدوس ، كما قتل أبوه المهدي من قبل بشار بن برد في تهمة الزندقة أيضا ••

### ● اليوم الثاني :

ظلمت غائم النفس منذ مقتل صالح بن عبد القدوس أمس ، فلما أمرني الرشيد بالغناء الليلة ، اندفعت أغني :

الا قاتل الله الحمامة غدوة

على الفصن ماذا هيجت حين غنت

تغنت بصسوت أعجمي فهيجت

من الشوق ما كانت ضلوعي اجنت

فلو قطرت عين امرئ من صباية

دما قطسرت عيني دما فالت

لما سكنت حتى اويت لصوتها

وقلت : ترى هذي الحمامة جنت

وما وجد اعرابية قذفت بها

صروف النوى من حيث لم تك ظنت

باكثر منى لوعة ، غير انني

اجمجم احشائي على ما اجنت

فطرب الرشيد غاية الطرب ، وقال لي : كأنك والله تلك الحمامة على حصنها ، تنوح وتهيج سامعها ! ••

وأمر لي بجائزة عظيمة •• ثم قال :

— لمن هذا الشعر يا إسحاق ، فاني أراه يدخل القلب ، ويهيج المدامع ، ولا يقدر أحد أن يصف جودته وحلاوته ورنينه ، حتى ليوشك أن يستغنى بنفسه عن الغناء والتلحين ••

قلت :

— كأنك رأيت يا أمير المؤمنين أن جهدي في تلحينه قد ذهب بإطلاء ، إذ التلحين في أصل كلماته ؟!

ضحك الرشيد وقال :

— ما هذا أردت ، فوالله لقد غنيته فزدته حسنا ولا يقدر أحد غيرك على مثل هذه الصنعة فيه فلنن هذا الشعر ؟

قلت :

— هو لبعض الاعراب يا أمير المؤمنين ! .. ولا أعرف اسمه ..

قال بعد لحظة فكر :

— انه الى شعر الحضريين لا قرب منه الى شعر الاعراب ، وكأنك أنت صاحبه ! .. ألا ترى أن صاحب هذا الشعر يقول « وما وجد اعرابية قدفت بها .. » .. فالاعرابي لا يتحدث هكذا عن الاعرابيات ، وإنما هذا رجل من الحضرة يضرب المثل بالاعرابيات في الوجد والحنين .. ولا تجيء أشعار الاعراب في هذا الباب كذلك ! ..

قلت :

— والله يا أمير المؤمنين ، ما يقدر الاصمعي ولا غيره أن يفحص عن حقيقة هذا الشعر ، كقدرتك عليه ، وما زلنا نأخذ من عطائك الجزيل ، ومن أدبك الجليل ، فأطال الله بقاءك ، وجعلنا فداؤك وأطلنا بوارف ظلك آخر الدهر أن شاء الله ..

### ● اليوم الثالث :

اذن لي أمير المؤمنين في العودة الى بغداد أياما ثم أرجع الى الرفقة ، لأمور لا بد لي من العناية بها في بغداد ..

التقيت والحسن بن هانيء الشاعر الذي يسميه الناس أبا فواس ، ولا أدعوه أنا الا بالحسن أو بابن هانيء ..

قال لي :

— أما في شعري يا اسحاق بيت ولا بيتان ولا أبيات تلحنها وتغنيها في حضرة أمير المؤمنين ، فترفع قدرى عنده فان أبا العتاهيه وابن أبي حفصة وغيرهما قد حازوا مئات الألوف من الدراهم لارتضاع قدرهم عنده ، وأراني لم أفز منه بشيء وقد عجزت حتى عن انشاده قصيدة واحدة في مدحه ، لأنني لست — مذكورا عنده ، وقد قيل لي : لو غنى اسحاق الموصلي من شعرك لقربك الرشيد الى مجلسه ! ..

قلت له :

— انك يا ابن هانيء لا تدري اني أذكرك بظهر الغيب لكل من القاه ، والله



لاغبين الرشيد من شعرك حتى يذكرك ويعرف قدرك ، فاني أرى من دونك  
من الشعراء قد نفقت سوقهم عنده ، وأنت ما لك عنده إلا التجافى والتناسى  
.. وكأنك تذكر هذا المعنى فى قولك تمدحه :

### وبصاعة الشعراء ان أنفقتها

نلفت وان اكسدتها لم تلتق

ثم اقترقنا ، وابن هانىء يقول لى :

— لا تنسنا من دعائك فى صلاتك يا أبا محمد !

كانما يريد « أبو نواس » أن يستخر من نسكى وصومى ، وهو الشاعر  
المتهتك الذى لا يعرف الناس له صلاة ولا صياما ، ولا يروونه الا خارجا من  
الاديرة أو داخلا فيها ، ثملا ، أو طالبا أن يشمل بما حوت من الصهباء ..

وما أظن أحدا بقادر على أن يدنيه من قلب الخليفة ، ولكن الجهلاء من  
عامة الناس فى بغداد وغيرها يظنونهم من شعراء الخليفة وانه يحضر مجلسه  
.. وذلك مما تصوره لهم أو هامهم ، فما رأيت أبا نواس فى حضرة الرشيد  
قط ، وما أظنه كسب دينارا واحدا من شعر له فى مدح الرشيد ، وإنما كل  
كسبه من آل الربيع وبعض الهاشميين والكبراء ، ولم تتصل أسماياه بعد الا  
بحسين خادم الرشيد ، وقد مدحه أبو نواس ، فكيف يطمع أن يمدح الرشيد  
بعد أن مدح خادما فى قصره ١٩ ..

### ● اليوم الرابع :

جاءنى اليوم فى بيتى محمد الزف المطرب الملحن ، وكان صديقا لابی  
— رحمه الله — وطالما نصره على منافسيه من أهل صناعتنا ، وعلى رأسهم  
اسماعيل بن جامع صاحب الصوت الذهبى الذى كان الرشيد يؤثره ويرفع  
قدره ويقول : صوته كالعسل ..

قلت للزف :

— ان لك لحنا أحب أن تسمعيه .. وهو الذى أوله : « يا ذاثرينا من  
الخيام » ..

يا ذاثرينا من الخيام

حياكم الله بالسلام

يجزئنى ان اعطمانى

ولم تنالا سوى الكلام

بووك هارون من امام

بطاعة الله ذى اعتصام

له الى ذى الجلال قربي

ليسبت لعدل ولا امام

فما سمعت والله أحسن من غنائه ، وقلت له : لو كنت خليفة لأعطيتك  
على هذا الصوت مائة ألف درهم ٠٠ وأما وأنا اسحاق الموصلي المغني ، فما لك  
عندي ولا نصف درهم وقد كافأتك أعظم مكافأة بسماعي أياك ، وطربي لك !  
قال ضاحكا :

- فاني والله قد جمعت من هذا الصوت مائة ألف درهم ، فقد أعطاني  
الرشيد عشرة آلاف ، ثم درت بالصوت على بيوت الهاشميين والبرامكة  
والكبراء ، فكل من سمع منهم اسم « هارون » في هذا الصوت فزع الى خزنة  
أمواله فأعطاني منها ما تسمح به نفسه ، ظنا منه اني أذكره عند أمير المؤمنين  
لسجانه بالمال عند ذكر اسمه في الصوت حتى جمعت مائة ألف درهم أو أكثر  
وما ابتززت أحدا ولا طلبت منه شيئا ٠٠ وما كان الا اسم « هارون » هو  
الذي يفتح لي بيوت أموالهم ! ٠٠



## أيام الرشيد الأخيرة

### ● اليوم الاول :

حججت مع أمير المؤمنين الرشيد .. بلغنا في موكبهِ العظيم مدينة رسول الله ، هذا اليوم ، ففرق الرشيد وولده : محمد « الامين » وعبد الله « المأمون » أموالا طائلة على أولاد المهاجرين والانصار في المدينة ، ثم مضى موكبهُ الى مكة ، فأعطى لاهلها كما أعطى في المدينة ، وبلغ عطاؤه فيهما أكثر من ألف ألف دينار ، وهو أعظم شيء أعطاه خليفة من الخلفاء لاهل الحرمين الشريفين ! ..

وانما أغدق الرشيد على الناس ، احتفالا بتولي ولديه الامين والمأمون ولاية عهده ، وقد كتب بذلك كتابين علقهما في الكعبة ، وأشهد عليهما القضاء والفقهاء ورجال بنى العباس ! ..

ولكن الناس لم يتفعلوا بما صنع الرشيد ، وقالوا : لا يكون بينهما الا الحرب حين يخلو مكانه في الخلافة ، فانهما يتنازعاها يومئذ ويتقاتلان ! ..

وفي مكة والمدينة لم أجد أحدا من عظماء رواة الفناء القديم ، ووجدت من يحفظ شيئا ولا يؤديه على وجهه ، وقد تسالته عن صاحب اللحن فلا يعرفه !

لقد انتقل الفناء من مكة والمدينة الى بغداد ، وأظن ان المكي وابن جامع وحكم الوادى هم آخر فحول الحجاز في الفناء المتقن ونى الاهراج ..

حضرت في مجلس للرشيد بمكة موعظة جعلته يبكي حتى تتخلل دموعه لحبته ، اذ دخل عليه الواعظ الناسك المعروف بابن السماك ، فقال له : « يا أمير المؤمنين .. ان لك بين يدي الله تعالى مقاماً ، وان لك من مقامك منصراً ، فانظر الى أين منصرفك .. الى الجنة أو الى النار ! .. »

فلما كثر بكاء الرشيد ، قيل لابن السماك ، « ارفق بأمر المؤمنين ! » فقال ابن السماك الذي يشوب عقله أحيانا شيء من الاختلاط والتشوش : « دعوه فليمت حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله تعالى ! »

ثم انشد ابن السماك ، وقد تهيا للخروج :

إذا خلا في القبور ذو خطر

فزره يوما وانظر الى خطره

ابرزه الدهر من مساكنه

ومن مقاصيره ومن حصره

ثم خرج ابن السماك ، فلاحق به بعض خدم الرشيد ومعه مال أمر له به ،  
فرد المال ، وقال : « ما كنت لاسود وجه الوعظ » ! • ومضى وانه ليفتقر  
إلى درهم واحد يقتات به ! •

### ● اليوم الثاني :

كانت أيام الحج رائعة الروحانية ، غسلتنا من الذنوب ، واعدتنا إلى  
بغداد كما ولدتنا أمهاتنا ، ولا أجدني الآن نشيطا لغناء ولا تلحين ، فاني  
ما زلت في روحانية الحج ، واصدقائي يسخرون مني قائلين :

— أصبح اسحاق الموصلي ناسكا ••

واليوم أفرغني ما علمته من نكبة الرشيد لوزرائه البرامكة ! •

وقال لي أبي والاسى يعتمره :

— أرايت يا بني كيف أوقع الرشيد بصديقه جعفر البرمكي ، فقتله ثم  
صلبه ، ثم أمر فقطعت أعضائه ، وعلق كل عضو في مكان من بغداد ، ثم  
انزلت أشلائه فأحرقت بالنار ! •

ثم قال أبي مدهوشا باكيا :

— أي حقد هذا الذي كان يجنه الرشيد لصديقه جعفر بن يحيى الوزير •  
وقد كان أقرب إليه ، وأحب من الناس جميعا ؟! ••

جلسنا واجمين ، ورايت في أبي انكسارا شديدا ، فقد كان جعفر البرمكي  
صديقا له ولما اقتسم الرشيد وجعفر ذات يوم من أيام لهوهما ، جماعة المغنين  
في قصر الخلافة ، كان أبي في قسمة جعفر ، وكان ابن جامع في قسمة  
الرشيد ! •• ثم عاد أبي إلى الرشيد بعد موت ابن جامع ! •

قلت لأبي :

— ما كان معنى هذه القسمة ؟! ••

قال :

— لم يكن لها معنى الا اللهو والتفكه وكنت أيامها أغني للرشيد كما يغنيه  
ابن جامع ، وأفوز منه بجوائز لا يفوز بمثلها ابن جامع ! ••

بكى أبي من الذكريات ، ثم دخل إلى جناح في بيته يمكث ، وكانني رأيت  
به أثرًا من مرض أخذ يدب إلى بدنه مفسريا إليه من روحه المصذبه ، فقد  
تضعف لموت جعفر البرمكي • وامتلا كمدًا وآسا من الدنيا وأهلها ! ••

### ● اليوم الثالث :

منذ شهر لم أكتب شيئا في اليوميات ••

لم أكن أظن أن أول ما أكتب حين أعود إليها ، يكون عن موت أبي ! ••

لقد مات ابراهيم الموصل سيد من لحن وغنى وقال الشعر ، وروى الاغاني  
والاشعار وأداعا فى عصرنا كله ! ..

مات أبى بعد سنة واحدة من قتل جعفر البرمكى ، وما أظنه الا مات حزنا  
وكمدا ، حريصا على مفارقة الدنيا اذ فارقتها جعفر صديقه .. الذى به أدرك  
من قبل فى الدنيا أملة ، ولم يجد بعده فيها أملا ! .. ولقد استتم كتاب  
الصديقين عمله فى هذه الدنيا وبلغ أجله ، فذهب والله بذهابهما الادب  
والعقل والفضل والمروءة والجمال كله ! ..

دخلت الى الرشيد بعقب وفاة أبى بنحو شهر ، فلما جلست مع المغنين ،  
رأيت موضع أبى الذى كان يجلس فيه ، خاليا فدمعت عيني ، فتصبرت  
وكفكت الدمع ، ولمحنى الرشيد ، فدعاني اليه وأدنانى مشفقا مواسيا ،  
فقبلت يده ، فاستعبر وجرى الدمع على خديه ، وإن الرشيد فى موطن الرقة  
والبكاء ، لرقيق كثير الدمع فقلت أمدحه وقد استويت واقفا بين يديه :

فى بقعاء الخليفة الميمون  
خلف من مصيبة المحزون  
لا يضير المصاب رزء اذا ما  
كان ذا مفزع الى هارون

فقال لى بصوت فيه أثر البكاء :  
— كذاك والله هو يا اسحاق ، ولن تفقد من أهلك ما دمت حيا الا شخصه !  
وأمر بمضاعفة عطائي ، وأن يستمر عطاء أبى فى أولاده الصغار وبناته !

### ● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد فى سهرة الليلة :

سلى هل قلانى من عشير صحبته  
وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيسق

فطرب الرشيد ، ولكنه لم يأمر لى بجائزة فوجدنى أشرئب اليه ، فضحك  
وقال :

— قد كان أبوك غنانا هذا الصوت فأعطيناه ألف دينار ! .. فقد أخذ أبوك  
ثمنه مرة فلا تطمع ! ..

فعمجت من قوله ، وأدهشنى أن يبلغ به البخل هذا المبلغ وهو من هو  
كرما ونبلا فقلت :

— سيدى ، قد أخذ أبى منك أكثر من مائتى ألف دينار ، ما رأيتك ذكرت  
منها غير هذا الالف ، على بختى أنا ! ..

فقال الرشيد واجما :

— ويحك ! .. أكثر من مائتى ألف دينار ١٩ استغفر الله من ذلك ! ..

ثم قال لى

- ويحك ! .. فما الذى خلف منها ١٩

قلت :

- خلف على وعلى أولاده ديونا مبلغها خمسة الاف دينار قضيتها عنه ! ..  
فقال الرشيد متعجبا :

- ما أدرى أينما أشد تضيقا ! .. والله المستعان ! ..

خرجت فى هذه الليلة من مجلس الرشيد بلا درهم واحد ، وذكرت وأنا  
أتعجب كيف أن أخاه الخليفة السابق الهادى - رحمه الله - قد أعطى أبى  
فى صوت آخر خمسين ألف دينار ، فاجتمع له فى ليلتين فقط مائتا ألف  
دينار ، ولم يجتمع له من الرشيد فى بضعة عشر عاما غناه فيها مئات الاصوات  
الا هذا المبلغ الذى جمعه فى سهرتين من سهرات الهادى ! ..

الآن ، عرفت معنى قول أبى لى فى بعض الايام :

- يا بنى .. لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان بيوتنا بالذهب والفضة !

ليس الرشيد ببخيل فى نفسه .. ولكنه قليل العطاء جدا بالقياس الى اخيه  
وتعثره احوال من الحرص أحيانا - على استحجار أمواله - يحار فيها العقل !

### ● اليوم الخامس :

تسير الامور فى سهرات الرشيد على ما يرام ، الا بعض ليال أراه  
فاترا لا يشتهى سماع الغناء ، ولا الشعر ، ولا النوادر ، ولا يأكل شيئا ،  
ولا يشرب ..

فى السنوات الثلاث الماضية ، كنت أرى الرشيد يضعف شيئا بعد شيء ،  
كأنه طعن فى السن ، وهو فوق الاربعين بقليل ، ولعل ذلك من هموم الملك  
أو كثرة اللذات ، أو غير ذلك ! ..

وقد كثر الخارجون عليه فى أطراف دولته ، يريدون إزالته عن الخلافة  
وإزالة بنى العباس جميعا ، وآخر من سمعت انهم خرجوا عليه ، رجل فى  
خراسان ورأيت الرشيد مريضا ، ولكنه أصر على الخروج بنفسه لمحاربة  
الخارجي ، وكنت مع الفضل بن سهل ، فسمعتة يقول لعبد الله المأمون ولى  
عهد الرشيد :

- أفك لست تدري ما يحدث بأمر المؤمنين وخراسان ولايتك ، والامير  
مقدم عليك فى ولاية العهد ، وأخواله بنو هاشم ، وأمه زبيدة تملك من الاموال  
ما تستطيع به شراء الناس جميعا .. فسر مع أبيك الى خراسان ولا تتخلف  
مع الامير فى بغداد ! ..

ومضيت أودع الرشيد ، فأوغلت معه كأننى ضمن ركبته وجنده والمسافرين  
معه .. فسمعتة يقول لبعض خاصته :

- لا أظنك ترانى أبدا بعد سفرى الى خراسان ! ..

فدعا له الرجل بطول البقاء ! .. فنظر الرشيد فوجسده في علي مقربة ،  
فاستدناني ، وقال لي :

— ما أظنك ولا أظن أحدا من هؤلاء يدري ما أجد في بدني من السموم  
والآلم ! ..

ثم عدل الى شجرة وأنا معه في قليل من خواصه ، فكشف أسفل بطنه  
فاذا هو مربوطه بعصابة حرير غليظة ربطا شديدا ، وقال : « هذه علة أكتمها  
عن الناس ، ولكل واحد من ولدي رقيب يتبعني .. فمسرور الخادم رقيب  
للمامون ، والطبيب ابن بختيشوع رقيب للأمين ، وما منهم أحد الا وهو  
يحصي أنفاسي ويستطيل أيامي ، وقد تعمدوا أن يركبوني دابة عجفاء لتزيدني  
علة ! .. »

فرحمت والله الرشيد ، وهو الملك الجبار الذي حاز من الدنيا ما لم يحزوه  
أحد !

وهو الحاكم الطاغى ، والسياسى الداهى ! ..



## غناء على الذكريات

### ● اليوم الاول :

قلت ليحيى المكي ، وهو أكبر المطربين والملحنين سنا ، واجمعهم لاغاني كبار الممثلين القدماء :

— هل حدثتك نفسك قط بأن الغناء حرام ، وإن من يصنع غناء أو يسمعه ، يزحزح يوم القيامة عن الجنة فيدخل النار ، وبئس القرار ؟! ..  
قال يحيى :

— لقيت الامام مالكا وجماعة من فقهاء المدينة ومكة ورايتهم يسمعون بعض الغناء أحيانا ، وأدركت جماعة من أهل العلم يتشهدون في انكار السماع ، على رأسهم محمد بن سيرين .. وأدركت آخرين يتساهلون في المناني ، لا يظعن أحد عليهم ، حسبك منهم الحسن البصري والشعبي والنخعي ! ..  
ثم قال يحيى المكي :

— سألت مرة رجلا لغويا نحويا ظريفا كثير الدعابة ، وإن كان صواما قواما ، كثير الجلوس في حلقة الحسن البصري :  
— ما تقول في السماع ، فاني رأيت قوما ينكرونه ، ونحن نروح به ونغفو على الخلفاء ؟! ..  
فقال الرجل النحوي :

— انما اختلفوا في هذا كاختلاف العرب في كلمة « الهدى » .. بعضهم يؤنثها ، وبعضهم يذكرها ، فيقول هؤلاء : « هذا هدى حسن » .. ويقول أولئك : « هذه هدى حسنة » .. وانما الهدى هدى الله ! ..

ثم مضيت ويحيى المكي الى قصر الرشيد ، وكنت صغفت لحننا جديدا في شعر بشار ، فقال لي يحيى :

— يا اسحاق ! .. يقول عنك الناس : ما في الدنيا مثل اسحاق الموصلي مقدره على التلحين ، فهل كان أبوك — رحمه الله — أقدر منك عليه ؟! ..  
قلت :

— كان أبي — رحمه الله — مطبوعا ، خلقه الله مفتيا ملحنا ، ولم يكن في أهله أحد يأخذ عنه هذه الصناعة ، أما أنا فنشأت لا أسمع ولا أرى الا



الفناء والمغنين .. وأخذت الصنعة عن أبي ، لم أتعب في السعى لها ،  
فليس احسانى فيها الا فرعا من احسانه ! .. فأين أنا منه 19 ..  
قال يحيى المكي :

- ما يفليك أحد في الكلام يا اسحاق ! .. ولكن أخبرني : كيف اخترت  
أن تغنى لامير المؤمنين الرشيد من شعر بشار الذى قتله أبوه المهدي  
لزندقته ، وقد علمت ان الرشيد يتعقب الزنادقة ويستأصلهم ، وهو متشدد  
فى الدين على حبه للدنيا واقباله الشديد على طيبتها ، وأولها السماع ؟  
قلت :

- الرشيد يحب شعر بشار ، ولا يبالي بفتاكة هذا الشاعر ، فقد مضى  
لسبيله ولم يبق الا شعره .. وقد لحننت منه هذه الايات :

وقت لكم كبدي حتى لو انكم  
تهوون الا اريد العيش لم ارد  
كان قلبى اذا ذكراكم عرضت  
من سحر هاروت او ماروت فى عقد  
ما هبت الريح من تلقاء ارضكم  
الا وجدت لها بردا على كبدي

### ● اليوم الثانى :

كان طرب أمير المؤمنين الرشيد شديدا فى سهرة البارحة ..  
أعجبه شعر بشار ، وأعجبه لحنى فى هذا الشعر ..

وكان أبى - رحمه الله - قد التمس من الرشيد أن يأمر بالآذنيه أحد  
سواه فى شعر ذى الرمة ، لان والدى عرف من الوزير جعفر البرمكى ، حب  
الرشيد لشعر ذى الرمة .. وقد سألت الرشيد أن يورثنى ما كان قد أقطعه  
لابى من شعر ذى الرمة ، فلا يفتيسه فيه غبرى ، فأجابنى الى ذلك .. ثم  
سألته ان يجعل شعر بشار وقفا على غنائى ، فقال لى ضاحكا :

- ولا كل هذا يا اسحاق ! .. قد ورثناك عن أبيك شعر ذى الرمة ،  
فاجعل شعر بشار لك وللآخرين ! ..

واليوم أنشدنى أبو نواس قوله فى الخمر :

ما زلت اوشف روح الدن فى لطف  
واسستنى دمه من جوف مجسروح  
حتى انشيت لى روحان فى جسدى  
والدن مطروح جسما بلا روح

قلت لابی نواس :

- ما أحسن شعرك هذا ، فوالله ما يقتدر على مثله أحد ، ولقد اتسعت

فى معناه وجودت وملحت ولطفت ، حتى تركت بشار بن برد يحجل خلفك  
وهو المجلى فى الشعراء ! ..

قال أبو نواس

— كأنك ترانى أخذته من كلام بشار ؟

قلت :

— لا أرى ذلك ، ولكنى تذكرت قول بشار فى معناه :

**شربنا من فؤاد اللئى حتى**

**تركنا اللئى ليس له فؤاد**

فهذا هو أصل المعنى الذى فى بيتيك هذين ، سبقك اليه بشار فى بيته  
هذا ، ولكنك أربيت عليه بهذا الاتساع فى التصوير والتعبير حتى أبدعت ،  
بل أعجزت ..

تهلل وجه أبى نواس .. وقال :

— ألم تستح لك بعد فرصة تغنى فيها من شعرى لأمير المؤمنين الرشيد ؟

قلت :

— وما تشاعون الا أن يشاء الله ! .. ألم يغنه الآخرون فى شعرك ؟ ..

قال أبو نواس :

— بلى والله ! ..

ثم تركنى وانصرف بلا كلام ، كأنه يشس من بلسوغه يوما مجلس أمير  
المؤمنين الرشيد ، وما هو ببالغته ! ..

### ● اليوم الثالث :

غنيت اليوم لحنى الذى صنعتته فى شعر بشار .. طلبه الرشيد  
وقال لى :

— ان فيه صنعة عجيبة دقيقة ، وان فى غنائه لشجنا يقرح الكبد ، على  
ما فيه من حلاوة وطلاوة ! ..

فلما أتممت غنائه ، ظننت ان الرشيد لا يعطينى فيه شيئا وقد أعطانى  
منذ أيام .. لكن الطرب هن أريجىة الرشيد هذا شديدا ، فأمر لى بضعف  
ما أمر لى به فى المرة السابقة ! ..

ثم أخذ الرشيد يسأل الحضور من المغنين عن رأيهم فى اللحن ، فكلهم  
أنثنى عليه ، حتى ابراهيم بن المهدي الذى يناوئنى لم ييخل بالثناء ، ولكنه  
أراد غمزى فقال :

— قد كان أمير المؤمنين المهدى — رحمه الله — غاضبا على بشار ، لرميه

بعض نساء المسلمين بالفجور ، وذلك في قوله :

لا يؤنسك من مغياة

قول تغلظه وان جرحا

عبر النساء الى مياسرة

والصعب يمكن بعلمنا جمعا

قال الرشيد :

— ولكن بشارا لم يقتل الا بدسياسة الوزير يعقوب بن داود ، ولولا ما وجد عليه المهدي ولا قتله ، فقد زعم ابن داود هذا ان بشارا كان زنديقا فاسقا فأمر المهدي بضربه ، وظن أن ضربه اياه لا يبلغ الموت ، ولكنه كان شيخا ضعيفا فمات .. وندم المهدي على قتله ، ثم غضب على ابن داود فنكبه ، وكان يقول : « لمن الله يعقوب بن داود ، قتل بشارا وهو مسلم خير منه » ! ..

فلما سمعت ذلك من الرشيد ، قلت :

— وكيف ثبت لامير المؤمنين المهدي رحمه الله ، ان بشارا كان حسن الاسلام ، لا كافرا ولا زنديقا ؟ ! ..

قال الرشيد :

— في خزانتنا كتب وأوراق لبشار جاء بها عامل البصرة الى أمير المؤمنين المهدي بعد قتل بشار ، وقد أخبرني يحيى بن خالد البرمكي ان المهدي رحمه لما قرأ هذه الكتب وجد في بعضها مكتوبا من املاء بشار : « قد كنت عزمت على هجاء بعض آل سليمان بن علي ، لانهم ظلموني ، وقعدوا علي ، فذكرت قرايتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبتهم له فما قلت فيم الا بيتين وهما :

دينار آل سليمان ودرهمهم

كالبابليين حفا بالعفاريت

لا يوجدان ولا يلتاهما احد

كما سمعت بهاروت وماروت

فزاد أسف المهدي على قتل بشار ، وهو أشعر الشعراء ، وكان قوله كلما ذكره : « لمن الله يعقوب بن داود ! .. قتل بشارا وهو مسلم خير منه » !

### ● اليوم الرابع :

مات الرشيد : .. ودفن في أرض فارس .. ولقد رأيته — رحمه الله — مريضا يكاد يقع من فوق دابته في خروجه منذ شهر لاصحاح فتنه في تلك البلاد ..

ولاول مرة أرى أبا نواس في قصر الخلافة ، ولم أره قط هناك أيام

الرشيد ٠٠ وسمعه ينشد أمير المؤمنين محمدا الأمين الذي تولى الخلافة بعد أبيه ، فكان قوله في تمزيته :

نرى أمير المؤمنين محمدا  
على خير ميت غيبته المقابر  
وان أمير المؤمنين محمدا  
لرابط جاش للخطوب وصابر  
زهت بأمير المؤمنين محمد  
أسرة ملك واستقرت منابر  
فلا زلت مرعيا بعين حفيظة  
من الله لا تسطو عليك المقادر  
تسوس أمور الناس تسعين حجة  
وهديك محمود وعرضك وافر

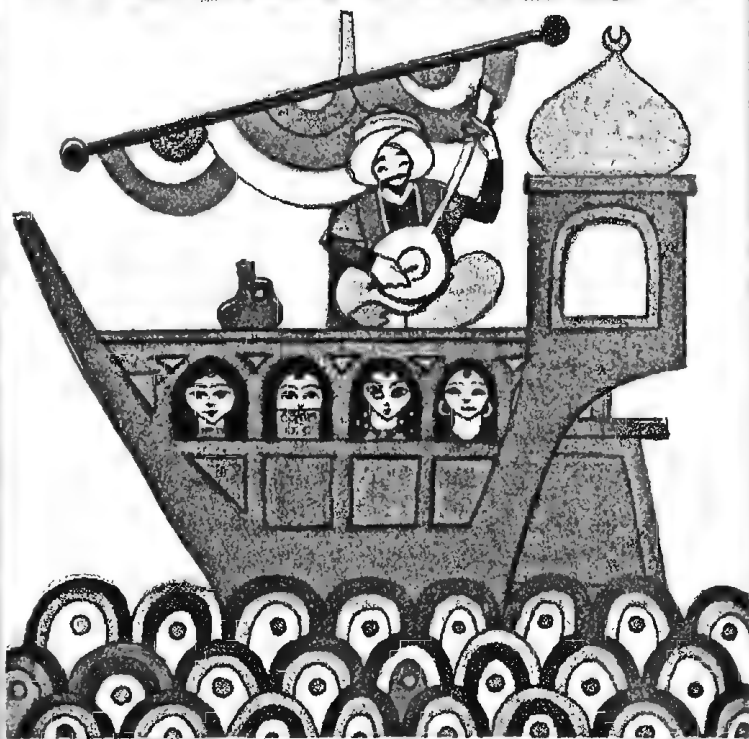
لم تعجبني أبيات أبي نواس هذه ، فانها نظم لا حياة فيه ، كأنما العزاء في الموت لا يكون الا بمثل هذا النظم الميت ، وأين هذا من روائع أبي نواس ١٩

وأبو نواس - منذ اليوم - شاعر الخليفة الجديد لا يحجبه أحد عن مجلسه كما كانوا يحجبونه في عهد الرشيد ٠٠ وان محمدا الأمين لشديد الولع بشعر أبي نواس وصحبته ، ولن يجد مثله نديما له في الخمر واللهو بين الجوارى اللابسات ثياب الفلمان ، والفلمان اللابسين ثياب الجوارى ٠٠

وكيف تستقيم أمور الخلافة مع هذا الخليفة الحدث الطياش الذي لا يرى الدنيا الا لذة كأس أو لذة ثغر ١٩ ؟

ان أبا نواس لن يسألني بعد اليوم أن أغنى من شعره للخليفة حتى يتذكره ، لانه استغنى بنفسه عني وعن غنائى ، فبيل ترانى أضطر غدا الى أن أقول له أذكرنى عند ربك ١٩ ٠٠

انما ابلت عظامي وحيثي  
حيها واللب تندي عجب



## مليون درهم عباسي

### ● اليوم الاول :

تذكرت اليوم أنني منذ سنوات دخلت وصديقي « الاصمعي » الى أمير المؤمنين هارون الرشيد فوجدناه متكدرًا لا ينشط لشيء من الغناء أو المنادمة، فظل الاصمعي يروي له نوادر الاعراب وأضاحيهم ، فلا ينشط ولا يذهب الكدر عن نفسه .. حتى خطرت لي أبيات من شعري ، فقامت بين يديه فأنشدت منها :

وأمرة بالبخل قلت لها اقصرى  
فذلكا شيء ما اليه سبيل  
وانى رايت البخل يزرى بأهله  
فاكرمت نفسى ان يقال بغيل  
فعالى فعال الكثيرين تجملا  
ومالى كها قد تعلمين قليلا  
وكيف اخاف الفقر او أحرم الفنى  
ورأى أمير المؤمنين جميل ؟؟

فرايت الرشيد يتنبه الى الابيات ، ويتحرك فى مجلسه ، ويضئ وجهه ، قلما أتممتها قال مبتسما :

— لا تخف ان شاء الله ! ..

ثم تفكر لحظة وقال وقد زايله كدره :

— لله در أبيات تأتينا بها يا اسحاق ! .. ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها ، وأقل فضولها ! ..

وأمر مسرورا الخادم بأن يحمل الى دارى خمسين ألف درهم ! ..

فلم أستطع أن أتكلم لما ورد على من الدهشة والسرور ، ولكنى رايت الاصمعي منزويا منكشبا ، قد بان الحسد فى وجهه ، لما ظفرت به من جائزة أمير المؤمنين ! ..

ثم نهض الرشيد ، وقد نشط ، وانقشع كدره ولم يلتفت الى الاصمعي . ولا أمر له بشيء ! ..

فلما صرنا خارج قصر الخليفة قال لى الاصمعى :  
- الآن علمت يا اسحاق انك أحذق منى بصيد الدراهم ! .. وقد كان  
أبوك كذلك ! ..  
قلت له :

- دع ذا عنك ، فما من شاعر ولا أديب ولا عالم ظفر من جوائز أمير  
المؤمنين بمثل ما ظفرت أنت به ! ..  
فلم يرتج لقولى ، وطفق يتوجع لخروجه من عند الخليفة صفر اليدين ،  
وخروجى أنا بخمسين ألف درهم ، وإن فى الاصمعى لحسدا عرفته فيه من  
قديم :

أردت تسليته فقلت له :  
- ألك فى سماع بيتين من الشعر استحسنتهما فأحببت أن أقف على  
رأيك فيهما ؟  
قال متفترّا متكسرا :  
هات ! ..  
فانشدته :

هل الى نظرة اليك سجيل  
يرو منها الصدى ويشفى الفيل  
ان ما قل منك يكثر عندي  
وكثير هن تحب القليل ! ..

فرايته قد اتسعت عيناه دهشة واعجابا ثم قال :  
- لله در هذا الشعر .. هذا والله هو الديباج الخشموانى الذى كان  
يلبسه أكاسرة الفرس .. هذا والله هو الوشى الاسكندراني الذى كان  
يلبسه ملوك الروم ! .. هذا هو الشعر المطبوع الذى من صفته كيت  
وكيت ! ..  
ثم سألنى بلهفة :

- لمن هذا الشعر ؟  
قلت :  
- انه لى ! ..

فتبينت الحسد فى وجهه ! .. وقال لى والكراعية فى كلامه :  
- أما ان صناعة الشعراء المحدثين فيه لمبينة جدا .. ولقد أفسدته  
يا اسحاق اذ جزمتم الفعل « يروى » فى البيت الاول لضرورة الشعر ،  
ولا يفعل هذا الشاعر الفعل ولا الشاعر المطلق المطبوع ! ..

قلت معايشا له

— فاني نظمت في هذا المعنى نفسه بيتين آخرين ليس فيهما ضرورة شعرية ، وان كان فحول الشعراء في الجاهلية والاسلام يحفل شعرهم بالضرورات الشعرية ، وانت به اعلم !

قال وقد نفذ صبره :

— هات ، واسرع ، فاني على موعد ! ..

فأتشدته :

أيها الظبي الفسيري  
هل لنا منك جبر  
ان ما نولتني منك  
وان قل .. كثير !

فقال لي وهو يهم بركوب دابته :

— لولا ان ذلك الموعد قد أزف ، لسمعت من شعرك ومن غنائك أيضا .. فاعذرني ! ..

ثم وثب على برذونه ، وركضه ، وأنا أضحك وأشيعه بالتحية والسلام والدعاء ، فانه شيخنا في الادب على كل حال ! ..

### ● اليوم الثاني :

بعد وفاة هارون الرشيد ، بقيت أياها حزينا عليه ، لا أنظم شعرا ولا أصنع لحنا .. حتى علمت أن حسادي سعوا بي عند الخليفة الجديد الشاب محمد الأمين الذي انهك في الفناء والشراب يعقب وفاة أبيه الرشيد — رحمه الله — وصار قصره كأنه سوق الرقيق لكثرة من فيه من الجوارى والغلمان ، وشجعته على ذلك والدته السيدة زبيدة فصارت من الحاكمة في الدولة ، وتفرغ ولدها الأمين للذاته !

ثم اني استأذنت في الدخول عليه هذه الليلة فأبطأ في الاذن لي ، حتى ظننت أنني أحجب عن لقاءه ، واذا به يطلبني ويلقاني غير متجهم ولا متغير ، كأنه مازال على عهده حين كنت أراه وهو ولي عهد صغير السن ! ..

قال لي

— ما أعددت من جديد يا اسحاق ؟

قلت :

— جعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين .. أتأذن لي في انشاد ما قلته قبك من شعر ، ثم في غنائه ..

قال



- أشدنى ثم غن ..

فأنشدته هذين البيتين ثم غنيتها

يا ايها القائم الامين قدت

نفسك نفسى بالمال والولد

يسطت للناس اذ وليتهم

يدنا من الجود فوق كل يد

فرايت الامين يهتز طربا ، ويستعيدنى ، ويستدنينى الى سريره حتى بان  
الحسد فى وجوه من حضر من المغنين . فلما آتمت اللحن ، وقف الامين  
فصاح :

- يا غلام .. أحمل الى دار اسحاق الف ألف درهم ..

نظرت فاذا الدهشة فى عيون الحاضرين جميعا من مغنين ورجال دولة ،  
واذا بى لست اقل منهم دهشة ، فما حدث قط أن امر لى خليفة بهذا المال  
.. وذكرت فى دهشتى ما كان أبى رحمه الله يحكيه لى عن كرم الخليفة  
الهادى عم خليفتنا هذا محمد الامين ، فقد أمر الهادى لابي ذات ليلة بمائة  
وخمسين ألف دينار ، تساوى أكثر من ألفى ألف درهم ..

انصرفت آخر الليل الى دارى ، وفى الصباح رأيت مائة من فراشى  
قصر الخليفة يحمل كل منهم بدرة تحوى عشرة الاف درهم ، ورأيت جيرانى  
يعدون الفراشين ويحسبون ما يحملون الى دارى من مال ! ..

### ● اليوم الثالث :

غضب على الخليفة محمد الامين ، لسبب لا أدريه فتشفعت اليه بالوزير  
الفضل بن الربيع ، وهو صديق محب لى ، فشدعه الامين ودعانى الى مجلسه  
صبيحة هذا اليوم ..

جلس الامين يصطبج ، وهو يحب شرب النبيذ والغناء اصطباحا ، ولكنى  
لا أحب ذلك ، الا انه لا بد لى منه ، ولو كان الامر بيدي ما شربت النبيذ  
فى الصباح أبدا ..

قلت لنفسى : هذا خليفة صغير السن ، محب للهو ، ضعيف الفكر ، قد  
استولى عليه هؤلاء الجالسون حوله يشربون أو يفتنون الاهزاج التافهة ،  
فان خالفتهم اتهمونى بالتكبر والتصنع فلا مناص من الدخول فيما دخلوا فيه  
من اللهو والهزل ، فلبست قباء وخفا أحمر ، واعتصبت بعصابة صفراء  
وشددت وسطى بشقة حرير حمراء ، ووقفت وفى يدي صفاقتان وأنا  
أتفتنى :

اسمع لصوت طرب

من صنعة الانبارى

## صوت ملج خليف

### يطير في الاوتار

فأعجب هذا الهذيان محمدا الامين ، وأمر أن يقتصر الغناء في ذلك الصباح على هذا الصوت ، وطلب الى سائر المغنين أن يسيكتوا .. فلما انفض المجلس أمر لي بثلاثمائة ألف درهم ! ..

وانما قلت في شعري هذا « صنعة الانبارى » لان الامين كان يسميني متفكها « بالانبارى » منذ دخلت عليه يوما وقد لثت عمامة على رأسي لوثا غير مستحسن ، فقال لي : يا اسحاق .. كان عمامتك من عمامات أهل الانبار ..



## منادمة المأمون

### ● اليوم الاول :

في أول النهار أقبل خادم من قصر الخليفة المأمون يقول لي : أجب أمير المؤمنين ! ..

فكرت ! .. ما هذه الدعوة في هذا الوقت المبكر !؟ ..

سألت الخادم ، فقال :

— ان أمير المؤمنين لم يزد على قوله لجماعة من خدمه كنت وإياهم في الخدمة منذ الفجر : أبلغوا اسحاق الموصلي يجرى الساعة ! ..

وما التفت أمير المؤمنين الى أحد منا ، ولا أمر شخصا بعينه ، فأسرع رئيسنا صاحب الخدمة في هذا اليوم فقال لي : انطلق ركضاً الى أبي محمد اسحاق الموصلي ، فأبلغه ما رسم به أمير المؤمنين أعزه الله ! ..

دخلت غرفة واسعة مزخرفة ، ملوكية المنظر ، كان أمير المؤمنين المأمون راقدًا على فراش في ركن منها ! ..

خفت أن يكون مريضاً ، فأنا أحب هذا الخليفة الذي أكرمني وعظم شأنى ، وجعلنى أدخل مجلسه مع العلماء والفقهاء والقضاة والشعراء والادباء ، لا مع المغنين فقط ، وقد لبث أبى رحمه الله ، ولبثت بعمره طوال عهد الرشيد والأمين لا ندخل الا مع المغنين ، فجاء المأمون فرفع منزلتى فوق أن أكون مغنياً لا بضاعة له الا الغناء كهذه الطبقة من المسترزين يخلوهم وأوتار عيدياتهم ! ..

استدنانى المأمون وهو مستلق على فراشه . حتى صارت ركبتي على الفراش ، ونظرت في وجهه فداخلنى سرور اذ وجدته في حال جميلة من العافية .. ونضرة النعيم .. وسلمت عليه ثم انتظرت ..

لكنه كان صامتا يفكر ، ثم تكلم وفاجأنى اذ قال :

— يا اسحاق .. اشكو اليك أصحابى ! .. صنعت لفلان كذا ، فلم يحفظ الصنيع ، وثبت عندى عقوقه ، وصنعت لفلان كذا وكذا ، فلم يكن أحسن من الاول ، وفعلت بفلان كذا ، ففعل كذا من التكرار لجحيل فعلى ! ..

وعدد الخليفة جماعة من خواصه وأقاربه ورجال دولته ، ورايت العبوس في وجهه ! ..

لم أعجل بالكلام بعد وقوفى على هذه الامور التى تحدث عنها الخليفة ،  
لما لى شأن فيها ، ولا قبل لى بمن ذكر من العلية والاشراف فيما استودعنى  
من خبرهم عنده ورأيه فيهم ، فقلت لنفسى : ان خليلنا هذا - وان كان  
لى محبا - يحلو له أن يختبر أخلاقى ومروعتى وكياستى وحفظى لحسن  
الصنيع .. فان رآنى أقع فى أعراض هؤلاء العظماء والكبراء ، وأذمهم  
وأنهشهم وأحرضه عليهم ، سقطت من عينه ، وأنصرفت نفسه عنى ، وثبت  
عنده سقوط مروعتى ، فكرهنى وأبعدنى عن مجلسه والزمنى بيتى ، فتبطل  
صناعتى ، ويجفونى الناس ، ويكون فى ذلك موتى ..

قال لى :

- أراك لا تتكلم يا اسحاق ! ..

فافتتح لى باب من الكلام أتخلص به ، فقلت :

- يا أمير المؤمنين .. انك بتفضلك على ، وحسن رأيك فى ، ظننت انى  
ممن يشاور فى مثل هذا ، فجاوزت بى حدى ، وهذا رأى يجبل عنى ولا  
يبلفه قدرى ! ..

قال المأمون :

- ولم ذلك يا اسحاق وأنت عندى عالم عاقل ناصح !؟ ..

قلت :

- هذه المنزلة لى عندك يا سيدى ، علمتنى الا أقول الا ما أعرف ، ولا  
أطلب الا ما أنال ! ..

فضحك المأمون وأضاء وجهه ، وصرف الكلام الى وجه آخر فقال :

- قد بلغنى يا اسحاق انك فى هذه الايام صنعت لحنا فى شعر لجيرير  
أو لفريمه الراعى ولم أسمعه منك ! ..

قلت :

- هو يا سيدى فى شعر للراعى ، وما سمعه أحد بعد الا جارية أو  
جاريثان عندى ، ولا حضرت عندك للمنادمة منذ صنعته ! ..

قال المأمون :

- فالان غنه فانك حضرت عندنا ! ..

قلت

- يا سيدى .. الهيبة والصحو يمتعانى أن أؤديه كما تريد ، فلو آنس  
أمير المؤمنين عبده بشئ يتطرب به ويتقوى طبعه ، كان أجود ! ..

فأمز المأمون بالقداء فتقدينا ، ومدت الستارة وغنت الجوارى من ورائها  
.. ثم قال لى : يا اسحاق أما جاء أوان ذلك الصوت !؟ .. فقلت : بلى  
يا سيدى ! .. ثم غنيته لحنى فى قول الشاعر الراعى :

## الم تسال بعاصمة الديار عن الحى المارق اين صار

### بل ساءلتها فابت جوابا وكيف تسائل اللحن التلار

فاستحسن المامون الصوت ، وتسلى به عما كان فيه من الهم والغم بمن  
عقه ولم يحفظ صنيعه من أشراف دولته . ثم قال لى :  
- يا اسحاق ! لا طلب بعد وجود البغية « بضم الباء وتسكين الفين »  
.. وما أبتغى اليوم من سماع ، الا صوتك هذا ! ..  
ثم أجزل صلتى وكسانى خلعة من ثيابه ، وملأ قلبى سرورا ! ..

### ● اليوم الثانى :

حضر الليلة عند أمير المؤمنين المأمون ، جماعة من المغنين ، جلست  
فيهم ، بعد انقضاء مجالس الفقهاء والعلماء والادباء عنده ، فانتقلت من  
مجلس العلم والادب الى مجلس هذه الطبقة من المغنين الذين تكثر اغلاطهم  
فى الغناء . وان كان فيهم بعض ذوى الاصوات الجميلة !  
لم اغن فى بداية هذا المجلس ، وكان آخر من غنى « علويه » ، فَمَا  
غناه لحن لابتى كان قد صنعه فى قول بشار بن برد :

لعبلة دار ما تكلمنا الدار  
تلوح مفانيها كما لاح أسطار

اسائل احجارا ونؤيا مهديا  
وكيف يرد القول نؤى واحجار

فطرب المأمون ، وقال لعلويه : أهذا اللحن من صنعتك ؟ ! .. قال : بل  
هو لابراهيم الموصلى ! ..  
فسألنى المأمون :

- ماذا رأيت يا اسحاق فى غناء علويه لصنعة أبيك ؟ ! ..  
قلت :

- رأيت قد اجتهد فى الاداء ، ولكنه أخطأ فى بعض أقسامه وأدواره ..  
قال المأمون :

- فغنه أنت يا اسحاق لترى كيف يصح أدائه ! ..

فغنيته اللحن كما صنعه أبى - رحمه الله - فاستناده المأمون مرارا ،  
وشرب عليه أقداحا ، ثم نظر الى معجبا وتمثل قول جرير :

وابن اللبسون اذا ما لق فى قرن  
لم يستطع صولة البزل القناعيس

يريد المأمون أن يشبه « علويه » بولد الناقة الصغير السن ، الضعيف الاحتمال ، ويشبهني وأبى بالقناعيس وهى الجبال الضخمة العظيمة القوة الكبيرة الاحمال ! ..

وهذا فى الحقيقة هو الرأى الثابت للمأمون فىنا - أبى وأنا - وانه لياخذ برأى فى كل ما يشتهيه عليه من لحن قديم أو جديد ، وان له فى الغناء للوقا مرهقا وعلما ..

وقد أمر لى بخمسين ألف درهم ، ولم يترك مغنيا ممن حضر الا أمر له بجائزة ، وفيهم علويه ، على غلظه فيما غنى ! ..

### ● اليوم الثالث :

جاءنى علويه بعد الفجر بقليل ، فعاتبنى وقال لى : « أنا تلميذ أبىك وتخريجك وتخريجك وكنت أرجو أن تسترني أمس فيما غلظت فى غنائه من ألحان أبىك رحمه الله فى شعر بشار .. ولكنك أبىت - على مالوف عادتك - الا التشدق بعلمك ، حتى فضحتنى عند أمير المؤمنين ، وكان يسمك أن تقضى عنى فى حضرته ثم تصحح لى الخطأ بعد أن تنصرف الى بيوتنا » ! ..

قلت لعلويه غير مبال بما يرمى به من التشدق بالعلم :

- انما أردت أن أدلك على الصواب ، فلا تقع فى الخطأ بعده ، وأردت أن يروى المغنون صنعة أبى على أصلها ، وقد رأيتنى أصلح لمخارق بعض ما يغنى من لحن الاقدمين أو من لحنى أو غيرها ، وان مخارقا ليملك من حسن الصوت ما لا يملكه أحد .. ولكن الصوت الحسن يشينه الخطأ فى الأداء ! ..

علويه كثير اللجاجة ، عرفته كذلك منذ كان يتعلم الصناعة على يد أبى رحمه الله ..

فما اقتنع بما قلت له ، ومضى يذكرنى بما صنعه لى عند المأمون بعد قتل أخيه الامين واعتلائه سرير الخلافة ..

قلت لعلويه : بل أذكر حسن صنيعك ولا أنساه .. فتركنى وانصرف وبه بقية غضب ! ..

ولقد أذكرنى والله من نسيان .. فان المأمون بعد أن دخل بغداد ، وكان أخوه قد خلع وقتل ، لبث عامين لا يسمع حرفا من الاغانى ، حتى تغنى بحضرته أبو عيسى ، وهو أخ من أخوة المأمون الذين أنجبهم الرشيد من جواريه الكثيرات ، وأبو عيسى هذا من أبناء الخلفاء الذين تكاثروا فى هذه الايام على صناعة الغناء يتعشقونها ويدعون العلم بها ..

ثم واطب المأمون على السماع متمسرا غير مستهتر ، تشبها بأبيه الرشيد فأقام كذلك أربع سنوات ، ثم ظهر الى الندماء والمغنين وجالسهم ونرب وطرب .. وسأل عنى وكنت لا أذهب اليه مع المغنين فطعنوا على وجرحونى

بحضرته ، وقال الطاعنون : « ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة ؟! » ٠٠ قال المأمون : « ما أبقى هذا من التيه شيئا إلا استعمله » ٠٠ ثم أمسك المأمون عن ذكرى ٠٠ فجفاني من كان يصلني لسوء رأي الخليفة الذي ظهر في أمري ، فاضر ذلك بي جدا ، حتى جاءني « علويه » يوما فقال : « أئاذن لي في ذكرك بمجلس المأمون فانا قد دعينا اليه اليوم ؟! » ٠٠ قلت : « لا ٠٠ ولكن غنه بهذا الشعر ، فانه يسألك عن صاحب اللحن فينتج لك الكلام عني » ٠٠ ثم أقيمت على علويه لحننا في شعر لي :

يا سرحة الماء قد سلت موارد  
أما اليك طريق غير مسدود  
لحائم حام حتى لا حيام له  
محلا عن طريق الماء مطرود

كنيت بسرحة الماء عن المرأة وكانت العرب تكني عن المرأة بالسرحة النابتة على الماء ٠٠ فأعجب الشعر واللحن الخليفة وقال لعلويه : لمن هذا اللحن الجيد في الكلام الجيد ؟! قال علويه : لعبد من عبيدك يا سيدي جفوته وأطرحته من غير جرم ، فقال المأمون : أسحاق تعنى ؟! ٠٠ قال نعم ! ٠٠ قال المأمون : يحضر الساعة ٠٠ فجأني رسوله ، فصرت اليه فلما رآني قال : أدن قدنوت فرفع يديه مادمها ، فأنكببت عليه واحتضنتني بيديه ، واطهسر من برى وأكرامى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لبره ! ٠٠

فهذه والله قصتي مع علويه حين جفاني المأمون في بداية خلافته ، لم أنسها ، ولا جحنت فضل علويه بل قمت بحقه حين أصلحت خطاه ، وليس في ذلك جرح له فان الخليفة يسألني أن أصلح أخطاء المفتين والمفتيات ، وصارت هذه عادة يعرفها هؤلاء ، فما ذنبي فيما حدث لعلويه في تلك الليلة حين أصلحت بعض ما أخطأ فيه من الحان أبي ؟! ٠

## الطفيلي الظريف

### ● اليوم الاول :

يومى هذا يوم عجيب ، امتد شهرا ، حتى ظن الامل والاصدقاء والخليفة وأصحاب السلطان ، انى ضللت فى الصحراء ، أو دخلت تنقا فى جبل ولم أخرج منه ..

غدوت منذ شهر وأنا ضجر من ملازمتى دار الخلافة والخدمة فيها ، فركبت فجرا ، وعزمت على أن أطوف الصحراء متفرجا ، وقلت لغلمانى : « ان جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه انى بكرت فى بعض مهماتى ، وانكم لاتعرفون أين توجهت » .. ثم مضيت وطففت فى الصحراء ما بدا لى ولم أعد الى بغداد الا وقد حمى النهار ، فرقفت فى شارع فُخين الظل ، ثم نزلت الى فناء رحب على الطريق استريح ، فجاء خادام يقود حمارا فارها لم أر أحسن منه فراهة ونشاطا ، عليه جارية راكبة ، تحتها منديل كبير من حرير ، وعليها من الملابس الفاخرة ما لا غاية بعده ! .. ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا قاترا ، وشماثل حسنة ، ومن طرف جوارى بغداد انهن يسرفن فى السفور عن وجوههن الجميلة ، فى حين تسرف الزوجات الحرائر فى حجب وجوههن ! ..

خمنت ان الجارية مغنية ، فانى أشم رائحة الفناء ، وأميز الجسارية المغنية من غيرها .. يكفى أن أتأمل شفيتها لكى أقول : هذه مغنية ، أو لا أقول ! .. ان الفناء يترك أثرا جميلا خاصا على الشفتين ! ..

دخلت الجارية الدار الكبيرة المظلة على الفناء ، وجاء شابان جميلان فاستاذنا فى الدخول فأسرعت قوقفت معها ودخلت ، فلظنا ان صاحب الدار دعانى ، وظن صاحب الدار انى معهما ..

جلسنا فى ايوان جميل ، وجيء بالطعام فاكلنا ، وبالشرب فوضع بين أيدينا ، ثم خرجت الجارية وفى يدها عود فغنت وشربنا على غنائها .

ثم قمت لحاجة ، فسأل صاحب الدار ضيفيه عنى فأخبراه انهما لا يعرفانى ! .. فقال لهما : هذا طفيل ، ولكنه ظريف ، فارجو أن تحسنوا عشرته ، فسمعت أحد الشابين يقول : والله ما يستحق هذا الطفيل أن نحسن عشرته ، ولابد من ضربه وطرده ، فلم يزل صاحب الدار وصاحبه يسترضيانه حتى هذا ..



عدت فجلست ، وغنت الجارية من الحانى :

ذكرتك ان مرت بنا ام شادن

امام المطايا تشرئب وتسنع

من المؤلفات الرمل اداء حرة

شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فسرني انها أدت لحنى هذا - وهو صعب - أداء صالحا ، وقد سمعت  
بعض كبار الفنانين اخذوه عنى وظنوا انهم حفظوه وأحكموه ، ويؤدونه أداء  
فاسدا يصك المسامع ! ..

وغنت أصواتا شتى ، حتى غنت لحنى الذى يقول العارفون الحذاق انه  
من أوابدى وبدائى .. وسمعت فيه من يقول : لو عاش معبد وهو من  
سادة القدماء فى التلحين لما شق غبار اسحاق فى هذا اللحن .. ذلك انه فى  
بيتين فقط من عشر كلمات ، وهما :

الطلول الدوارس

فارقتها الاوانس

أوحشت بعد اهلهما

فهى قفر بسابس

فاول بيت اربع كلمات ، بدأت بها نشيدا ، وتلوته بالبسيط ، وجعلت  
فيه صياحا الى ذروة الصوت ، ثم اسجحا وترجيحا للنغم واختلاسا فيه ..  
هذا كله فى هذه الكلمات الاربعة ، ثم صنعت فى البيت الثانى ما يوافق  
ما صنعت فى الاول .. فلما سمع العرفاء والحذاق هذا اللحن قالوا ماسمعنا  
ان أحدا من القدماء أو من المعاصرين استطاع أن يصنع مثل هذا أو يقدر على  
شئ منه ! ..

تبعيت أداء الجارية مشفقا عليها من خطأ تقع فيه ، أو عجز عن أداء لفظة  
صعبة ، ولكنها مرت فى اللحن ، فكان أمرها فيه أصلح من أمرها فى اللحن  
الاول ! ..

ثم غنت من شعرى وتلحينى :

قل لمن صد عاتبا

ونأى عنك جانبنا

قد بلغت الذى أردت

وان كنت لا عيبا

فكان أصلح ما غنته من الحانى ، فطربت وشربت عليه ، ثم بدا لى ان  
أرشدعا الى شئ فى هذا اللحن ، فرماني أحد النساء الضيفين بالنظر  
الشزر . وهو الشاب الذى كان يقترح ضربى وطردى . وقال لى بلهجة  
تبينت فيها حقه وسوء أدبه :

- ما رأيت طفيليا أصفق وجهها منك ! .. لم تقنع بالتطفيل حتى اقترحت  
وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ! ..

فاطرت ولم أجب ، وجعل صاحب الدار يكره عني ، حتى قاموا للصلاة .  
وتأخرت قليلا ، فأخذت عود الجارية وشددت طبقة وأصلحته أصلا  
محكما ، وقمت فصليت ! ..

فلما عدنا ، أخذ ذلك الشاب في عريدته على وأنا صامت .. ثم أخنت  
الجارية العود فجسته وقالت :

- من مس عودي ؟ ! ..

قالوا :

- ما مسه أحد منا ! ..

قالت :

- بلى والله لقد مسه حاذق متقدم وشد طبقة وأصلحه أصلا متمكن  
من صناعته ! ..

فقلت لها :

- أنا أصلحته ! ..

دهشت الجارية ثم قالت لي :

- فبالله خذه واضرب به ! ..

فضربت به ضربا طريفا عجيبا صعبا ، فلما بقي أحد منهم الا وثب على  
قدميه وجلس بين يدي ، حتى ذلك الشاب الذي اقترح طردى وأكثر من  
التهجم على والانتكار لحالي ! ..

وقال لي صاحب الدار :

- يا سيدي أتقنى ؟ ! ..

- نعم .. وأعرفكم بنفسى .. أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلي .. والله  
اني لانيه على الخليفة اذا طلبني ، وأنتم تقولون لي ما أكره منذ اليوم لاني  
تملحت معكم .. والله لانطقت حرفا ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا  
الشاب المعربد المقيت الفث ! ..

فقال له صاحبه : من هذا حذرت عليك ، وانك لتجتريء على من لاتعرف ،  
فأخذ الشاب يعتذر لي ، فرأيت أن أزداد تملحا معهم وظرفا ، بأن أقبل  
عذره ففعلت ، وبدأت فغنيت الاصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ، وهي  
تسمعن وتزداد لها حفظا وتحكما حرفا حرفا .. فاطرني منها ذلك كما  
اطرني غناؤها وجمال وجهها وحلاوة شمائلها ! ..

ثم قال لي صاحب الدار :

- يا سيدي .. هل لك في خصلة ؟

— ما هي ؟ ! ٠٠

— تقيم عندي شهرا ، والجارية لك ! ٠٠

فاقمت عنده ثلاثين يوما ، لا يدري أحد من أهلي وأصدقائي ، ولا يدري الخليفة المأمون أين أنا ٠٠ وسمعت من الرجل — وكان يخرج أحيانا من بيته ثم يعود — ان المأمون أطلق مناديا يطلبني في كل موضع فلا يعرف لي خبرا وقد ظن اني هلكت وحيره أمرى ، وحيّر الناس في بغداد ! ٠٠

فلما كان اليوم الاخير أخذت الجارية فجئت منزلى ، وتلقاني أهلي كأنى قادم من العالم الآخر .

وركبت الى أمير المؤمنين من وقتى ، فلما رآنى قال بصوت فيه لهفة :

— اسحاق ؟ ! ٠٠ ويحك ! ٠٠ أين تكون ؟ ! ٠٠ كدنا والله نياس من عودتك ، وقلنا ابتلعت الصحراء .

فاخبرت أمير المؤمنين بالقصة ، فأمر باحضار الرجل الذى حللت عليه خيفا طيلة الايام الثلاثين وأخذت منه الجارية ، وقال له المأمون .

— أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن تعان عليها ! ٠٠

وأمر له بمائة ألف درهم ! ٠٠

ثم قال لى المأمون متبسطا ضاحكا :

— احضرني هذه الجارية يا اسحاق ، فقد وجب أن نسمع منها ما سمعت ، لنعرف فضلها في الغناء الذى اعترفت لها به ، وقلما رأيتك تعترف لمغن ولا مغنية بفضل في الغناء ! ٠٠

فلما سمع المأمون الجارية طرب وشرب ، وأمر لى بجائزة ، ولها بخمسين ألف درهم ٠٠ ثم قال لى :

— قد جعلت لها نوبة فى كل يوم ثلاثاء تغنيني وراء السمستارة مع الجوارى ! ٠٠

فربحت والله بتلك الرحلة فى الصحراء ، وأربحت ! ٠٠ وفزت بجارية مغنية ، ما فى العراق كله مثلهما ، ولا سمعت من حلق مغن ولا مغنية لحفا لى يؤدى على وجهه ، الا منها ٠٠

### ● اليوم الثانى :

قال لى المأمون اليوم : حدثنى عن ليلة دخلت فيها على الرشيد رحمه الله وبين يديه جواريه : سحر وضياء وخنث ! ٠٠

فقلت للمأمون :

يا أمير المؤمنين اننى لم أرهن بين يديه مجتمعات ، ولكنى أحدثك بخبرهن ! ٠٠ فان الرشيد رحمه الله أرسل الى ذات ليلة قد دخلت عليه فاذا

به جالس وبين يديه جارية عليها قميص وردى وسراويل وردية كأنهما  
ياقوتة على وردة ، فلما رآني قال لي : اجلس وغن ! ٠٠

فغنيت لحنا في قول الشاعر :

تشكى الكميت الجرى لما جهده

وبين لو يستطيع أن يتكلما

فطرب وقال لي : لمن هذا اللحن ؟! ٠٠

قلت : لي يا أمير المؤمنين ، فقال : ان لابن سريج في هذا الشعر لحنا فهاته  
٠٠ فغنيت اياه فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسقاني ٠٠ ثم قال :  
غن ! ٠٠ فغنيت :

هاج شوقي بعنما شيب

(( م )) اصداغى بروق

موهنسا والبروق هما

ذا الهوى قدما يشوق

فقال : لمن هذا اللحن ؟! ٠٠ قلت : لي ٠٠ قال : قد كنت سمعت فيه  
منك لحنا آخر. ٠٠ قلت : نعم ٠٠ لحن ابن منسرز ٠٠ قال : هاته ا  
فغنيت فطرب وشرب رطلا وسقى الجارية وسقاني ، ثم قال غن ! ٠٠  
فغنيت :

افاطم مهلا بعض هذا التدل

وان كنت قد ازمعت هجرى لاجمل

فقال لي : ليس هذا اللحن أريد في هذا الشعر ، ولكن أريد لحن ابن سريج  
فيه ، فغنيت اياه وشرب وشربت وشربت الجارية ٠٠  
ثم قال وقد تملكته نشوة :

- حدثني ! ٠٠

فجعلت أحدثه بأخبار العرب وأيامهم ، ثم بأحاديث المغنيات والمغنين ،  
وأنشده أشعار القدماء والمحدثين ٠٠ حتى أقبل وزيره الفضل بن الربيع  
فكانما اعتقني فقد كنت تعبت من الغناء والكلام ، فحدثه الفضل عن ثلاث  
جوار حسان ظريفات أدبيات ، وكأنه يحرضه على طلبهن منه ، ففعل الرشيد  
وقال له :

- هل تسخو نفسك بهن ؟! ٠٠

فانتزها الفضل بن الربيع فرصة وقال :

- والله يا أمير المؤمنين اني لاسخو بهن وبنفسي ، فيها فداك الله  
تعالى ! ٠٠

فعبجت لمعرفة الفضل بن الربيع من أين يأكل كتف أمير المؤمنين ، ولا

عجب ، فهو الذى أغراه ودبر له نكبة البرامكة .. وكان لا يفتأ يحىء اليه  
بما يسره من الجوارى ومتاع الدنيا منذ تلك النكبة ! ..  
ثم قلت للمأمون :

— فؤلاء الجوارى — يا أمير المؤمنين — هن : سحر وضياء وخنث وأجملهن  
سحر ، فانها ساحرة كاسمها .. وفيهن يقول الرشيد :

**ان سحرنا وضياء وخنث**  
**هن سحر وضياء وخنث**

**أخلت سحر ولا ذنب لها**  
**ثلثى قلبى ، وترباها الثلث**

فكان لسحر ثلثا قلب الرشيد .. ولزمتيها الثلث الباقي ! ..  
فضحك المأمون ، وقال لى : هل غنيت شيئا فى هذين البيتين ؟  
قلت :

— رأيت أمير المؤمنين الرشيد يفار عليهن فجاوزتهن الى غيرهن من ذوات  
السحر والضياء والخنث .. وصنعت فيهن ما شئت من الألحان ! ..  
فاشبهت ضحك المأمون وأمر لى بجائزة سنوية ! .. وكان فى تلك الليلة  
يتفكه بكلامى ولا ينكر ما يسمع عن أبيه ! ..

وَنَنِي عَمَلِكُ جَانِبَا  
وَأَنَا كُنْتُ لَأَعْبَا

قَالَ لِمَنْ صَدَعَاتِيَا  
قَدْ بَلَغْتَ الزِّيَارَتِيَا



## مكائد المغنين

### ● اليوم الاول :

أشعر أن بصرى يضعف يوما بعد يوم ، وأعالجه فلا يقسوى ، ولا يرد عنه العرج ما يعنويه من ضعف مستمر .. وقد سألت الطبيب : أياكون هذا من أثر صربة عنيفه على راسي بقضيب من الحديد نالني بها في صباى بعض الناس ؟! .. فأجاب : نعم صدقت ، وقد لطف الله بك ، فعمشت ما سلف من عورك مبصرا ، وستعيش مبصرا ان شاء الله ولو عمرت مائة عام ! ..

أنا الان فى الخامسة والسبعين من عمرى ، ولا ينقص عيشى الا ما أحدثه الدهر فى بصرى ، وأخشى يوما يقول فيه الناس : قد صار اسحق الموصلي ضريرا ! ..

دعانى الامير الواصل الى عهد الخليفة المعتصم الى لقائه فى مدينة دسر من رأى « مقر الخلافة الجديد ، ومعسكر جيش الخليفة فانحدرت اليها من بغداد فى سفينة من سفن دجلة .. فلما قاربنا شاطئ دسر من رأى تناهت الى اسماعنا ضجة هائلة لم نتبين حقيقتها الا حين ألقت السفينة مراسيها على الشاطئ ! ..

رأيت المعتصم يخرج من المدينة بجيش عظيم ، وقيل لى انه خارج لحرب الروم ، لانهم أسروا امرأة عربية يقال انها هاشمية فصاحت وهى تتخبط بين أيديهم « وامعتصماه ! .. » .. فبلغته القصة فخرج على حمية وغضب ليقاتل الروم ويحمى أعراض العرب والمسلمين .

دخلت قصر الخلافة ، والوائق ينوب فيه عن أبيه ، ولكنه لا يبالى بالحرب التى خرج اليها أبوه الخليفة المناقل الذى اعتاد الخروج الى الحرب والعودة منها ظافرا ..

ووافق دخولى القصر ، جلوس الواصل للصبوح ، فرأيتة يجلس وسط المغنين ، لا فوق سريره مختلطا بهم كأنه واحد منهم فى حلقة واحدة .. وقال لى :

— يا اسحق .. خذ عودا وغن ! ..

فتعللت بوجع عينى ولم أغن ، فقال لى وللمغنين ..

— أنا أغنى اذن .. ثم يغنى كل منكم بعدى فى دوره ! ..

غنى الوراق فأجاد ، ثم أخذ أصحابنا يغنون كل فى دوره ، حتى جاء دورى ، فأعذرت بوجع عيني ، فقال الوراق :

— اعود اذن فأغنى ، ثم يغنى كل منكم ! ..

فغنى الوراق ، وغنى المخنون ، حتى جاءت نوبتى فى الغناء فأعذرت ، فصاح الوراق :

— ياخوزى يا كلب ! .. أتواضع لك وأغنى ، وترتفع عني !؟ .. أترى لو انى قتلتك كان المعتصم يقتلنى بك !؟ ..

ثم أمر بضربى ثلاثين مفرقة ، وحلف الا يغنى أحد غيرى سائر ذلك اليوم .. فما زلت أغنى — عقابا لى — حتى انقضى اليوم وانصرفت بلا جائزة ! ..

### ● اليوم الثانى :

مات المعتصم ، وتولى الوراق الخلافة ، وكنت مع الواقفين بين يديه من المغنين والشعراء فى أول مجالسه التى جلسها بعد ولايته الخلافة ، فأنشده الشعراء ، وغنى المغنون ، وقال الحضور فى تهنئته كلاما كثيرا .

ثم خرج الناس ، وبقيت عنده مع بعض خواصه ، فقال لى :

— ويحك يا اسحاق .. أما اشتقت الينا ، فقد انقضت سنوات منذ ضربتك ثلاثين مفرقة ، لم نرك ولم نسمع غناك ، كأنك خاصمتنا منذ يومئذ ! ..

فقلت :

— بلى والله يا أمير المؤمنين ، قد برانى الشوق اليكم ، وقد قلت فى ذلك أبيتا ! ..

فتهلل وجهه وقال

— هاتبا يا أبا محمد ..

فأنشدته :

اشكو الى الله بعدى عن خليفته

وما أقاسيه من هم ومن كبر

لا استطيع رحيلا ان هممت به

يوما اليه ولا أقوى على السفر

انوى الرحيل اليه ثم يمننى

ماأحدث أئدهر فى جسمى وفى بصرى

ثم غنيته لحنا جديدا من الحانى فأستعاده ليلة كاملة لا يشرب على غيره .. ووصلنى بثلاثمائة ألف درهم ، فأسعدتنى صلته هذه التى لم يكن جده هارون الرشيد يصلنى بمثلها مع أن الدولة فى عهده كانت تسبح فى بحر



من الذهب والفضة ، وليست الحال الآن كذلك ، وليس فى بيت مال الدولة  
ولا فى بيت مال الخليفة الخاص الا الشيء اليسير !

### ● اليوم الثالث :

دخلت دار الوراق ، فسمعت صوت عود وترنا ، فلما بلغت مجلس  
الوراق قال لى : « اى شىء سمعت الآن يا اسحاق !؟ » .. قلت : « سمعت  
يا أمير المؤمنين ما لم أسمع مثله قط حسنا واطرابا » ! .. فضحك فقال :  
« انما هذا فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل ، وكثر فى مكة والمدينة ! ..  
أتحب أن تسمعه منى !؟ » .. قلت : « اى الذى شرفنى بخطابك وجميل  
رايك » .. « يا غلام هات العود ، وضرب الوراق وغنى فى شعر لابی العتاهية  
يلحن صنعه فيه :

اضححت قبورهم من بعد عزهم

تسقى عليها الصبا والعرجف الشمل

لا يدفعون هواما عن وجوههم

كانهم خشب بالقاع منجسد

فلما أتته فمت فدعوت له دعاء طويلا ، حتى اجلسنى وقال : « أتشتهى  
ان تسمعه ثانية !؟ » .. فقلت : « اى والله .. فهذا هو الغناء الذى  
يلامس القلوب » .. فغنائيه .. فقممت فدعوت له .. فغنائيه ثالثة ! ..

ثم صاح ببعض خدمه « احملوا الى اسحاق ثلاثمائة ألف درهم » !  
وقال لى : « يا اسحاق .. قد سمعت ثلاثة أصوات ، وأخذت ثلاثمائة ألف  
درهم ، فانصرف الى أهلك مسرورا » ! ..

### ● اليوم الرابع :

صار الوراق جيد التلحين والغناء وضرب العود ، وليس فى المغنين  
ولا الضاربين أحسن منه ولا أعلم بهذه الصناعة ، وهو شديد الثقة بعلمي ،  
فلا يصنع لحنا الا سألنى عن رأى فيه .. وله فى ذلك طريقة لا تتغير ، فانه  
يقول لى : « قد وقع الينا صوت قديم من بعض العجائز ما سمعه أحد » ..  
ثم يأمر من غلمان القصر المغنين من يغنيئى اياه فى حضرته .. فان كان  
لحنا جيدا قرظته ووصفته واستحسنته ، والا ذكرت ما فيه من خطأ ، فان كان  
للوراق هوى فى هذا اللحن سألنى تقويمه واصلاح فساده ! ..

وهو لا يغير طريقته الساذجة هذه فى عرض ألحانه ، كأنه لا يعلم ان أقل  
الناس فطنة لا تفوته هذه اللعبة ! ..

وقد صنع لحنا فى هذا الشعر :

هل تعلمين وراء الحب منزلة

تدنى اليك فان الحب اقصانى

هذا كتاب فتى طالت بليته  
يقول يا مشتكى بشى واحزانى

كما صنع فى شعر ذى الرمة :

خليل عوجا من صدور الرواحل  
بجرعاء حزوى وأبكيا فى المنازل

لعل انحدار اللمع يعقب راحة  
من الوجد أو يشفى نجي البلابل

ولى فى شعر ذى الرمة هذا لحن مشهور يحفظه الوراق ، فلما صنع لحنه  
هذا فيه أسعنيه وسألنى رأيت فقلت :

- يا أمير المؤمنين ان لحنك هذا الرائع قد أرانى قبح لحنى وسماجته ..  
ووالله لقد اقتصصت منى وزدت يا أمير المؤمنين بما جئت به فى لحنك من  
بديع الصنعة ! ..

فأمر لى بمائة ألف درهم ، ثم قال لى :

- يا إسحاق .. يعجبنا لحنك :

لقد بخلت حتى لو انى سألته  
قلدى العين من سافى التراب لفنت

فهبلا أقمت عندنا فطارحت به هؤلاء الغلمان المغنين فى القصر ، حتى  
يأخذوه عنك ويتقنوه ، فاذا اشتبهناهم أمرنا منهم من يغبينا به ! ..

فمكثت فى القصر أياما أطارحهم اللحن ، ولا أحد من هؤلاء المغنين يقدر  
أن يأخذه ، فضلا عن أن يحكمه ويتقنه ، فقلت للوراق : يا أمير المؤمنين ..  
أخرج لى الجارية « شجا » فستاخذ اللحن وتحكمه .. فأمر فأخرجوها  
وطارحتها اللحن حتى أحكمته وغنته الوراق فطرب ، وأمر لى بمائة ألف  
درهم ..

ان « شجا » هى إحدى ربيباتى وتلميذاتى .. اشتريتها صغيرة ، وثقتها  
ودربتها على الغناء وضرب العود حتى تخرجت وبرعت ، فأهديتها للوراق  
وصارت من مغنيات قصره ، ولكن جاريته « فريدة » حظيت عنده وتفوقت  
بجمالها وصوتها النادر ، وكان عمرو بن بانة قد أهداها اليه بعد أن أهديت  
اليه « شجا » ..

### ● اليوم الخامس :

لم أكد أعود الى بغداد حتى قال لى حاكم بغداد : « أن أمير المؤمنين  
أمرنى بأشخاصك اليه فى سامرا » ! ..

وفى « سامرا » عرفت سبب استدعائى ، فقد صنع الوراق لحنًا فى :  
« لقد بخلت حتى لو انى سألته » .. وأراد أن يعرف رأيت فيه ! ..

لقيت عنده المطرب مخارقا ، فأمره بغناء اللحن ، ثم سألني رأيي فقلت :  
هنا غناء فاسد لا أرضاه ، فغضب الوراق وأخرجني من مجلسه ! ..

فلما كان من الغد أرسل من يحضرني إليه ، فראيت في مجلسه « فريدة »  
.. لا أحد معه غيرها ، فغنت لحنه هذا فقلت : « هذا لحن صحيح  
الصنعة والقسم والتجزة وما هكذا سمعته أمس من مخارق » .. ثم أخبرت  
الوراق عن مواضع فساد اللحن كما غناه مخارق ، ففهم ولم يكن قد تبينه في  
غناء مخارق ، ثم غنت فريدة عدة الحان أخرى من التديم والحديث ، وقلت  
رأيي في جميعها مدحا أو طعنا ، فأجازني الوراق ورضي عني ! ..

خرجت من التصرف فتبعني خادم للوراق ممن أثق بهم ، فقال لي : « الحمد  
لله الذي نصرك على مخارق عند أمير المؤمنين ، فانه هو الذي كادك عنده  
وقال له ان اسحاق الموصلي شيطان خبيث داعية يقول بحضرتك في الحانك  
ما يرضيك فاذا خرج عن حضرتك قال لنا ضد ذلك » ..

ثم قال لي الخادم : « ان مخارقا قال لامير المؤمنين : انا اقيم لك الدليل  
على خبث اسحاق ، فأغنيه لحنك الجديد ، ولا يقال له لمن هذا اللحن وسترى  
كيف يقول فيه ! » .

« فلما حضرت يا أبا محمد غنى مخارق اللحن فزاد فيه زوائد كثيرة  
أفسدته فقلت أنت رأيك الحق فيه ، وأغضبت أمير المؤمنين ، فلما انصرف  
مخارق قالت فريدة لامير المؤمنين : « ان اسحاق الموصلي يأخذ نفسه بقول  
الحق في صناعته على كل حال ساءته أو سرتة لا يخاف في ذلك ضررا ولا  
يرجو نفعاً ، وقد كاده مخارق عندك فزاد في صدر الصوت فأفسده متعمدا  
ليطعن اسحاق فيه فتغضب عليه .. وأنا أعرضه على اسحاق كما صنعت  
أنت يا أمير المؤمنين ، وسترى رأيه فيه » ! ..

هكذا كادني مخارق الذي كان خادما مغمورا فأخذه أبي رحمه الله فعلمه  
وهذبه وقدمه للرشيد .

ولولا « فريدة » التي لا فضل لي عليها ، لبلغ مخارق بمكيدته ما كان  
يرجو من اقصائي عن مجلس الخليفة ! .. فقد ساءه حب الوراق لي ،  
وما يغمرني به من الجوائز حتى زاد بره بي على كل بر أو اكرام شملني  
في عهد الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ! .

## راحة الأرواح

### ● اليوم الاول :

دخلت على أمير المؤمنين الوراق ، فقال لي : يا اسحاق .. أراني الليلة ثقيل المزاج ، غير مرتاح ولا نشيط لسماع شعر ولا غناء .. وقد كانت عندي منذ قليل جاريتك « شجا » التي كنت أهديتها اليها منذ مدة ، وكانت عندي أيضا « فريدة » الجارية التي أهداها اليها عمرو بن بانة .. كلناهما مطربة بارعة راوية للغناء قديمه وجديده ، فقننا أحسن غناء ، فلم أطرب ، فقلت لهما : قوما عنى فليست الساعة نشيطا لسماعكما ، وسيجيء اسحاق الموصلي فلعله يجد لي مخرجا مما أنا فيه من ثقل المزاج ، حتى حضرت يا اسحاق ، فلعلي أجد عندك شيئا ! ..

أخذت أتحدث الى أمير المؤمنين وأروى له الذرادر والاضاحيك ، وأقص عليه من أخبار جده الرشيد وعمه المأمون وأبيه المعتصم ، حتى رأيته يتحرك في فراشه وكان مضطجعا ، فعرفت انه تسلى بما سمع وقارب النشاط .. فأمسكت العود ، فغنيت هذا اللحن في هذين البيتين من شعري :

يا سرحة الماء قد سدت موارده  
أما اليك طريق غير مسدود  
لحائم حام حتى لا حيسام له  
مطلأ عن طريق الماء مطرود

فانتفض طربا ، واستعاد اللحن مرارا ، ثم قال لي :

— هذا والله يا أبا محمد هو الغناء الذي يخالط النفس ، ويمزج اللحم والدم ، ويضئ وجه الدنيا ! .. هذا والله راحة الأرواح ! ..

من عادة الوراق اذا أعجبه منى غناء ، ان يناديني بكنيتي : « يا أبا محمد » فأخبرته ان عمه المأمون أيضا كان من عادته أن يخاطبني بكنيتي هذه اذا أعجبه منى شيء ولم يكن يخاطب من المغنين أحدا سوى الأبا سمي ، ولم اسمعه قط يخاطبهم إلا بأسمائهم ! ..

والوراق يشبه أحيانا بالمأمون ، حتى انه يميل الى مذعب المعتزلة ، وقد رأيت عنده مرة القاضى أحمد بن أبى دؤاد يناظر امام أهل السنة أحمد بن حنبل ، فاشتد ابن حنبل فى المناظرة فاقحم ابن أبى دؤاد ، وحكم له الوراق بالظفر ، ولكن الوراق بقى يميل الى المعتزلة وان لم يقال فى مطاردة علماء

أهل السنة كما فعل عمه المأمون وأبوه المعتصم ..  
قال لي الوراق :

– اليس لك اهتمام ولا نظر في مذاهب المعتزلة والسنة وغيرهم  
يا أبا محمد !؟ ..

فكتمت أمري عنه ، لاني لا أقول بالاعتزال ولا آراء مذهبا لي ، وإنما أنا  
رجل من أهل السنة ، وقلت له :

– يا أمير المؤمنين شغلني الغناء عن طلب العلم ! ..  
قال كأنه ينكر قولي :

– فأنهم يروون أن عمي المأمون كان يقول عنك : لولا أن اسحاق قد اشتهر  
بالغناء لو كئيت القضاء لعله وفضله وعفافه .. فأين علمك الآن ؟  
قلت :

– كان ذلك يا أمير المؤمنين إذ أنا شاب ، أما الآن فقد شغلتنى هذه  
الصناعة :

ضحك الوراق ، ونشط للحديث وسألني :

– قد كان من لا أذكر من الناس ، روى لي قصة عن لحنك هذا الذي غنيت  
الآن ، وقعت لك مع عمي أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، فكيف كانت ؟  
قلت :

– يا أمير المؤمنين .. جفاني أمير المؤمنين المأمون رحمه الله بعد قدومه  
من خراسان الى بغداد وذلك بعقب حربه للامين ، فصنعت هذين البيتين  
واللحن الذي سمعته فيهما ، وطارحت به علويه الاعسر فغناهما في مجلس  
المأمون ، فلما علم أن الشعر واللحن لي ، استدعاني ورضى عني واتصلت  
بخدمتي له ، وأكرمني ورفع قدرى ! ..

قال الوراق ، وهو بي كمادته شديده الاعجاب :

– والله .. لو لم يكن لك من الشعر الا هذان البيتان لكنت بهما شاعرا  
.. ولو لم يكن لك الا هذا اللحن فيهما ، لكنت به من أئمة الملحنين ! ..

### ❶ اليوم الثاني :

في سهرة الليلة عند الوراق غنت جاريته « قريدة » لحنا لي في قولي :

**لاسماء رسم عفا باللوى**

**اقام وهينا لطول البلى**

فبلغت هذه الجارية بالخليفة وبى غاية الطرب .. ولقد سهدمت أبرع  
المغنيات في قصور الخلفاء والامراء والوزراء من أيام الرشيد الى أيام الامين

فالمأمون فالمعتصم حتى أيام الواثق ، فما أظن انى سمعت مغنية أحسن منها  
غناء .. وان الواثق لعدى حق فى هيامه بها ! ..

قال لى الواثق معجبا :

— يا أبا محمد .. لك در هذا اللحن ، ما أجمله وما أكمله : وما أوثق  
أقسامه وأوزانه .. وما أعرف لك لحنا الا وقد اكتسى من حسن الصنعة أبهى  
الحلل فبحياتى .. غننى لحنك :

**الطلول الدوارس**

**فارقتها الاوانس**

**أوحشت بعد أهلها**

**فهى قفر بسابس**

فغنيت اللحن ، وكان قد حضر مخارق وعلويه ، كما حضرت « شجبا »  
الجارية التى أهديتها لأمير المؤمنين ..

فقال الواثق لمخارق وعلويه :

— عمل تحسان غناء هذا اللحن !؟ ..

قالا

— اسحاق لا يرضى بأن يطارحنا اياه حتى نحفظه ، لانه شديد الضن به ..

قال :

— فان « شجبا » تحفظه ، ولم يضمن به عليها ..

ثم أمرها فغنته ، فكاد الخليفة يخرج من ثيابه طربا ، وقال لى :

— يا أبا محمد .. والله لو عاش ابن سريج ومعبد وابن محرز وابن  
عائشة ما شقوا غبارك فى هذا اللحن الفائق العجيب ! ..

ثم التفت الى مخارق وعلويه وسألها :

— ماذا رأيتما فى هذا اللحن !؟ ..

قالا :

— انه جيد يا أمير المؤمنين .

فغضب حتى تهدج صوته وهو يقول لهما :

— ليس عندكما فيه الا هذه الكلمة التى لا تفى بأدنى حقه !؟ .. انكما  
أحمقان لا تعرفان شيئا ! ..

ثم قال لى وقد هدأ وسرت فى صوته رنة اعجاب واعزاز :

— أول بيت فى لحنك هذا أربع كلمات فقط : « الطلول » كلمة ..  
و « الدوارس » كلمة .. و « فارقتها » كلمة .. و « الاوانس » كلمة .. فما

تركت والله يا اسحاق شيئا من الصنعة يتصرف فيه المفتي الا ادخلته في هذه الكلمات الاربعة ! .. بدأت تشيدا ، ثم تلوته باليسيط وجعلت فيه صياح جواب ، واسجاج قرار ، وترجيحا للنغم ظاهرا ثم اختلاسا فيها .. وكل هذا في اربع كلمات ! .. فمن يقدر على هذا الامر العظيم ؟ ! .. وهل صنع أحد تقدم أو تأخر مثل هذا قط ! ..

فخجل مخارق وقال :

- صدق أمير المؤمنين .. قد لحق اسحاق الاقدمين ، وسبق الاحداث !  
أما علويه فلزم الصمت ، وان فيه لحسدا ، وفيه لجابة ومكابرة !

### ● اليوم الثالث :

ضجرت من ملازمة دار الخلافة والغناء فيها كل ليلة ، وقد كبرت وملئت هذا العيش ، فخرجت في بكرة النهار أطوف بالصحراء وانفرج ، ثم عدت وقد حمى النهار حتى بلغت فناء قصر ظليل على الطريق ، فوقفت استريح ، فرأيت شابين يدخلان الدار فدخلت معهما ، فظنا ان صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار اني معهما .. وخرجت الينا جارية ففنت هذا اللحن من الحاني :

ذكرتك ان مرت بنا ام شادن

امام المطايا تشرب وتسنع

من المؤلفات الرمل ادماء حرة

شعاع الضحى في منها يتوضع

فأدته اداء صالحا ، ثم غنت أصواتا شتى مما لحنته أنا أو غيري ، حتى طلب منها الحاضرون أن تغني لحنى :

قل لمن صد عاتبا

ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذي أردت

وان كنت لاعبا

فاستعدته منها لاصححه لها ، فهمس صاحب المنزل الى الرجلين اللذين دخلت معهما يسألتهما من أكون فأخبراه انهما لا يعرفاني ، ثم قال أحدهما الرجلين : لا بد انه طفيل ، ولو عرفنا انه كذلك ما أدخلناه معنا ، ثم أقبل هذا الرجل على فقال لي :

- يا هذا .. ما رأيت طفيليا أصفق وجهها منك ! .. لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : « طفيلي مقترح » ، فأطرقت حياء ولم أجب الرجل بشيء ، وجعل صاحبه يكفه عنى فلا يكف ! ..

فلما نودي لصلاة العصر قاموا للصلاة ، وتأخرت عنهم قليلا فأخذت عود الجازية - وكانت قد انصرفت حتى يفرغوا من الصلاة - فشددت طبقة

وأصلحته اصلاحا محكما .. ثم قمت فصليت ..

فلما عدنا ، عادت الجارية فأخذت العود فجسسته فأنكرت حاله ، فقالت :  
من مس عودي ؟ قالوا ما مسه أحد .

قالت : بلى والله .. لقد مسه حاذق خبير ، وشده طبيقته ، وأصلحه اصلاح  
متمكن من صناعته ! ..

فقلت للجارية : أنا أصلحته ! ..

فدهشت وقالت : فبالله خذه واضرب به ! ..

فأخذته وضربت به ضربا صحيحا ظريفا عجيبا صعبا ، فما بقي أحد منهم  
الا وثب فجلس بين يدي .. وقالت الجارية : بالله يا سيدي اتغنى ؟ ..

قلت : نعم .. وأعرفكم نفسى . أنا اسحاق بن ابراهيم الموصلى ! ..  
والله اننى لآتيه على الخليفة اذا طلبنى وانتم تخاطبوننى بما أكره منذ اليوم  
لاننى تبسطلت وتملحت معكم ! ..

فاعتذروا لى أشد الاعتذار ، حتى أوشكوا أن يبكوا ، وقامت الجارية ،  
فقبلت رأسى وقالت :

— يا سيدي .. والله لو عرفناك لرأيت منا أحسن ما تحب ممن يعرفون  
عظيم قدرك حق المعرفة ! ..

فغنيتهم الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، لتعرفها على وجهها  
الصحيح ، وأردت بذلك منفعتها ، فكانت تسمعنى وتبكي طربا وفرحا بما  
تهبأ لها من سماعى ، ولم تكن تحلم بذلك ولا خطر فى بالها قط ، والمنا  
كانت تحفظ الحانى ممن يروونها صوابا أو خطأ ..

أقمت عندهم أياما على أحسن حال ، وصاحب الدار يقوم بخدمتى أعظم قيام  
ولو استطاعت الجارية أن تطعمنى من لحم جسدها لفعلت اعظاما لى وسعادة  
بما بلغته من سماع الحانى من فمى لا من أفواه الرواة ! ..

فلما انقضت أيامى عندهم ، ركبى الى الخليفة ، فلما رآنى قال : ويحك !  
.. أين كنت ؟ .. فأخبرته ! .. فأستدعى الرجل الذى حللت عليه ضيفا  
وأجازه بمائة ألف درهم ! ..

أما الجارية فأمر لها بخمسين ألف درهم ، وجعل لها نوبة كل أسبوع تغنى  
فيها من وراء الستارة مع الجوارى

فلما انقضت أيام ، قلت لأمير المؤمنين الراحل ، وقد فرغت من غناء لحنى :  
« قل لمن صد عاتيا » :

— يا أمير المؤمنين .. والله لولا ان ذلك الامر قد وقع لى ، ورأيت به معنى ،  
ما صدقت منه شيئا ! ..

— وما هو ؟ ..



- رحلتى فى الصحراء ، والجارية وصاحبها وما أجزتهما به من المال ..  
- وما لى ذاك ؟!

- فيه والله أعجب شيء رأيته قط ، فإن هذه القصة بحذائرها وقع لى مثلها فى عهد أمير المؤمنين المأمون ، وخرج المنادون فى بغداد يصيحون باسمى ، حتى عدت وقصصت عليه قصتى فاستدعى الجارية وصاحبها وأجازهما ، وليس بين تلك الجارية وصاحبها أدنى شيء يصلهما بالجارية وصاحبها اللذين وقفأ بين يديك يا أمير المؤمنين ، وإن بين القصتين لأكثر من خمسة وعشرين عاما ! ..

فلبت الرائق يتعجب ويقول : سبحان الله ! ..



## الحياة ١٢٠ سنة

### ● اليوم الاول :

عشت ستين عاما في دولة بني أمية ، رأيتها في ارتفاع راياتها وفي سقوطها تحت أقدام أبي مسلم الخراساني داعية الدولة العباسية وقائد جيوشها الزاحفة من خراسان الى العراق والشام ومصر وغيرها من بلاد المسلمين ..

كنت في دولة بني أمية أجلس الى المغنين وأحفظ الحانهم ، حتى استقامت لي طريقة حسنة في التلحين والغناء ، ورويت كل ما حفظته عن الفحول من مطربي مكة والمدينة ، كآبن سريج ومعبد والفريض وابن شائسة ولم ينتهي سماع أحد الا الرعيل الاول الذي نشأ الغناء على يديه في المدينة ومكة أهمال طويس وسائب خاثر وبعض قيان المدينة ، فهؤلاء لم أدرهم ، ولكني رويت غناءهم عن أخذوه منهم وصار الناس يرددون اسمي : « يحيى المكي » .. ويطلبون سماعي ! ..

فلما سقطت دولة بني أمية لبثت لا أجد منتجعا لي عند الخليفة العباسي الاول ، ثم جاء الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور فكان ينكر على أهل بيته وعلى قواده وعظماء دولته ، سماعهم الغناء ، ويمنع أن يرتفع صوت بالغناء أو عزف الطنبور في قصره ! ..

حتى ذهب أبو جعفر وجاء ابنه الخليفة المهدي ، فافتتح لي وللمغنين باب الارتزاق عنده .. وقدمت من الحجاز الى بغداد على المهدي في أول خلافته مع كثير من مطربي مكة والمدينة الذين أوشكت صناعتهم أن تبور ..

ولم يبق في بغداد بعد طول التردد على الخليفة المهدي أحد من هؤلاء ، وبقيت وحدي ، يسمعون ويجيزوني ، ورأيت عنده المطربين الناشئين ابراهيم الموصل واسماعيل بن جامع .. كلاهما فايغة في باب من هذه الصناعة ، ولكنهما لم يكونا على علم تام بالغناء القديم ، ولا يرويان منه ما يرتفع به شأنهما عند الخليفة ، فكانا - ومعهما آخرون من طبقتيها - يرفعسون الى دارى ويفرد كل منهم بي قيفاسمى جائزته ويأخذ عنى بعض ما أرويه من غناء القدماء .. فلما اشتد ساعدهم ورووا مما حفظته شيئا غير قليل ، أخذوا يناقسوننى ويكابدوننى ويطنعون فى روايتي للغناء القديم ويزعمسون اننى أنتحل غناء القدماء فأنسبه لنفسى ، ثم انحل هؤلاء القدماء من غنائى ما ليس لهم ، فأنسبه اليهم ! ..

وقال بعضهم : قد كثر الانتحال والوضع فى الغناء كما كثر فى الشعر وفى الحديث وفى أخبار أيام العرب ، ولابد من ضبط رواية الألحان القديمة ضبطا محكما حتى لا يقع فيها تخليط للرواة والوضاعين ! ..

لكن المغنين لم يشبهوا لى ، لانهم ليسوا على شىء فى رواية الغناء ولم يفلحوا عند الخلفاء الا بما صنعوه من الألحان الجديدة .. حتى نشأ اسحاق بن ابراهيم الموصلى فضبط رواية الغناء القديم ، وأخذ من مظانه ، واجتهد فى تدوينه ، وصيره علما بذاته ، وأخذ يبين للناس منحولاتى .. وطاردنى فى مجالس الخلفاء وكشف أمرى ! ..

كنت أغنى فى سهرة عند بعض الكبراء ، واسحاق الموصلى فيمن حضر ، فغيت من الحان مالك ، فسألنى بعض من حضر عن صانع هذا اللحن ، ولم أنتبه الى وجود اسحاق الموصلى ، فقلت : هذا من صنعتى ، فصاح اسحاق : ماذا تقول يا شيخ !؟ .. فتنبهت وقلت : انما كنت أمزح ، فهذا من الحان مالك ! ..

ثم غيت لحنا لى فسئلت عن صاحبه فنسبته الى الفريض فقال لى اسحاق : يا يحيى .. هذا ليس من نمط الفريض ولا طريفته فى الغناء ، فاستحييت من كذبه ، فلما انصرف اسحاق ، بعثت اليه بهدية استرضيه بها وأكف شره عنى وكتبت اليه : « لست ممن يتصدى لمباغضتك ومباراتك فتكايدينى .. وأنت محتاج الى أن أفيدك وأعطيك مما أرويه وحدى ولا تجده عند غبرى ، فاذا أخذت ذلك عنى سموت به على أكفاك ، وحملت سلاحا اذا حملة عليك غيرك لم تقم له ! .. »

فعرف اسحاق أننى صدقته النصيحة فاعتذر الى وحلف لا يعارضنى بعدها ، ولكنه شرط على الوفاء له بما وعدته من الزوائد ، فوفيت له بها ، وأخذ منى كل ما أراد من غناء المتقدمين الذين رأيتهم وسمعتهم ولم يرهم هو ولم يسمع منهم شيئا .. ولم يعاود اسحاق معارضتى بعد ذلك ، لكنى كنت اذا سئلت فى حضوره عن شىء صدقت فيه ، واذا غاب اسحاق قلت ما شئت وأكثر من التخليط ، لانى لا أحب أن أبذل علمى لمن يطلبه بغير مقابل من المال أو النقائس ، فقد تعبت أشد التعب طوال ثمانين عاما فى جمع ما أرويه من الغناء ، ثم يجيء الناس فيسألوننى أن أبذله لهم ، ولم يبذلوا لى شيئا .. فكيف يلوموننى اذا ضمنت عليهم ولم أعطهم ما يطلبون !؟

### ● اليوم الثانى :

نقض اسحاق الموصلى عهده الذى قطعه لى وكادنى عند أمير المؤمنين الرشيد مكيدة موجعة ، لم أعرف كل تفاصيلها الا بعد وقوعها وافتضاحي بها ! ..

فقد قال اسحاق للرشيد : اتحب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك كذب يحيى الملكى فيما ينسبه الى القدماء من غناء ، وما ينسبه الى نفسه وخلطه بين صناعته وصناعتهم !؟ ..

قال له الرشيد :

- نعم ! .. وهذا شعر جديد فأصنع فيه لحنا جديدا وغننى فيه .. ثم سألك اذا حضر وسمع اللحن عمن صنعه فتذكر لى اسما لا اصل له ، ثم نرى ما يقع من يحيى ! ..

فلما حضرت مجلس الرشيد غنى اسحاق اللحن ، فسأله الرشيد : لمن هذا اللحن يا اسحاق ؟ .. قال اسحاق : هو يا أمير المؤمنين لغناديس المدينى .. كان من حذاق المغنين فى المدينة ومكة ، وكان ممن أخذ عن معبد والفريضى ! ..

فأقبل الرشيد فقال لى ، وأنا غافل عن المكيدة :

- يا يحيى .. أكنت لقيت غناديس فى مكة أو فى المدينة ، وأخفت من صناعته شيئا ؟ ..

قلت بثقة وغرور :

- نعم لقيته وأخذت عنه صوتين ! ..

قال الرشيد :

- فغننا صوتا مما أخذت عن غناديس !

فاندفعت فغنيت لحنا من ألحانى لم يكن الرشيد ولا أحد غيره قد سمعه . ثم قلت : هذا يا أمير المؤمنين أحد الصوتين اللذين أرويهما عن غناديس ! .. فضحك الرشيد حتى استلقى على فراشه ، وقال لى :

- يا لك ! .. الآن عرفنا كذبك وتخليطك فى رواية الغناء .. فما خلق الله مغنيا فى مكة ولا فى المدينة اسمه غناديس .. وإنما وضع اسحاق هذا الاسم هنا فى وقته .. وقد انكشف الآن أمرك ! ..

فكدت أموت غما وكمدا ، ولم أحر جوابا من فرط الخجل والسقوط حتى أشفق على الخليفة فقال لى :

- لا بأس عليك يا يحيى ! لئن كنت وضاعا مختلعا فيما تنسبه الى القدماء .. انك فيما تنسبه الى نفسك من غناء لمطبوع كثير الصنعة ، ولقد رويت ما لم يروه أحد من المغنين ، وعلست ما جهلوا ..

ثم التفت الى اسحاق وسأله :

- ما تقول يا اسحاق ؟ ..

قال وكأنه يسترضينى بعد الذى تكبتى به :

- والله ما أعرف أحدا أروى منه ، ولا أصح أداء للغناء ، ان كان ما يغنيه له أو لغيره !

فايتسم الرشيد وأمر له ولى بجائزة !

## ● اليوم الثالث :

صنعت حتى يومى هذا ثلاثة آلاف لحن ، منها زهاء ألف لحن لم يقاربنى أحد فى جودتها ، والباقي متوسط ، وأنا والله أستاذ هذه الطبقة من المغنين التى تنصدر مجالس الرشيد ورجال دولته .. وإن إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وهما المقدمان فى الغناء والتلحين ، ليعترف كلاهما بأستاذيتى .. وأرى أن إسحاق الموصلى أفضل من أبيه رواية وصنعة وإن لم يكن أطيب حلقا ، وهما فى الحقيقة يجيئان فى حسن الحنجرة بعد ابن جامع ومخارق وعلويه وأكثر المغنين ، ولكنهما يتقدمان كل التقدم بالصناعة والعلم والحدق فى الاداء ، وهذا ما برعا به جميع هؤلاء المغنين ذوى الحناجر المطربة ! ..

وقد غنيت مرة عند الرشيد ، فسألنى كم لحننا صنعت ، فذكرت له عددها ، فسألنى كم سنة عشت حتى يوم الناس هذا ، فقلت : قرابة مائة وعشرين عاما ! .. فصاح إبراهيم الموصلى :

— انى والله ما عشت بعد نصف عمرك هذا ، وقد شاب رأسى وسقطت أسناني ، ويكاد القولنج أن يقتلنى ، وأراك على شيخوختك التى حطمت الستين ، صحيح السمع والبصر والعقل ، قادرا على الغناء والتلحين ! .. فزادك الله يا يحيى من عافيته وأحسن اليك ، ورزقنا بعض ما رزقك من العمر والعافية ! ..

فاختلط حسد الموصلى بدعائه ، وعرف ذلك فى كلامه كل من سمعه ، ورأيت الخليفة يشيح بوجهه عن الموصلى ، فإن هارون الرشيد — على جبروته — رقيق القلب ، محب للناس ، كثير العطف على الشيوخ والضعفاء ! .. وقد كانت حالى ساءت عند الرشيد لما قر فى نفسه من كذبي فى الرواية ، ثم صلحت حالى عنده وعرف أن قدرى فى الصناعة فوق أقدار من يغشون مجلسه من المغنين ، مع كل ما يعتقده الرشيد من تخليطى فى الرواية ونسبة الألحان ! ..

وقد غنيتة أمس :

متى تلتقى الأجباب والعيس كلما

تصعدن من واد هبطن الى واد

فلم أزل أغنيه اياه ، ويتناول قدحا ، حتى عدت عشر مرات ، استعاد فيها اللحن ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم .. وقال : والله ما يحسن غناء هذا الا يحيى المكى ! ..

## ● اليوم الرابع :

غنى ابن جامع فى السهرة عند الرشيد هذا الصوت القديم :

انى امرؤ مالى يقى عرضى

ويبيت جارى آمنا جهلى

## وأرى الدمامة للرفيق اذا

### ألقى رحالته الى رحلي

فلم يزد ابن جامع على غناء البيت الاول شيئا ، فأترب الرشيد وأعطاء  
عشرة آلاف درهم وعشرة خواتيم وعشر خلج .. فلما انصرفنا جاءني ابراهيم  
الموصلى واستثقت بى أن أطرح عليه هذا اللحن كله فى بيتى الشعر جميعا ،  
لا فى البيت الاول وحده الذى غناه ابن جامع ووقف عنده ولم يعرف كيف  
يفنى البيت الثانى ..

قلت للموصلى :

— أفرأيت ان زدتك البيت الثانى الذى لم يعرفه ابن جامع أو كان يعرفه  
ثم نسيه ، وطرحته عليك حتى تأخذه وتحكمه وتغنيه للخليفة .. ما تجمل  
لى ؟ ..

قال :

— النصف مما يصل الى يدي بهذا الصوت !

فألقيت عليه الصوت فى البيتين معا حتى أتقنه ، فلما حضر مجلس الرشيد  
غنى الصوت وجاء بالبيت الثانى الذى لم يجرء به ابن جامع ، فطرب الرشيد  
واستعاده مرارا ، وحمل الموصلى الجائزة الى بيتى فقاسمنى ! ..

### ❁ اليوم الخامس :

امتد بى طريق الحياة .. حطمت العنبرين بعد المائة من عمري ، ومات  
زملائى فى الصناعة ممن يصغرونى منا .. مات ابن جامع والموصلى وما  
أظن الموصلى بلغ الخامسة والستين حين قضى .. وبقيت طبقة الشباب  
كمخارق وعلويه .. وأميرهم فى العلم والرواية والصناعة والاداء هو اسحاق  
ابن ابراهيم الموصلى ، الا أنه أقدمهم حلاوة صوت ، وهو فى هذا كآبيه ، ومثله  
أيضا فى التفوق على منافسيه بالحلق فى الصناعة والاداء والتبحر فى العلم  
بالغناء القديم ..

ويزاحنا فى الغناء ابراهيم بن المهدي ، وقد مات أخوه هارون الرشيد ،  
وتولى الخلافة محمد الامين وما زال شابا حدنا طياشا ولكنه شديد الحب  
للغناء .. وقد غنيته أمس :

خليل لى اھيم به

فما كافا ولا شكرا

بلى .. يلغى له باسمى

اذا ما ريع أو عشرا

فأمر لى بعشرين ألف درهم ، وأراد ابراهيم بن المهدي أن يأخذ عني  
الصوت فأبيت أن أعطيه حتى حكم عليه الامين بأن يعطينى عشرة آلاف  
درهم ! ..

دِينُ غَنَاءِ كَانَتْ سِرَاتُهَا الْوَحِيدُ



يَجْعَلِي الْقُلُوبَ وَالْأَذْنَ

# تأويل الرؤيا

## ● اليوم الاول :

قلت لاستاذي ابراهيم الموصل : الناس يعلمون أن أصلك من فارس ، وإن بيتنا شريفاً كان لك في العجم ، ثم نزل جده بالكوفة ، ونشأت أنت بها ، فمن أين جاءك لقب الموصل ؟ ١٩ ٠٠

قال :

— ما أخبرت احداً بسر هذا اللقب ، لكنني أخبرك ، وذلك اني لما صرت صبياً اشتبهت الغناء فطلبته عند بعض المغنين ، فنهاني عنه أخوالي وضيّقوا علي الخناق ، فهربت الى الموصل وليس لي دينار ولا درهم ، فصحبت جماعة من الصعاليك يقطعون الطريق ويصيبون من هذا الاثم بعض المال ، فيشربون ويغنون ، وكان فيهم بعض من يحسنون الغناء فأخذت عنهم الحانا وتعلّمت منهم ، ولم أكن أشاركهم قطع الطريق ، ولكن انتظرهم على مقربة حتى يفرغوا من سلب الناس ما يقدرون على سلبه ، فيقولون لي : الا تشاركنا هذا العمل ؟ ٠٠ فأقول : لا أستطيع ! ٠٠ فيقولون : نحن نكفيك ونسمع غناك ، فأنك إشدنا حذقا ، وإن كنت تزعم انك تأخذ الغناء عنا ! ٠٠

ثم قال لي الموصل :

— فهذه والله يا مخارق قصة لقبى ، فاكم هذه القصة عن كل الناس !

قلت :

— أفعّل ان شاء الله ٠٠ ولكن كيف قلت الشعر ، فأنك فيه حسن الطبع مجيد ، على أنك لم تتعلم القراءة والكتابة الا كبرا حين حبسك أمير المؤمنين المهدي ١٩ ٠٠

قال :

— لا يجيء الشعر من القراءة والكتابة وإن عظم شأنهما ، ولكنني نشأت في بنى تميم الفصحاء ، وأكثرهم شعراء فكنت مثلهم !  
ثم احتضن الموصل عوده ، وضرب عليه ، وغنى :

إذا سرها امر وفيه مسساتي

قضيت لها فيما تريد على نفسي



وما مر يوم ارتجى فيه راحة

فأذكره ألا بكيت على أمسى

فسمعت والله لحننا لم أسمع مثله من قبل جمالا واكتمالا فى أقسامه  
وأدواره وسائر صنعته ، فقلت له وقد هزنى الطرب :

— والله ما يقدر على مثل هذا ابن سريج ولا معبد ولا ابن محرز ولا  
امثالهم من شيوخ الغناء العظماء الذين سبقونا ..

فضحك الموصلى ، وكان متواضعا لطيفا ، وقال :

— على رسلك يا أبا المهنا .. فوالله ما أنا الا صبي صغير يلعب بين  
أيديهم ! ..

### ● اليوم الثانى :

التفت والمطرب الملحن الكبير اسماعيل بن جامع الذى يقول له  
الرشيد كلما سمعه : « صوتك يا اسماعيل كالعسل » ! .. فصحبني  
الى بعض قصور آل الربيع .. فجلسنا نستمع هناك الى جارية قندهارية  
الاصل كانوا قد اشتروها صبية وعلموها انغناء على أيدي الموصلى وابن  
جامع وغيرهما ..

غنت الجارية أصواتا من صنعة القدماء ، ثم غنت اللحن الذى سمعته  
من ابراهيم الموصلى : « اذا سرها امر وفيه مساءتى » .. فرأيت ابن جامع  
يشرب الى الجارية ويصغى اليها بكل جوارحه ، فما فرغت منه حتى كان  
ابن جامع قد أنخن طربا ، فقال لها : أعيديه .. لله أنت ! .. فأعادت  
مرارا ، وهو يزداد طربا حتى أوشك أن يمشق ثيابه ، وأما فى ذلك  
مثله ، ولكنى أغالب نفسى ، احتشاما لأصحاب القصر ، فاني ما زلت صغيرا ،  
وما كنت منذ سنوات الا خادما عند الخليفة ، أما ابن جامع فأشهر واكبر من  
أن يحتشم احدا فى مجالس الغناء ، اذا طرب أو شرب ، وهو قرشى من بنى  
سهم ، فله دالة وحرمة من جهة شهرته العريضة ، ومن أصله الكريم !

فلما خرجنا وركبنا الى قصر أمير المؤمنين — وكنا مدعويين للغناء فى  
سهرته — قال لى ابن جامع :

— ويحك يا مخارق .. نسيت أسأل الجارية عن صاحب ذلك اللحن !  
قلت له :

— صاحبه ابراهيم الموصلى ! ..

قال ابن جامع ، وكان فيه ميل الى الانصاف :

— لظننت والله انه هو صاحبه ، فما يحسن أحد فى أيامنا هذه أن  
يصنع ذلك الا الموصلى !

ثم قال لى :

— قد ذكرت الساعة رؤيا رايتها فى منامى البارحة :

قلت :

— خيرا ان شاء الله ! ..

قال :

— رايت فى منامى كائى وابراهيم الموصلى راكبان فى محمل ، فهبط الموصلى بالجانب الذى يجلس فيه من المحمل حتى كاد يلتصق بالارض ، وعلوت بالشق الذى انا فيه ، حتى كائى ارتفعت الى السماء ، فما تاويل ذلك عندك ، فائى أعلم انك من ذوى الفطنة فى هذا الباب ؟

فوجدتني أشعر بالعزن على ابن جامع ، كأنه يموت امام عينى ، فائى اظن أن تاويل هذه الرؤيا ان الموصلى يبقى على الارض حيا ، وان ابن جامع يموت وتصعد روحه الى السماء ! ..

لم ارد على سؤاله ، فاستحثنى قاديت انه لم يفتح لى باب للتاويل ، فقال لى :

— أنا أقول لك تعبير هذه الرؤيا .. فانا والموصلى الان متنافسان ، فاعلونه فى الغناء حتى ارتفع فوقه ، ويسفل هو حتى يلتصق بالارض ! قلت :

— أبقاك الله أيها الاستاذ ، وبلغك أملك ، ولا حرما منك أبدا ! ..

وكنت أجهش باكيا ، فقال لى ابن جامع :

— ما دهاك يا مخارق ؟! .. كأنما طرقتك من الحزن شيء ! ..

قلت :

— لا .. ولكنى ذكرت غناء تلك الجارية القندهارية ، فابتعثت هذه النفثة من صدرى ! ..

قال وقد عاوده طربه لفنائها :

— لله تلك الجارية .. ما أحسن غناءها ! .. والله لو غنت لمدنف أوشك أن يموت ، لظننت انه ينهض صحيحا معافى ! ..

قلت فى نفسى :

— أنا لله ! .. يابى أستاذنا هذا ألا أن يذكر الموت ! ..

### ● اليوم الثالث :

جلست فى سهرة أمير المؤمنين الرشيد بجانب أستاذى ابراهيم الموصل ، فقصصت عليه ما وقع لى مع ابن جامع ، منذ غنتنا الجارية القندهارية الى أن حدثنى عن رؤياه وتاويله للرؤيا ..

فرايت الموصلى يصمت واجما ، فانه من أقدر الناس على تعبير الرؤى  
ثم قال لى :

- والله ما يسرنى أن أعيش ويموت ابن جامع .. والله ما أطرب لغناء فى  
الدنيا طربى لغنائه ، ولوددت أن أشاطره عمرى ! ...

ثم انفرجت أساريه قليلا ، وهمس :

- ليت هذه الرؤيا تكون أضغاث أحلام ! ..

بدأت السهرة ، فغنيت أمير المؤمنين لحنا من صنعة ابراهيم الموصلى  
فطرب ، وقال لى :

- أحسنت يا مخارق وأحسن أستاذك صاحب هذا اللحن ! ..

ثم قال لابن جامع :

- يا اسماعيل .. هل من جديد عندك ؟!

قال :

- يا أمير المؤمنين .. والله لقد سمعت صوتا جديدا لابراهيم الموصلى ،  
وددت لو أننى غنيته فى حضرتك ، ولكنى لم أحكمه بعد ولم أتقن حفظه !

ثم قص ابن جامع على الرشيد قصة الجارية القندهارية وما غنت من  
صنعة الموصلى ، فتفكه الرشيد بالقصة ، وأمر الموصلى فغنى الصوت  
فطرب له حتى صار يقوم ويقعد من شدة الطرب !

ثم غناه الموصلى لحنا من صنعة شيخ الملحنين والمغنين ابن سريج رحمه  
الله :

فياحيهما زدنى جوى كل ليلة

ويا سلوة الايام موعذك الحشر

ويا هجر ليل قد بلغت بى المدى

وزدت على مالىس يبلغه الهجر

وانى لتعرونى للكراك هزة

كما انتفض العصفور بلله التظر

فرايت الرشيد - من فرط طربه - قد سكن فوق سريره كأنه جمده فلا  
حرك به ، واتسمت عيناه ، وهو يحاول أن يستمسك بوقاره الملوكى !  
انتهت الليلة على خير حال ، وخرجنا نثنى على كرم الرشيد ، ونذكر دقة  
ذوقه ومعرفته بالغناء ، وقال الموصلى لابن جامع :

- كيف لا يكون أمير المؤمنين أحسن الناس معرفة بالغناء وهو يسمعتنا  
منذ خمسة وعشرين عاما ! ..

قال ابن جامع ضاحكا :

— كأنك تشنى على غنائنا لا على معرفة أمير المؤمنين بالفضاء ! ..  
خشيت أن يذكر ابن جامع رؤياه للموصلى ، أو يذكر له الموصلى ماحدثته  
عن تلك الرؤيا لكنهما افترقا فى سلام ، فحمدت الله وقلت : عسى أن  
تكون هذه الرؤيا أضغاث أحلام كما قال الموصلى ! ..

### ● اليوم الرابع :

صحوت فى بكرة الفهار ، وليس ذلك من عادتي حين أقضى الليل ساهرا  
فى مجلس أمير المؤمنين ..

تحيّرت أين أتجه ، والى من أذهب فى تلك الساعة ، ثم صرت الى منزل  
ابراهيم الموصلى ، فوجدته قد صحا مبكرا مثلى ، وبين يديه ابنه اسحاق  
يطارحه لحننا ، فلما فرغا من شغلها ، قال لى ابراهيم :

— يا مخارق .. خذ هذا اللحن الذى سمعته فأتقنه وغنّه ، فانك تستنفع  
به ..

ثم طارحني حتى حفظته وأتقنته ، وأسمعته اياه متحفظا مجتهدا فى  
ادائه ، لا خوفا منه بل خوفا من ولده اسحاق الذى لا يتهاون فى خطأ  
يسمعه حتى من ابيه ، فلما أتممت اللحن ، جعل ابراهيم الموصلى ييكى  
طربا ، ويقول لى مداعبا :

— يا مخارق .. نعم وسيلة ابليس أنت فى الارض ! .. أنت والله بعدى  
صاحب اللواء فى هذا الشأن ! ..

ثم ازداد بكاء وهو يقول :

— والله ما فى الدنيا صوت يعدل صوتك الا صوت ابن جامع ؟ ..

واذا خادم للموصلى يدخل عليه ويقول :

— يا سيدى ! .. أجرك الله فى صديقك وصفيك ابن جامع فانه مات  
متذ ساعه ! ..

انصرف الخادم مسرعا ، ووجم ثلاثنا — أنا والموصلى وابنه — ثم انفجرنا  
بأكين ! ..

## الأمير في ثياب المغنين

### ● اليوم الاول :

اخيرا وقعت في قبضة شرطة الخليفة !

وكننت قد استترت مدة عند بعض أقاربي من الهاشميين ، منزويا في غرفة ضيقة من بيوتهم ، لا تفتح نوافذها نهارا ولا ليلا ، أما بابها فلا يفتح الا بيد جارية كلفها أقاربي هؤلاء بخدمتي ، فهي تأتي لي بالطعام والشراب ، ثم تخرج وترد الباب وأقوم أنا فأحكم اغلاقه من الداخل ، لسدة خوفي ، فقد ذهبت من دنياي وذهبت منها ولم يبق لي أمل الا في عفو ابن أخي الشاب القادم من خراسان عبد الله المأمون ، الذي طالما لاعبته ولاطفته صغيرا في خلافة أبيه هارون الرشيد أخي ، وسمعتة أيامها يهتف باسمي ويقول لي : يا عم .. أحب أن أسمع غناك ، فأضحك وأقول له : انك مازلت صغيرا يا عبد الله ، ولا يأذن لك أمير المؤمنين بسماع الغناء ! ..

لكني اليوم مطلوب لسيفه ، ولا ذنب لي ، فان الذي شن الحرب عليه هو أخوه المفتون المأمون ، محمد الأمين الذي تولى الخلافة بعد أبيهما الرشيد ، فزينت له أمه « زبيدة » ان ينقل ولاية العهد الى أحد أطفاله ، ويحرم منها أخاه « المأمون » .. ابن « مراجل » الجارية الفارسية التي تزويرها زبيدة الهاشمية التي لم يمسهما الرق ! ..

فلما انهزم الأمين وخلع وقتل ، خشي بنو العباس أن تضيق الخلافة من بيتهم ، ويثب عليهما بنو علي بن أبي طالب ، فأجمع العباسيون في بغداد أن يبايعوني بالخلافة ، فامتنعت مخافة تبعاتها ، ثم قبلت اذ وجدت ان المأمون لا يرح خراسان كانه لا يريد الجلوس على سرير الخلافة الذي ينتظره في بغداد ! ..

توليت الخلافة وصار لقبى « المبارك » وسمعت من الناس قولهم لي : « يا أمير المؤمنين » .. فأنساني الجهل ان المأمون مهما يتلبث في خراسان فلا بد من عودته الى بغداد بعد انتصار جيوشه وذهاب خلافة أخيه المقتول

وها انذا أدفع ثمن الجهل ، فان المأمون دخل بغداد وبويع بالخلافة واستقر له الامر ، وأطلق المنادين يصيحون باسمي في كل مكان ، منذرين كل من يعرف مكمنى ولا يرشدهم عنى ! ..

وقعت في أيديهم ، ولا أشك أن المأمون قاتل اليوم أو غدا لاجترائي على

متنصب الخلافة بعد سقوط الامين ، وأنا أعلم ان الخلافة بعد الامين هي  
للمؤمن وحده ، وقد علق الرشيد - رحمه الله - كتابا بذلك في الكعبة  
وأشهد عليه الناس منذ ستين ! ..

وما تهون نفسي على نفسي ، ولا أجد الدنيا يغيضة الى قلبي ، ولو علمت  
ان الامور تقضى الى هذه العاقبة ، ما أجبت بنى العباس الى بيعتهم لي بالخلافة  
ولو أجلسوني على عرش في السحاب ! ..

**ذهبت من الدنيا وقد ذهبت مني**

**هو الدهر بي عنها وولي بها عني**

**فان أبك نفسا أبك نفسا عزبة**

**وان احتسبها احتسبها على فسن**

وما أعجب تصاريف الزمان ! .. بالامس كنت أميرا للمؤمنين في بغداد ،  
واليوم أعود الى الشعر أرثي به نفسي ، وأعود الى الفناء والتلحين ، فأعمل  
في هذين البيتين لحنا ، كاني ذاعب الى مجلس غناء وشراب ، لا الى مجلس  
أقف فيه على « النطع » - بكسر النون - والسيوف مصلت على عنقي ، ينتظر  
إشارة من أصبح ابن أخى الخليفة الجديد الذى امتلأ قلبه منى موحدة  
وغضباً ! ..

## ● اليوم الثانى :

ساقونى مكبلا بالاعلال الى ابن أخى الخليفة المأمون ، ورأيت على وجهه  
فرح الظافر بعدوه .. وأنا عمه .. أخو أبيه - فلم أجد بيانا يسعفتنى ، وخاننى  
لسانى ، وكان الناس قديما يصفون فصاحتى وخطابتى وقوة عارضتى وبلاغة  
شعرى ونثرى ، ويقولون : ما فى الدنيا أفصح من ابراهيم بن المهدي ! ..

لم أجد فى ذاكرتى كلمة كان سعيد بن العاص كلم بها معاوية بن أبى  
سفيان يستعطفه بها ، فاذا بالمأمون يروى هذه الكلمة ويحفظها منذ صباه ،  
فلم تؤثر فيه ولا عطفته الى العفو عني ، وقال لى :

- هيهات يا ابراهيم ! .. هذا كلام سبقك به فحل بنى العاص بن  
أمية وقارحهم سعيد بن العاص وخطب به معاوية فى سالف الزمان ! ..  
قلت والدمع فى عيني :

- مه .. يا أمير المؤمنين ! .. وأنت أيضا ان عفوت فقد سبقك فحل  
بني حرب وقارحهم الى العفو .. فلا تكن حالى عندك أبعد من حال سعيد  
عند معاوية ، فانك أشرف منه ، وأنا أشرف من سعيد ، وأنا أقرب اليك  
من سعيد الى معاوية ، وان أعظم الهجنة أن تسبق أمية هاشما الى مكرمة !

أطرق المأمون - بعد هذا الحوار التصير - يفكر فقلت فى نفسي : ما  
أظنه يميل الى العفو عني وهو الذى حين دخلت عليه فسلمت ، رمانى  
بحجر من كلامه صك به وجهي كله وشج جيپتى ، اذ قال : « لا سلم الله  
عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلاك يا ابراهيم » ! ..

فكيف أطمع منه وهو فى هذه الحال من الحق أنه يعفو أو يخفف العقوبة  
فلا يجعلها قتلا ؟!

حرك المأمون رأسه فى اطرافه فظننت ان حركته التالية هى أن يأمر  
بضرب عنقي .

فبادرت أقول مرتعدا :

— على رسلك يا أمير المؤمنين ! .. فلقد أصبحت وليا لشأرى ، وإن  
القدرة تذهب الحفيظة ، ومن مد له الاغترار فى الامل هجمت به الاناة على  
التلف . وقد أصبح ذنبى فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ..  
فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ! ..

رفع المأمون رأسه فقال لى :

— يا ابراهيم .. ان هذين أشارا على بقتلك ! ..

فالتفت الى « هذين » فاذا المتصم بن الرشيد ، والعباس بن المأمون ،  
فأردت الا أغضبهما وهما فى تلك المكانة عند الخليفة فقلت :

— يا أمير المؤمنين .. أما حقيقة الراى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة  
فقد أشارا عليك به ، وما غشاك ، اذ كان منى ما كان .. ولكن الله عودك  
من العفو عادة جريت عليها ، دافعا ما تخاف بها ترجو ، فكفأك الله ! ..  
فرايت المأمون كأنه يتسم ، ثم أقبل على جلسائه ، فقال :

— ان من الكلام ما يفوق الدر ، ويغلب السحر ، وإن كلام عى منه !  
ثم أمر الحراس :

— أطلقوا عن عى هذا الحديد وردوه مكرما ! ..

### ● اليوم الثالث :

كان المأمون قد صادر أموالى وأملاكى ، فلم يسبق لى بيت أسكن فيه .  
واليوم أعاد لى ما صادره ، وأمر لى بخمسة آلاف دينار فتعلمت قصيدة فى  
مدحه أرسلتها اليه ، فبلغنى ان المأمون لما قرأها بكى ، وأمر بأن أرجع الى  
النادمة والانس به فى مجلسه ، وقال : « لن يرى منى ابراهيم الا ما يحب »  
.. ودعا ببعض الفراشين فقال له : « اذا رأيت عى مقبلا فاطرح له تكاة  
فى المجلس » .

فلما دخلت على المأمون ، قبلت البساط بين يديه ، وأنشدت هذه الابيات :

البرى وطا العذر عندك لى

دون اعتذارى فلم تعدل ولم تلم

وقام علمك بى فاحتج عندك لى

مقام شاهد عدل غير متهم

رددت مالى ولم تمنسن على به  
وقبل ردك مالى قد حققت دمي  
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به  
فلا علمناك من عاف ومنتقم

فقال لى :

— اجلس يا عم آمننا مطمئنا ، فلن ترى منى ما تكره الا أن تحدث حدثا  
أو تتغير عن طاعة وأرجو الا يكون ذلك منك ان شاء الله ! ..

### ● اليوم الرابع :

دخلت الليلة الى مجلس المأمون متبذلا فى ثياب المغنين وزيههم ، فلما رأى  
ذلك ضحك وقال : « نزع عى ثياب الكبير عن منكبيه » ! ..

وانما أردت أن يعلم المأمون من تبذلى فى ثياب المغنين ، ان الناس  
يرونتى فيها فيعلمون انى تركت الطمع فى الخلافة ، وفرغت للغناء واللهو  
وقد هجاني أحد الشعراء عندما بويست بالخلافة قديما فوصفتى بأننى  
« خليفة مصحفه البربط » .. فأنا أريد منذ اليوم الا يعرفنى الخاصة  
والعامة الا مغنيا أضرب بالعيدان والبرابط والطبول ، فانى متى اشتهرت  
بذلك بين الناس ، اطمأن المأمون الى سقوطى من أعينهم ، فلا أطمع فى  
الخلافة بعد ..

وليسست هذه حيلة لى على المأمون ، وانما هى مذهب وغريقة فى الحياة ،  
فانى آليت أن أقطع بقية حياتى فى هذه الصناعة التى أحببتها منذ الصبا  
حتى قال اسحاق الموصلى يوما : « ان ابراهيم بن المهدي أشده خلق الله  
تعظيما لصناعة الغناء ، وأحرصهم عليها » ..

ثم انى أعلم أن المأمون لم يستبقنى — وكان يعتزم قتلى — الا حبسا منه  
للفناء ، ومعرفة بمكانى فى هذا الفن ، وتفوق صوتى على كل صوت سمعه  
أو يسمعه ، حتى شهد لى بذلك أصحاب أجمل الاصوات كاسماعيل بن  
جامع ومخارق ، فضلا عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق هذا الذى لا يشبه  
لفن بشيء .. وقد قال مخارق وهو أجمل المغنين صوتا : « ابراهيم بن  
المهدي أحسن منى غناء بمشعر طبقات ، وهو أحسن الجن والانس والوحش  
والطير ، صوتا » ..

وحسبى هذه من شهادة ! ..

وفى مجلس المأمون الليلة قال لى :

— يا ابراهيم .. تغن :

هل تظمسون من السماء نجومها

باكفكم أو تسسترون هلالها

فاخذت فى غناؤه ، حتى بلغت قول الشاعر يمدح العباسيين ويسفه حجة  
الطالبين :



## او تجحدون مقالة عن ديكم جبريل بلغها النبي فقالها

فاذا المامون ومن فى مجلسه يمجون طربا ، وقال لى بعض من حضر :  
- لقد هزرت حلقك ، ورجعته ترجيعا ، ظننت معه ان الارض قد  
زلزلت ! ..

وقال لى القاضى احمد بن أبى دؤاد :

- كنت أتجنب الفناء وأطعن على أهله حتى سمعتك ، فعدلت الى رأى من  
يقبل الفناء ويحب المحسنين فيه ! ..

اذكرنى هذا مجلسا غنيت فيه للامين المخلوع ، منذ سنوات .. فانى  
ذهبت الى قصره ، فاذا هو جالس فى شرفة تطل على حديقة جعلها للوحوش  
التي يؤتى اليه بها من الغابات البعيدة ، فغنيته :

وكأس شربت على لذة  
وأخرى تداويت منها بها  
لكى يعلم الناس انى امرؤ  
أتيت اللتوة من بابها  
وشاهدنا الجبل والياسمين  
والمسمعات بقصاها  
وبربطنا دائم معمّل  
فاى الثلاثة ازرى بها

فكاد الامين يقع من الشرفة على الوحوش ، طربا .. وقال لى أخى منصور  
ابن المهدي وكان حاضرا معنا : لقد غنيت يا ابراهيم على أشد طبقة يتناهى  
اليها العود ، وما سمعت مثل غنائك اليوم قط ، ولقد رأيت هذه الوحوش  
تمد أعناقها الى الناحية التي يجيء منها صوتك اليها ، ودنت ثم دنت حتى  
أوشكت أن تضع رءوسها فى مجلسنا .. فلما فرغت من غنائك نفررت  
وبعدت منا كما كانت .. ولولا انى رأيت ذلك بعينى ما صدقت أبدا أنه  
يكون ! ..

وجعل الامين يومئذ يبدى العجب ويقول : حتى الوحش الاعجم الفسّاك  
أحسن لذة غنائك يا عم ! ؟ ..

## مُطَرِبَةُ الْقَصُور

### ● اليوم الاول :

جلست أفكر فيما مضى من طفولتى وصباى ! .. زعمت احدى المعجائز  
فى دار سيدى الامير ابراهيم بن المهدي أننى قرشية الاصل ، وان لصوصا  
سرقونى طفلة وباعونى فدخلت فى الرق ! ..

لا أدرى اصدقت فى قولها ، أم توهمت !

اتذكر الآن ان امرأة هاشمية من البصرة ، حملتنى فى صباى الباكر الى  
بغداد لتبيعنى ، فعرضتنى على اسحاق الموصلى ، فلم يزد فى ثمنى على  
ثلاثمائة دينار ، ثم كانه استغلانى ، فلم يدفع شىئنا ، وانصرفت بى  
سيدتى الهاشمية الى الامير ابراهيم بن المهدي ، فقالت له : قد أرادها اسحاق  
الموصلى بثلاثمائة دينار ، وأنت أيها الامير - أعزك الله - أحق بها ! ..  
فأعطاهما الدنانير وأخذنى ، ثم دعا بقيمة قصره ، فقال لها : خذى هذه  
الصبية ، ولا تربيها الا بعد سنة كاملة ، وقول للجوارى يطارحنها  
ما يحفظن من الغناء ، فأنى أرى لها صوتا وان كانت صغيرة ! ..

فلما انقضت السنة ، أخرجتنى قيمة القصر اليه ، فنظر الى وجهى فأعجبته  
وأمرنى بالغناء ففנית ساعة ، وهو يسمع ولا يقول شىئنا ، ثم أمرنى  
فانصرفت ..

وفى اليوم التالى دعا اسحاق الموصلى واسمعه غنائى ، ثم قال له :

- يا اسحاق .. هذه جارية تباع ، فيكم تاخذها لنفسك ؟

قال اسحاق :

- آخذها بثلاثة آلاف دينار .. وهى رخيصة بهذا الثمن ! ..

تبسم الامير وسأله :

- أتعرفها ؟ ! ..

قال :

- ما رأيته الا الساعة !

فضحك الامير وقال للموصلى :

- يا ابا محمد .. هذه هي الجارية التي عرضت عليك الهاشمية  
بثلاثمائة دينار فلم تقبل ! ..  
فتمعجب اسحاق وتحير من حاله ، وكيف صرت من صبية تجهل الغناء ،  
الى مفتية بارعة ! ..

### ● اليوم الثاني :

كانت نزهتنا في دجلة الباردة والقمر يتوسط السماء ، وقال لي  
سيدى الامير : غننا شيئا ، فغنيت ، فكأنى رأيت ماء دجلة يتوقف ليستمع !  
.. ووضع الامير يده على فمى وقال لي : اسكتى يا شارية ، فوالله لو  
سمعتك امير المؤمنين المعتصم لاختك منى ! .. أنت والله أحسن من الغريض  
غناء ، وأحسن من البدر وجهها ! ..

ثم عدنا الى قصره ، واستأنفنا ما كنا فيه من الغناء ، حتى طرقتنا ضيف  
يأنس اليه الامير ، فامسكت عن الغناء ، وأخذنا يتحدثان في أمور شتى ، حتى  
قال له الامير :

- أتحب أن اسمعك شيئا لم تسمعه قط ؟ ..

- نعم أيها الامير أعزك الله ! .. وانى لي بذاك !؟ ..

فأمرنى مولاي أن أغنى ! ..

فلما فرغت من الغناء قال لضيفه :

- هل سمعت مثل هذا الغناء قط !؟ ..

- لا والله يا سيدى ما سمعت هكذا ! ..

- أتحب أن تسمعه أحسن من هذا !؟ ..

ثم غنى الامير الصوت الذى غنيت به ، واجتهد فيه وبلغ منتهاه ، حتى صاح  
الرجل :

- والله ما ظننت قط أن مثل هذا يكون أبدا ! ..

فقال الامير :

- أفتحب أن تسمع هذا الصوت أحسن من هذا وذاك ؟ ..

قال الرجل متعجبا :

- فهذا الذى لا يكون أيها الامير أعزك الله !

قال الامير :

- بلى والله ! .. بحياتى يا شارية ، قوليه وأحيلى حلقك فيه من حال  
الى حال ، ارتفاعا وانخفاضا وكما تشائين !

ففعلت ما أمرنى به الامير ، حتى كاد الرجل يخرج من جلده طربا وهو

يصرخ ويستغيث ، والامير ينمر ويصفق ، ويقول للرجل : أرايت ؟  
اسمعت ؟ ! ٠٠

### ● اليوم الثالث :

نمي الى أمير المؤمنين المعتصم خبري ! ٠٠ قيل له : ان عمك يا أمير المؤمنين - ابراهيم بن المهدي - يضمن على الناس جميعا بجارية مغنية لديه اسمها شارية ، لم يخلق الله مثيلا لجمال صوتها ، وجودة غنائها ٠٠ وإن عنده غيرها من الجوارى المغنيات الحاذقات ، على رأسهن « ريق » المغنية الضاربة المحسنة ٠٠

ولكن المعتصم يجفو الان عمه ابراهيم بن المهدي ، وينتق عليه في العطاء لسبب لا أدريه ، حتى ان البساتين والضياع وسائر ما يملكه ابراهيم بن المهدي لا تدر عليه الا ما يستره بين الناس ، ويقوم بنفقة قصره الكبير .  
مع ذلك أرسل المعتصم الى عمه يستزير منه جواريه المغنيات ، وبخاصة أنا ٠٠

وسمعت الامير يقول لرئيستنا « ريق » : انني أتعمل ذهابكن الى أمير المؤمنين على ضعف مني ، فان جواريه يلبسن الثياب الفاخرة ، وعليهن الجواهر الثمين ، وانتن في سراويلات كادت تبلى ٠٠ الا انني أرجو أن تظهرن على جواريه بحسن غنائكن بين يديه ، فليس عنده جارية مثلك ولا مثل شارية ! ٠٠

مضينا الى قصر الخليفة ، فرأينا فخامة ما ترتديه جواريه ، فتساءلنا في سراويلاتنا ، وتقاصرت أنفسنا ، وشمخن علينا بأنوفهن ، ثم أخذن يغنين ، فلم يجثن بشيء ، ولم يطرب لهن المعتصم ! ٠٠

فلما غنينا اهتز المعتصم ، ولما انفردت بالغناء أوشك أن يطير عن سريره طربا ! ٠٠ وأمر لنا بمائة ألف درهم ، حملناها الى مولانا الامير ، فأخرجته من تلك الضيقة التي نالته من جفوة المعتصم ! ٠٠

### ● اليوم الرابع :

هذا اليوم يجيء بعد زمن طويل من آخر يوم سجلته في مذكراتي . فقد مات مولاي ابراهيم بن المهدي فاشتراني المعتصم من ورثته بثلاثمائة ألف درهم ، وكان المعتصم قد أراد اخذني منه قبيل وفاته بأكثر من ألف ألف درهم فلم يقبل ، فأرسل اليه أحد ثقاته يعاتبه ، فجلس مولاي واياه الى مائدة ياكلان ، فأحضر الغلام سفودا فيه فرايج ، فأكلا منها ، ثم شربا ارطالا ، ثم أمر مولاي ف ضرب الستر ، وجلس وراءه ، وقال لي : ياشارية تقضى :

فلما غنيت صاح الرجل كأنما لسعته النار ، فقال له سيدي :

- ويحك ٠٠ تجلد ٠٠

فقال :

- كيف التجلد وقد سمعت شيئا ذهب بعقلي ؟ لا والله .. لو كانت هذه في ملكي ما أعطيتها للمعتصم ولو أعطاني فيها خراسان والاهواز وأرمينية والجزيرة ..

كان ذلك منذ سنين ! ..

وقد مات المعتصم أيضا ! .. وصرت حرة بعد موته ، وكبرت منزلتي في قصور بني هاشم وأعلى الخليفة الجديد مكانتي ، ولا عجب فان أمير المؤمنين الوائق مغن ملحن مطبوع ، يقضى وقته في السماع ، ولا يكاد يفارق اسحاق الموصلى ومخارقا وعلويه وابن بانة والجوارى المغنيات ، وهو يعظمنى كثيرا ، ويقول لى أحيانا من فرط تعظيمه اياى واعجابه بى : يا ستى ! ..

وعهد الى بتعليم جاريته المغنية الجميلة الموهوبة « فريدة » وهى متطوعة ولكنه يريد لها أن تزاد علما ، والحق ان صوتها رائع وأداءها متقن ، ويقول من سمعوها انها مثل المغنيات العظيمات فى عصر المأمون والمعتصم والوائق وهن : بذل ومتميم وشارية وريق وعريب وفريدة ! ..

ولكن الوائق مات فى عمر الزهور ، ورأيت « فريدة » فى مجلس أمير المؤمنين المتوكل ، يضرها غلمانة بالسياط لرفضها الغناء للمتوكل وفاء لآخيه الوائق رحمه الله ! ..

ونحن الان فى عصر المتوكل ، وهو شاب يحب القصف والغناء ولكن علمه به أقل من علم أخيه الوائق .. وقد غذيت ببنى يديه والجوارى من حول هذا اللحن :

بالله قولوا لمن ذا الرشاش

المثقل الردف الهضيم الحشا

أظرف ما كان اذا ما صحا

وأملح الناس اذا ما انتشى

وقد بنى برج حمام له

أرسل فيه طائرا مرعشا

يا ليتنى كنت حماما له

أو باشقا يفعل بى ما يشا

فطرب المتوكل وقال لى : لمن هذا الغناء يا شارية ، فقلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ! .. فوثبت المغنية « ملح » - بضم الميم وفتح اللام - وقالت له : هذا اللحن لخديجة بنت أمير المؤمنين المأمون رحمه الله ، قالت فى خادم لا يبيها كانت تهواه ، فنظمت فيه هذا الشعر ولحنته وغنته ! .. فوجم المتوكل وقال لها :

- يا عطارة ! .. لا يسمع هذا منك أحد ! ..

ي « ملج » تسمى « العطارة » لكثرة استعمالها المطبور .. وهي من  
أحسن الجوارى غناء ! ..

### ⑤ اليوم الخامس :

الزمان يمر كالسحاب .. انقضى عهد المتوكل وخلفاء آخرين بعده ..  
ونحن الآن في عصر أمير المؤمنين « المعتمد » ..

تغيرت الدنيا ، وانتشرت الفاقة في البلاد ، وأذل الفقر الناس وأنازهم ،  
وأقعدهم وأفاهم ووثب القرامطة بالسيوف والأرماع على دولة الخلافة ،  
وغاض زهر الأموال الذي كان من قبل يجري بين أيدي الخلفاء .. ولولا  
ما أذخرته في أيام المعتصم والوائق والمتوكل من الجواهر والذهب والفضة ،  
لساءت حالى كما ساءت حال كثير من أهل صنعتى ! ..

لم يدعشنى أمس اننى رأيت أمير المؤمنين « المعتمد » يجلس فى إيوان  
قصره وحيدا حزينا يشهد لنفسه حزين البيتين :

ليس من العجائب أن مثلى  
يرى ما قل ممتنعسا عليه  
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا

وما من ذاك شيء فى يديه

ان أمير المؤمنين يشكو أخاه « الموفق » - ولى العهد - الذى يجبى الأموال  
ولا يعطيه الا القليل ، ولكن الموفق انما ينفق الأموال على حرب القرامطة التى  
لا تنتهى ، وأمير المؤمنين لا يقتدر الآن على مكافأة مهن ولا شاعر ، ولو بدراهم  
معدودة ! ..

أردت الترفيه عن أمير المؤمنين ، فجئت اليه من بيتى بثلاث من جسوارى  
المغنيات البارعات اللاتي احتفظ بهن ولا أبيعهن لكساد السوق .. وهن  
مهرجان ، ومطرب ، وقمرية .. فغنين له حتى طرب وتسبلى .. ثم أكل  
طعاما طيبا حملته اليه فى سلة صغيرة ، وكان معتادا أن يأكل من يدى من  
أيام أبيه المتوكل ! ..

ان المعتمد أمير المؤمنين يخشى أن يقتله الجند الاتراك كما قتلوا أباه  
وأخاه وبعض أقاربه .. وما أكثر تقلبات الأيام وأعجبها ! ..

## قصة حب

### ● اليوم الاول :

يسمع الناس صوتي فلا يعجبهم ، ويعجبهم تلحيني وضربي على العود ،  
فاذا عرفوا ان اسمي « معبد » .. عجبوا في وجهي وقالوا لي : اما وجهك  
اسما آخر يعرفك الناس به ، فان اسم « معبد » اسم عظيم في النساء ،  
وانت ضعيف خامل غير طيب المسموع ؟ !

ولا ادري من سماني معبدا ، فقد نشأت في المدينة المنورة ، طفلا خلاسيا ،  
من أب أبيض وأم سوداء ، كلاهما من الموالي ، فاشتراني أحد وجهاء المدينة  
وهو من أولاد علي بن يقطين ، فصرت يقال لي : « معبد البقطيني » .. ولما  
جئ بى الى بغداد أخذت الغناء عن جماعة من علية المغنين مثل ابن جامع  
والموصلي ولكنى لم ابلغ منزلة كبيرة في الغناء عند هارون الرشيد ، وقلما  
كان يسمعنى ، فقد شغله أولئك الفحول الذين يفنونه كل ليلة ..

نشئت من بلوغ شيء عند الرشيد ، فانقطعت الى البرامكة ، وصرت في  
جملة من يخدمهم بالغناء والمناذمة ، وغمرني كرمهم كما غمر جميع اللاتذنين  
بأبوابهم ! ..

وكنت أجلس في بيتي فيجئ بعض صفار المغنين معن لم يرتفع قدرهم  
ولم يبلغوا أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والكبراء ، فاقصروا على  
الغناء لبعض أصحاب الوظائف ، والغناء في أفراح المياسير من التجار  
والصناع والعامة المستورين ! ..

كان هؤلاء المغنون يجيئون بأبيات من الشعر جيدة أو رديئة ، يطلبون  
منى تلحينها لهم ، فاذا دفعوا الاجر ، طارحتهم اللحن حتى يحفظوه  
وينصرفوا الى شأنهم ! .. قد يصيب أحدهم رزقا ونجحا ، وربما لا يصيب  
شيئا ..

فبينما انا ذات يوم في منزلي ، استأذن بعضهم في الدخول فظننته أحد  
هؤلاء المغنين الصغار ، فدخل شاب حسن الوجه نظيف الثياب ، تبدو عليه  
آثار السقم ، فعجبت منه ، وقلت له :

— ما رأيت مثلك مغنيا قط ! ..

فلم يتكلم ، وأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي ، وقال لي : أسألك  
ان تقبلها وتصنع في بيتي قلمتها لحنا ، وهذان هما البيتان :

والله يا طرفي الجاني على بدني  
لتطأتن بدمعي لوعة الحزن  
أو لأبوحن حتى يحجبوا سكتي  
فلا أراه ولو أدرجت في كفني

قلت :

- ما رايت كالיום .. تضع بين يدي ثلاثمائة دينار وأنا أبيع اللحن  
بما تتي درهم ، وتساألني أن أقبل هذا المال ، كأنك تظن اني لا أقبله ..  
فماذا تبغني مني ، وهل أنت مغن جديد .. والا تكن مغنيا جديدا ، فما  
تكون !؟ ..

قال الشاب :

- لست مغنيا ، وما سألتك تلحين هذا الشعر لاغتيه ، بل لتغنيه أنت  
لي ، وهذه الدنانير جائزتك ، ولو ملكت أكثر منها لاضعتها لك ! ..  
فصنعت اللحن وغنيته للشباب ، فأغنى عليه حتى طغفته قد مات ،  
فصرخت :

- يا هذا .. والله ما سمع أحد غنائي فأغنى عليه طربا الا أنت ؟ ..  
وما أظن أن لي من جمال الصوت ما يدفعك الى الانغماء ! ..

أفاق الشاب ، وقال متوسلا باكيا :

- بالله يا سيدي .. أعد الصوت ! ..

قلت :

- أخشى أن أعدته ان تموت ، وما أراك الا مريضا ، يذهب بلبك الغناء  
وان كان ضعيفا لا يذهب بلب انسان صحيح النفس والبدن ! ..

فأخذ يتضرع حتى أعدت عليه الصوت ، فصعق عند سماعه ، وقلت :

قد مات الشاب ، ما أشك هذه المرة في موته ! ..

وظلمت متحيرا لا أدري ما أصنع ، حتى رأيته يتحرك ، ثم أفاق ، فأسرعت  
فرددت اليه الدنانير ، وقلت له :

- يا هذا خذ دنانيرك وانصرف عني فلست أحب أن أكون مستولا في  
دمك ! ..

فقال :

- لا حاجة بي الى الدنانير ! ..

قلت :

- كأنك تريد أن أعيد عليك الصوت ، وتعيد أنت الانغماء ، لا والله ،  
لا والله ، ولا بعشرة أضعاف دنانيرك هذه ! ..



فانصرف الشاب ، وتبعته احاول ان اعيد اليه دنائيره ، فلم يقبل ! .

### ● اليوم الثانى :

عاد فتى الامس يسألنى ان اغنى له الصوت ، ومع دنائير اخرى ، فقلت له : اغنيك على شرط ان تقيم عندى وتحرم بطعامى ! .. ثم تمه يدك وتشرب اقداح نبيذ تشد قلبك وتسكر ما بك من برحاء ! .. وان تحدثنى بآهتكت فاعرف منها اعاقل انت ام مخالط فى عقلك ..

ودفعت اليه دنائيره فاخذها .. ثم طعمنا وشربنا ، وغنيته فى غير الشمر الذى كنت غنيته فيه ، فلم يثنه ذلك عن التوجد والتلهف وظل يشرب ويبيكى أحر بكاء ، ولكنه تماسك فلم يقع مغشيا عليه كحال امس !

فلما رأيت منه ذلك قلت له : حدثنى بقصتك فلعل لك عندى ما تستطع به لدائك هذا الذى برح بك وأضناك ! ..

فقال مستعظفا :

— الا تغنينى شيئا قبل ان أحدثك !؟

قلت :

— أخشى أن ينمى عليك ، فلا تصحو بعدها أبدا ، ولعل الكلام أن يخفف عنك ! ..

قال :

— فمعدنا غدا ان شاء الله ! ..

ثم انصرف ، وأنا أضرب كفا بكف ، وأقول فى نفسى :

— أن لم يكن هذا مجنونا ، فكيف يكون أهل الجنون !؟ ..

### ● اليوم الثالث :

جاء الشاب « المجنون » .. وجلس بين يدي صامتا ، فقلت له : الا تحدثنى بما خفى من أمرك ، كما وعدتني امس !؟ ..

قال :

— الشرط أعزك الله ! ..

قلت :

— وأى شرط لك عندى !؟

قال :

— أن تغنينى قبل أن أحدثك ! ..

فغنيته مكرها ، فبكى قليلا ، ورأيت القدح الذى شربه قد شذ من قلبه ،  
فطعنت فيه ، وسألته أن يحدثنى حديثه ..

تفكر الفتى بعض الوقت ، كأنه يستجمع اشتات عقله ، ثم قال :

- أنا رجل من أهل المدينة ، خرجت يوما فى فتية من أقرانى متنزها  
فى ظاهر المدينة وقد سال وادى العقيق بما انهمر من المطر فى ذلك اليوم ،  
فبصرت بفتيات فيهن واحدة باهرة الجمال .. تنظر بعينين ما ارتد طرفهما  
الا بنفس من يلاحظهما .. فأحدثت بقلبي جرحا بطيئا اندماله ، فعدت الى  
منزلى وأنا صريع ! ..  
فقطعته قائلا :

- ويحك ! .. فما اظنك الا ذهبت تخطبها من أهلها ، فاذا بها زوجة لاحد  
الرجال ، فقتلك الحب والياس من الحب ! ..  
قال :

- كأنك قاربت الحقيقة ، فانى خطبتها بعد ان شاع حديثى فى الناس ،  
فحجبها أهلها عني ، وتشدد عليها أبوها ، وهذا هو معنى قرولى فى البيت  
الثانى من شعري الذى تغنيه لى منذ أيام ! ..  
قلت :

- ويحك ! .. أما فكرت أن تمضى بمشيخة من قومك يشفعون لك عنده  
أبيها ؟!  
قال :

- قد فعلت .. فقال أبوها لمشيخة قومي : لو كان بدا بخطبتها قبل أن  
يفضحها ويشهرها لاسعفته بما التمس ! .. فلما قال أبوها ذلك انصرفت  
على ياس منها ومن نفسى ، وعلمت انى قتيل حبها لا محالة !  
قلت للفتى :

- بل تعيش ان شاء الله ، وتسعد بحياتك ، فوافتنى بعد غد ، فلعلل  
الليل والنهار يحدثان لك سلوة عنها ! ..  
قال الفتى :

- هيهات ! ..

ثم انصرف ! ..

### ❁ اليوم الرابع :

مضيت الى قصر الوزير جعفر البرمكى ، فكان أول صوت غنيته صوتى فى  
شعر الفتى العاشق ، فتأمل الوزير فى الشعر والغناء وقال لى : ويحك ..  
كأنى أسمع وراء هذا الشعر حديث قلب جريح ! ..

قلت :

- كذاك والله هو ! ..

ثم حدثته حديث الفتى العاشق ، فأمر بإحضاره من وقته ، واستعاده  
الحديث فأعاده عليه ، فقال الوزير :

- هي في ذمتي حتى أزوجهك إياها ! ..

وغدا جعفر البرمكي الى أمير المؤمنين الرشيد فحدثه الحديث ، فعجب  
منه ، وأمر بإحضاره وأنا معه ، فلما صرنا بين يديه أمرني بأن أغنيه  
الصوت ، فقنيت ، فرأيت الفتى يتحرك وقد دمت عيناه وهو يتماسك  
حتى لا يفتضح في مجلس أمير المؤمنين ! ..

ورأيت أمير المؤمنين يلحظ الفتى ، مشفقا عليه ، ثم يتشاغل عنه بسماع  
غنائي ، وأنه ليضيق بسماع صوتي ولكنه سمعني هذه المرة كأنه يجد ارتياحا  
لسماعي ! ..

فلما فرغت من الغناء ، أشار أمير المؤمنين الى الفتى يستدنيه الى مجلسه  
فدنا منه على وجل واعظام ، فتلطف الخليفة في الكلام معه ، حتى حدثه  
الفتى ، حديثه ، على استحياء واحتشام ! ..  
قال له الخليفة :

- كأنك يا فتى قيس بن الملوح أو قيس بن ذريح ، وأراك شاعرا مثلهما  
ولك في الحب شأن كشأنهما ، الا أنهما ذهبا بالشهرة دونك ! ..

### ● اليوم الخامس :

جاءني الفتى العاشق كمادته منذ كنا في حضرة أمير المؤمنين ، فتجاريشا  
في الحديث عن أمور كثيرة ، حتى خطر لي أن أغنيه صوته الذي يبكي عنه  
سماعه ، فلما غنيت رأيت متماسكا رابط الجاش ، فأعجبني ذلك ، وقلت  
في نفسي ان الفتى ينق بأن أمير المؤمنين لا يخذله ! ..

ونحن كذلك ، طرق الباب ، ودخل بعض خدم جعفر البرمكي يستحثني  
والفتى على الركوب الى قصره ، فلما بلغنا ساحته ، ألفينا جعفرنا يتأهب  
للكوب الى قصر الخليفة ، وقد تربت انتظارا لنا ، فصرنا ضمن حاشيته  
الى هناك ، وأنا أقول في نفسي : أرى أن هذا الفتى يبلغ مراده اليوم ان  
شاء الله ! ..

وفي حضرة الخليفة وجدنا رجلا توسمت فيه أنه من أهل الحجاز ، وإذا  
بافتى العاشق يقول لي : هذا هو أبوها .

وعرفنا عندئذ أن أمير المؤمنين كتب الى عامله بالحجاز أن يشخص اليه  
الرجل وابنته وأقاربه فأشخصهم اليه .. ووصل الرجل الى مجلس الخليفة  
حيث رأيناه ..

قال الخليفة للرجل :

- قد خطبت اليك ابنتك لهذا الفتى من اهل المدينة واقسمت عليك أن  
تقبل ! ..

فاجابه الرجل وقبل تزويج ابنته للفتى ! ..

وحمل الرشيد الى الرجل الف دينار لجهاز العروس ، والف دينار لنفقة  
الطريق ، وأمر للفتى بألف دينار ! ..

فلما خرجنا من قصر الخلافة ، أمر لي جعفر البرمكي بألف دينار ، وللفتى  
بمثلها ! ..

وانتصر الحب بقوة السلطان ، وقوة الدينار !



## مطرب قليل البخت

### ❁ اليوم الاول :

فى شبابى كنت مقربا من ابراهيم الموصلى كبير المطربين والملحنين واحبهم الى قلب أمير المؤمنين الرشيد ..

ولكنى رأيته اليوم يتجهج لى ، بل انه ليتجهجنى منذ مدة ، ولا يحاول أن يعلمنى شيئا جديدا من الفن ، ولا يناصحنى فى صناعة الغناء ، ولا يستمع الى ما أصنعه من ألحان .. واذا سألته فى ذلك قال لى : يا سليم انك كبرت وبرعت وكثرت روايتك للالحان فماذا تبتغى منى بعد هذا كله ؟

ولو ساندنى الموصلى فى قصر الرشيد ، لكان لى شأن ، أما هو يباعدنى ، فان الرشيد يكاد يسقطنى من عينه حين أغنى له بعد الموصلى وابن جامع وفليح ابن العوراء وحكم الرادى ، وهم سادة المطربين والملحنين .. وأنا بالاضافة اليهم كالساقط !

وقد جددت على مجلس الرشيد أصوات أخرى كمخارق وعلويه ولا أستطيع منافسة هذين أيضا ..

ويقال لى أحيانا : انما أخرك عن أصحابك هؤلاء عند الرشيد ، انك شديد الولع بالاهزاج ، فليس لك غناء عظيم الصنعة الا فى النادر ، على جمال صوتك وجهارته ! ..

والله لانا أحتق بخبرات هذه الدولة من هؤلاء المغنين جميعا ، فانا مسلم « بضم السين وفتح اللام » وأبى سلام الكوفى ، كان من أصحاب أبى مسلم الخراسانى ، الذى أقام بسيفه هذه الدولة .. وكان أبى من دعاة أبى مسلم وثقاته ، يكتأب عنه شيعة آل البيت فى العراق ، ويصحبه فى خراسان قبل هزيمة آخر خلفاء بنى أمية « مروان الحمار » وقيام دولة بنى العباس !

كنت جديرا بمنصب فى دولة العباسيين هذه ؟ .. ولكن كيف أبلغ ذلك ، وقد ضربت هذه الدولة عنق أبى مسلم الخراسانى نفسه ، ورمت برأسه الى أصحابه من فوق سور بغداد ؟

فانا أحمد الله على انى مازلت حيا ، وان الخليفة يأذن لى فى أن أكون من المغنين فى سمراته .. ولى من صناعاتى هذه مورد للرزق جمعت منه بالاقصاد والتدبير جملة عظيمة وافرة من المال ، لعل بعض كبار المغنين لم يجمعوا مثلها ، وحذا ما يحملهم على وصفى بالبخل وركوبهم إياى بالسخرية والدعابة فى هذا الشأن ! ..

حتى برصوما الزامر « النافع فى الناي » الاعجمى اللسان الذى يعجز عن  
نطق الكلام ، يبرزأ بنى ويسخر منى ا . . .  
كنت فى مجلس أمير المؤمنين الرشيد ، فأحب الخليفة أن يتصاحك معه  
فأدناه وسأله :

- يا برصوما . . . أخبرنى عنك . . . ما تقول فى این جامع ١٩  
قال برصوما :

- زق من أسل « يريد : من غسل » ا . . .  
قال الرشيد :

- فابراهيم الموصلى ١٩

- بستان من فاكهة . . . وريهان « يريد : وريحان » .

- فيزيه حوراء ١٩ . . .

- ما أبيد أسنانه « يريد : ما أبيض » ا .

- فحسين بن محرز ١٩

قال برصوما :

- ما أحسن خطامه « يريد : ما أحسن خضابه » .

فنظر الرشيد ناحيتى ضاحكا وقال لبرصوما .

- فسلیم بن سلام ١٩ . . .

قال برصوما ساخرا بنى :

- ما أنظف ثيابه ! . . .

وكانت كلمته عنى هى الكلمة الوحيدة التى نطقها بلسان صحيح ا . . .  
ويعنى بها ان كل بضاعتى نظافة الثياب ، أما الفناء فليست من أهله .

فضحك الرشيد ا . . . ثم قال لى :

- غن يا سليم ، وبرصوما يزمر عليك .

فلما أخذت أغنى وبرصوما يزمر ، فاجأنى فى موضع صريحة عالية من  
الدن ، فأخرج الناي من فمه وقال لى غاضبا :

- يا سليم . . . صيحة أشد من هذه ! . . .

يريد برصوما أن يقول : « صح صيحة أشد من هذه حتى يستقيم  
الدن ، ويستقر الصوت على الموضع الصحيح من جواب الصيحة » ا . . .

فكانت تخطئته لغنائى أشد على نفسى من كل شىء ، وسقطت من عين الرشيد  
وصرت له أضحوكة ، فطأق يضحك من كلمة برصوما حتى استلقى على  
قراشه ! . . .

وخرجت من عنده بلا جائزة ، أما برصوما فأجزل له المكافاة ! . . .

## ● اليوم الثاني :

ما زال أصحابنا يتكرون أهزاجي ، ويقولون : انما اخرك عند الرشيد  
كثرة أهزاجك ، وقلة غنائك الثقيل ! ..

ولكن الاهزاج كانت خيرا وبركة لي اليوم ! .

فان الرشيد كان نشيطا مرحا ، فأمرني ان أغنى له بعض الاهزاج ، فبدأت  
بهزج صنعته في شعر للعباس بن الاحنف :

مت على من غبت عنه أسفا  
لست منه بمصيب خلفا  
لن ترى قوة عين أبدا  
او ترى نجوهم منصرفا  
قلت لما شفني وجدى بهم  
حسبي الله لما بى وكفى  
بين الدمع لمن أبصرني  
ما تضحمت اذا ما ذرفا

فرايت الرشيد لما سمع هذا الهزج ، يتحرك كأنما مسه بعض الطرب ،  
فاستبشرت وغنيته هزجا ثانيا :

أسرفت في الاعراض والهجر  
وجزت حد التيه والكبر  
هالي وللهجران حسبي الذي  
مر على رأسي من الهجر  
ودون ما جربت فيها مضى  
ما عرف الخبر من الشر

فرايت الرشيد يزداد طربا ، فأسرعت أغنى هزجا ثالثا في شعر أبي نواس :

أصبح قلبي به ندوب  
أندبه الشادن الريب  
تهاديا منه في التصابي  
وقد علا رأسي المشيب  
أظنني ذائقا حلامي  
وان المامه قريب  
اذا فؤاد شجاء حب  
فقلما يتفع الطيب

فاشتمه طرب الرشيد ، وقال لي : أحسنت والله يا سليم ، ولو كنت حكم  
الوادي ما زدتك على هذا الاحسان في أهزاجك ، يعني ان حكم الوادي كان

متفردا بالاجادة فى الاهزاج .

ثم أمر لى بثلاثين ألف درهم .. فخرجت من عنده أحمل المال وأنا أصعد  
الناس ! ..

### ● اليوم الثالث :

قال أمير المؤمنين للمفنين وأنا فيهم : ليصنع كل منكم لحنا جديدا لمجلسنا  
بعد غد ..

فغدوت الى صديق لى شاعر فقلت له : أريد أن أغنى الخليفة فى شعر  
لم يعرفه من قبل ولم يعرفه أحد من المفنين ، فقل أبياتا ملاحا أغنى فيها ..  
ورددت دابتي الى بيتى مع خادمى ، وأقمت عند صديقى الشاعر ، فنظم  
هذه الابيات :

انيتك عاندا بك منك  
لا ضاقت الحيل  
وصيرنى هواك وبى  
لحينى يضرب المثل  
فان سلمت لكم نفسى  
فها لاقيته جلل  
وان قتل الهوى رجلا  
فانى ذلك الرجل

رأيت الابيات لا بأس بها ، لولا ان البيت الاخير منها مأخوذ من قول  
مشهور لمسلم بن الوليد :

منى ما تسمى بقتيل ارض  
فانى ذلك الرجل القتل

ونشطت لتلحين الابيات ، ولم أر نفسى انشط للغناء والتلحين منى ساعتئذ  
حتى أتممت اللحن ، واستأذنت فى الانصراف ، فقال لى صديقى : الا تأخذ  
ببتين اخريين من الشعر تلحنهما اذا احتجت اليهما .. قلت له : هات .. فقال :

يا بعيد الدار موصولا  
يلقبى ولسانى  
وبها باعدك الدهر  
فادنتك الامانى

فضحكت وقلت لصديقى :

— وهذان أيضا من قول مسلم بن الوليد :

ذاك ظبى تحير الحسن فى الاوكان



**منه وجمال كل مكان  
عرضت دونه الجبال فيما يلقاك  
الا في النوم أو في الاماني**

قال صديقي :

— صدقت ، ولكني والله ما سرقت من شعر مسلم بن الوليد ولا غيره الا  
المعنيين اللذين رأيتهما في هذين القولين ! ..  
فضحكك وضحك ، وانصرفت استعد لمهرجان الغناء في قصر الخليفة ! •

**● اليوم الرابع :**

فزت أمس بجائزة في مهرجان الغناء بقصر الخليفة على كثرة من غنى من  
فحول المغنين ! ولكن جائزتي كانت أقل من ثلث جائزة الموصلي وابن جامع  
ولا أحسدهما ، ولكني والله لم أقصر تنهما في التلحين ولا في الغناء لولا  
البحث والقبول ! .. رزقهما الله بختا وقبولا عند الخليفة ، فهو يطرب لكل  
ما يسمعه منهما ، وقد غناه ابن جامع مرة فأخطأ في بعض أقسام اللحن ،  
فغمز ابراهيم الموصلي جلسه القريب منه وهو ابراهيم بن المهدي - أخو  
الرشيد - وهمس له بحيث سمعته يقول له :

— الا ترى كيف أخطأ هذا الرجل أقبح خطأ يقع فيه ناشئة المغنين ، وهو  
شيخهم كما يزعم !

فقال له ابراهيم بن المهدي :

— هو والله لا يدرك خطاه لانه شرب نبيذا كثيرا فلا يعي ما يغني ! ..  
ولكن الرشيد أجاز ابن جامع في تلك الليلة وغفر له خطاه ، ولو كان هذا  
الخطأ مني لما سلمت من تقيمه ، ولنادى خدeme وقال لهم : « اسحبوا هذا  
من رجليه الى خارج القصر » ! .. وانما هذا كله من سوء بختي •  
جاءني في بكرة الصباح المغني المشهور مخارق الذي يزعم بعضهم انه أجمل  
صوتا من ابن جامع .. أو انه خليفته ..

غنيت مخارقا صوتا لي لم يسمعه من قبل فلبث عندي يشرب ويسمع الى  
الليل ، ثم استأذن متصرفا ، فسألته : اين تذهب الآن ؟ .. قال : اذهب  
الى قصر ابراهيم بن المهدي فقد دعاني الى الصبوح ، فانساني غناؤك  
موعدة ، فانا اذهب اليه الآن ، واعتذر اليه وان كنا في الليل ! ..

فحدثني مخارق بعد ذلك ، قال ان ابراهيم بن المهدي حين رآه ، ولا  
فضل فيه لشراب ولا طعام بعد الذي شربه وأكله عندي ، اغتم لذلك وعاتبه  
على ما صنع وقال له : أما يكفيك أننا ندعوك للصبوح فتجيء الينا وتدع  
من الليل نصفه أو أكثر ؟ .. فقال له مخارق : أيها الأمير .. لا والله ما كان  
أفتي الا سليم بن سلام الكوفي ، فانه غناني صوتا جديدا فاحتجزني ، فقال

له ابن المهدي غننا هذا الصوت فنغفر لك ما صنعت ولا تزد في الصوت ولا  
تنقص بل غننا اياه كما اخذته ..  
فغننا اياه وهو :

اذا كنت نلعاني فيساكر مدامة  
معتقة زفت الى غير خاطب

اذا عتقت في دنها العام اقبلت  
تجر رداء الحسن في عين شارب

فلم يكده مخارق ينصرف بعد ان حدثني هذا الحديث ، حتى جاءني خدم  
ابراهيم بن المهدي بجائزة هذا الصوت الذي سمعه من مخارق ، وقال لي  
الخدام :

— الامير يدعوك ان تلوح هذا اللحن على جواريه ، فانه اعجبه ! ..



## الأيام الجميلة

### اليوم الاول :

طارحت اليوم بعض الحائني ، تلميذى ابراهيم الموصلى حتى حفظها واحكمها ، ولئن عاش هذا الفتى ليكون له شأن ، فانه مطبوع على النساء والتلحين عظيم الموهبة فيهما ، وان كان تلميذى اسماعيل بن جامع أندى منه صوتا .. أتوقع أن يكون هذان أحسن من يغنى ويلحن بعدى ، وسيدخلان قصور الخلفاء ويبلغان الثراء والجاه والشهرة العريضة !

قلت لابراهيم الموصلى مازحا :

- انصرف راشدا فقد أحكمت ما حفظت من الاصوات ، ولكنى لو عشت لك ولزميلك ابن جامع ، ما وجدتما شيئا تأكلانه ! ..

قال لى الموصلى :

- كأنك تمزح ، ولكنك والله صدقت ، فانه لا يسمعك أحد ثم يمبا بى او بابن جامع بعدك !

قمت الى بعض شأنى فى بغداد .. الجو اليوم بارد .. الناس فى ثياب ثقيلة ، الا أبا ريعانه المدنى - صديقى القديم - رأيت جالسا فى الشمس ، عليه ثوب رث ممزق ، فوثب حين رآنى وقال : غنى بلحنك فى شعر ابن جندب :

لكل حمام أنت باك اذا بكى

ودمعك منهل وقلبك يغفلق

مخافة نأى بعد قرب وهجرة

تكون ولما تات والقلب مشفق

ولى مهجة ترفض من خوف عتبها

وقلب بنار الحب يصل ويحرق

اظل خليعا بين اهل عتيما

وقلبي لما يرجوه منك معلق

فملت به الى ناحية خالية الا من رجلين اثنين ، فغنيته اللحن ، فضرب بيده على قميصه الرث الخلق فشق حتى خرج منه وغشى عليه ، ثم أفاق

فرجع الى موضعه من الشمس وقد ازداد بردا وجهها .. فقال له أحد الرجلين  
يا هذا ان صاحبك لذو صوت حسن ، ولكن ما أغنى عنك ما غناك بصوته  
الجميل ، من شئ قميصك ، ووقوفك عريان في هذا اليوم البارد ؟ ..  
فقال أبو ريحانه وانقا بما يقول :

— يا ابن أخى .. ان الشغل الحسن من المغنى الحسن ذى الصوت المطرب،  
أدفا للضرور من حمام الخليفة المهدي اذا أوقد سبعة أيام كاملة ! ..  
فقال له الرجل الآخر :

— أنت عندي من الذين قال الله عز وجل : « فما ربحت تجارتهم ما كانوا  
متهدين » ! ..

قال أبو ريحانه :

— بل أنا من الذين قال تبارك وتعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون  
أحسنه » ..

فلما انتهى الجدل والنقار بين أبي ريحانه والرجلين ، قلت له : انه  
لا يصلحك في هذا البرد الا ثوب صوف ثقيل ، فتعال الى هذا البزاز القريب  
منا في الشارع نشتريه لك ! ..

قال أبو ريحانه :

— لا والله .. قد كسوتنى من حرير غنائك ، فلا البس معه شيئا ! ..

وحلّف صديقى الذى يظنه الناس مجنونا ، ليجلسن فى الشمس ، ليس  
على جسده الا بقايا تلك الاسمال البالية ! .. فلم أكد أبلغ بيتى حتى وجهت  
اليه بقميص وجبة وسراويل وعمامة ! .. فاغبط بها واكتساعا ..

أذكرنى هذا ، ما صنعه أبو ريحانه يوما وقد مرت به جارية على ظهرها  
قربه ، وهى تغنى بصوت أثار قديم أشجانه :

وابكى فلا ليل بكت من صبا

الى ولا ليل لدى الود تبذل

واختع بالغبى ، اذا كنت هذبا

وان أذبت كنت الذى أتفصل

فقام أبو ريحانه الى الجارية فقال : يا سيدتى .. أعيدى ! .. فقالت :  
مولاتى تنتظرنى والتربة على ظرى ، فقال : أنا أحملها عنك ، فدفعتها اليه  
فحملها وغنته اللحن ، فطرب ورمى بالتربة فتسبها ! .. فقالت له الجارية :  
امن حقى عليك ان أغنيك وتشقى قربتى ! .. فقال لها : لا عليك تعالى  
معى الى السوق ! ..

فمضت الجارية معه الى السوق ، فباع ملحفته واشترى بشمينا قربة  
جديدة ، ملاها بالماء وحملها على ظهره الى الموضع الذى قصدته الجارية ! ..  
ثم عاد الى مجلسه يبكى ويردد البيتين اللذين أطرباه !

## ❁ اليوم الثاني :

لا أدري ما أصنع لصديقنا المجنون أبي ربحانة ، فاني مرتت اليوم في التسارع الذي يجلس فيه لا يريم مكانه ، ولا يتعته حر ولا برد ولا مطر ولا ريح ولا هوكب من مواكب الخليفة أو ذوى السلطان .. وقد مر به موكب أحد هؤلاء منذ أيام ، فلم يقف أجلا له ، ووقفه الناس جميعا ، فبصر به أعوان السلطان فاخذوه وضرروه ، وأوهكوا أن يلقوا به في السجن لولا اني علمت بالقصة ، فأسرعت اليهم أشرح لهم حقيقة حاله ، وحدثهم عن جنونه ، حتى أطلقوه ..

وقد مرتت به اليوم فاخذ بلجام دابتي ، وقال لي ضارعا :

- ياسيدي ، بحق القبر ومن فيه .. غننى صوت ابن جندب :

فؤادى وهين فى سوائك ومهجتى

تدوب وأجفانى عليك همول

فقدتته دندنة حتى لا يجتمع علينا الفاس ، وقد استويت على ظهر دابتي كاني أتحدث اليه فلم أكد أتم الناجن ، حتى فضحتني ، فانه لطم وجهه حتى خرج الدم من أنفه ، ووقع على الأرض صريحا فاجتمع الناس ليحملوه ويدرجوه ونزلت اشتغل في أمره معهم ، حتى أفاق ، فلما فتح عينيه ورأى انتفض واقفا ، وخرق جيبته وقمصه وكل ما اشترته له من الملابس الجديدة ..

انصرفت أسفا عليه وقد أيتنت انه لا شفاء له من دائه ، وإن الغناء ينج في قلبه أمرا أشد حرارة من الطرب الذي تعرفه قلوب الناس .. وهذا داء ليس له دواء ، وشفاء صاحبه أن يعيش عمره يتداوى منه بلا شفاء ..

## ❁ اليوم الثالث :

اعتلتل أخيرا .. ذهبت أيامي الجميلة ! ..

عشت عمرى كله قويا لا يصيبني مرض ، فما الذى أرقدنى هذه الرقدة ، ومن أين تسملت الى جسدى هذه الآلام ؟!

زارنى اخوانى أهل صناعتي ، فأنست بهم وقتنا .. ولكن الالم عاودنى بعد انصرافهم ، ثم جاء تلاميذى يسألون عنى .. قال لي كبيرهم ابراهيم الموصلى : أعزز علينا بأن نراك فى هذه العلة يا أبا وهب .. ولو كانت مما يفتسدى لفديناك منها ! .. وقال اسماعيل بن جامع كقول صاحبه وزاد عليه بعض الدعاء ..

قلت لهم :

- أيها الإبناء ، كيف كنت لكم أيام صحتي وعنفواني وأخذنى اياكم بالتعليم والتخريج ؟!

قالوا :

— نعم الأستاذ والسيد ! ..

قلت :

— قد غنيت ستين لحنا من صنعتي ، فأحب الا يفسرها أحد منكم أو يتحللها ! ..

فصمتوا الا الموصلى قال :

— نفعل أبا وجب ان شاء الله ، ونحفظك فيما تترك من صنعتك ، على اننا نرجو أن تكون فداءك ، وتكون أنت بعدنا .

قلت :

— دع ذا عنك ، فوالله انى لاحس دبيب الفناء فى أعضائى وأرانى أموت عضوا فعضو ! ..

فسمعت بكاء تلاميذى ، فلما انقضت ساعة قال لى الموصلى :

— قد حلفنا أن نحفظك فى تراثك من الالحن ، ولكن ماذا كرهت منا ؟ .. أن يكون فى غنائك فضل عظيم فنقص منه ، فيعرفه الناس لك علينا ، أو أن يكون فى غنائك بعض ناص فنحاول تحسينه فينسب الناس احساننا فيه اليك ، ويأخذه من يأخذه عنا على الوجه الذى استحسناه ؟ ..

انصرف تلاميذى .. فساورتنى ذكريات كثيرة قديمة .. ذكرت ، مثلا ، أن الخليفة المهدي كان يشرب يوما ، فصاح فجأة فى أحد حراسه : « جننى بسياط وعقاب وحبال » .. فارتاع كل من كان حاضرا مجلس الخليفة وظنوا انه يريد الايتاع بهم ، أو ببعضهم ، ولم يكونوا يعرفون ذنبهم ، ولكنهم كانوا يعرفون بطش المهدي وسطوته أحيانا بغير حق ! ..

أما الحرس الذى تلقى أمر الخليفة ، فانه فهمه على وجهه الصحيح ، فخرج ثم عاد بعد قليل وأنا معه وورائى صديقى « عقاب » الذى يتولى الضرب والايثاع لى حين أغنى وصديقى « حبال » الزامر الذى يزمر لى عند الفناء ، وكلاهما يارع فى صناعته ! ..

فلما وقفنا بين يدى الخليفة فهم جلساؤه انه كان يعبت بهم ، فجعلوا يضحكون فى اكمامهم ونسمع شتائمهم لنا ! .. ويهمس بعضهم لبعض : هؤلاء سياط وعقاب وحبال ! ..

وأمرنى المهدي فى ذلك اليوم فغنيت ، وضرب عقاب فأحسن الضرب ، وزمر حبال فأجاد الزمر ! ..

ما أكثر الذكريات ، وما أوجعها اذ تمتدنى فى هذه الساعة ، وقد بلغت الروح الحلقوم ! ..

### ● اليوم الرابع :

هذا اليوم لم يكتبه سياط ، بل كتبه تلميذه المطرب الكبير ابن جامع ،

بعد أن شيع هو وأصحابه استأذهم إلى مقره الأخير ..

قال ابن جامع :

دخلت على سباط في مرضته الأخيرة أعوده .. رأيت يدخل في النزاع .  
فاستعبرت وانتحيت فالنفت نعوى وقال بصوت متقطع خافت : « لا تزيدوا  
في غنائي شيئا ولا تنقصوا منه شيئا .. دعوه رأسا برأس .. فانما هو  
ثمانية عشر صوتا » ! ..

قلت له :

- كنت قد سمعتك تخبر الموصلي ان غناءك ستون صوتا ! ..

فلم أسمع منه ردا .. لقد قضى الامر ! ..

بحشت عن والدته في منزله فلم أجدها في تلك الساعة ، وكان يعيش  
معه ، وجاء بعض أصدقائه ، فشاهدوا معي موته .. ثم جاءت أمه ، فقالت :  
أمات سباط ؟ .. قلنا : رحمه الله ! .. فلم تزد على أن قالت : هكذا  
مات أبوه فجأة ! .. قلنا : ولكنه مريض منذ حين ! .. قالت : انه كان  
يمرض ثم ينهض ، حتى جاءت هذه المفجأة كما جاءت أباه من قبل ! ..

فلم نجد خيرا في الكلام معها ، فقد خرفت هذه المعجوز ..

وقمنا فأصلحنا أمره ودفناه رحمه الله ! ..

قال ابن جامع : « وقد سمعت المفتين وأخذت عنهم وتفقدت أغانيهم فما  
رأيت مثل سباط قط » ! ..

فید جیفر

ن قعدیر

پیشتر





## دموع مستيم

### ● اليوم الاول :

اسمى « بَذل » أبذل للناس فن الغناء كما يبذل الكرام أموالهم للمحتاجين! يصفنى شيوخ فن الغناء بأننى أحسن الناس غناء فى هذا الزمن ، ويزعمون انى أستاذة كل محسن ومحسنة من المغنين والمغنيات الآن ، وانى أعظم رواة الغناء العربى القديم من أيام طويس فى عهد عثمان بن عفان فى المدينة المنورة الى أيام الموصل فى بغداد ..

اشترانى الامير جعفر بن موسى وأنا صبية صغيرة .. وفى قصره تفرغت للغناء وسمعت أكابر المغنين ، ورويت عنهم الحانهم والحان الاقدمين ونبغت وصرت أشهر مغنيات بغداد .

ولما تولى الخلافة محمد الامين بعد أبيه هارون الرشيد ، أراد شرائى من ابن عمه الامير جعفر . - وهو ابن الخليفة الاسبق موسى الهادى رحمه الله - فأبى جعفر أن يبيعنى للامين ، فاحتال عليه حتى اختطفنى من منزله وانصرف بى الى قصر الخلافة ..

وفى اليوم التالى بعث اليه الامين فجاء وأنا جالسة بين يديه ، فلم يتكلم جعفر بشئ ، وكظم غيظه ، ثم قام متصرفا فصاح الخليفة فى الخدم - أوقروا سفينة ابن عمى دراهم ! -

فانطلق الخدم الى سفينة جعفر التى كانت راسية على شاطئ دجلة تحت شرفات قصر الخليفة وملاوها بقناطير من الدراهم ، ونظر جعفر الى سفينته مشحونة بالاموال . فنسيتنى وانطلقت به فى مياه دجلة حتى ألقى مراسيها قرب قصره .. وأسرع خدمه ينقلون منها الى خزائنه الاحمال الهائلة من المال .. فلما فرغوا من نقلها وجدوها قد بلغت عشرين ألف ألف درهم ! .

فأنا أغلى الجوارى المغنيات ثمنا فى تاريخ الغناء كله ، ولا يقع فى وهم مغنية مهما كانت جميلة بارعة أن يشتريها خليفة أو أمير بعشر معشار هذا المال الجليل الذى اشترانى به محمد الامين .

### ● اليوم الثانى :

بلغت عند الخليفة الامين غاية الحظوة .. أعجبه غنائى حتى كاد يطير

بليه .. أعجبه جمالي .. راقته شمائل في جميع الاحوال ولكن الايام ركضت بنا كالخيول الجامحة ، فسرعان ما تولى السرور ، وأقبلت الحوادث المزعجة ، فالجرب دائرة منذ مدة بين الامين وأخيه المأمون .. أراد الامين أن يعزل أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لطفل صغير ولدته إحدى جواريه ، وقد نصحته الا يعزل أخاه فلم ينتصح ، وبصرته بالعواقب فابى أن يتبصر .. وما نحن أولاء نجنى معه الثمرة المرة لعناده ! .. فجيوش المأمون افتحمت أبواب بغداد ، وشرعت تزحف على قصر الامين تطلب رأسه ! ..

فرز الامين فرعا شديدا حين اقترب جنود المأمون من قصره ، وخلق ثيابه حتى صار عاريا الا من سروال قصير ، ورأيت جنديا اسود الوجه يجري وراءه ، والخليفة يصيح :

— الله .. الله في دمي ! لا تقتلني فانا ابن عم رسول الله .. جلدى العباس بن عبد المطلب ، وأبى هارون الرشيد ، وأخى المأمون ! ..

ولكن العبد الاسود هجم عليه مصلتا سيفه فوق عنقه ، والامين يصيح في العبد مذكرا اياه بنسبه وحسبه ، حتى سقط رأسه على الارض وسيف العبد الاسود يقطر من دمه ! ..

### ● اليوم الثالث :

تغيرت الدنيا بعد زوال دولة الامين وقياسام دولة المأمون .. ليس لي مورد رزق الآن ، ونفقتي من مدخراتي ، فقد وهب لي جعفر بن الهادي ومن بعده محمد الامين مقدارا عظيما من الجواهر الثمينة ، وأنا أبيع من هذه الجواهر شيئا بعد شيء وأعيش من ثمنه ! ..

وقد لبث المأمون مدة في بلاد فارس ، ولم يعد الى بغداد الا أخيرا ، ويقال انه على علمه وفضله وديانته ، دموى المزاج ، وكذلك كان أبوه الرشيد وجده المهدي ، يتذكرون الله فتنهمر دموعهم على خدودهم ، ثم يقتلون أقرب الناس اليهم بلا رحمة ! ..

والا فكيف يعقل انسان ان خليفة استودعه الله دماء الناس ، وحرّم عليه سفكها الا بالحق ، يقتل شاعرا من أجل بيتين مدح بهما رجلا يستحق المدح!

لقد مدح الشاعر علي بن جبلة ، قائدا من قواد المأمون ، هو القاسم بن عيسى أبو دلف ، المشهور بالثباجعة والكرم والرفقة ومعرفة الغناء وقول الشعر ، فكان مما قاله ابن جبلة :

انما الدنيا ابو دلف

بين مفضّاه ومختصره

فإذا ولي ابو دلف

ولت الدنيا على اثره

كل من في الارض من عرب

بين باديه الى حضره

## مستعير منه مكرمة

### يكتسبها يوم مفتخره

بلغت هذه الايات المأمون ، فأحفظته على الشاعر ، وملاته عليه حقدا ،  
فأمر بأن يسجل لسانه من قفاه ! ..

الى هذا الحد بلغت وحشية المأمون الذى تذرف عيناه أحيانا من خشية  
الله ! ..

ان ابن جبلة لم يكن يقصد بطبيعة الحال ان يضع الخليفة المأمون فى جملة  
العرب الذين ذكر الشاعر انهم يستعيرون من مكارم أبى دلف كسوة لهم ،  
بل كان يقصد عامة العرب ، من غير بيت الخلافة ، ومن غير بنى هاشم ،  
وانما ذكر ابن جبلة العرب ، لان ممدوحه أبى دلف العظيم عربى خالص  
النسب ، والشاعر يتوه بذلك لان كثيرا من قواد جيش المأمون هم من الفرس  
والترك والاجناس الاخرى ..

والمأمون من أبصر الناس بالشعر فلا يفوته ان الشاعر لم يقصده بما قال  
لان للخليفة محلا رفيعا فوق العرب والعجم ، ولكن المأمون حسد قائده أبى دلف  
على الشعر البليغ الذى قيل فى مدحه وتناقله الناس وطبق الافاق ، فأسرهما  
فى نفسه للشاعر البريء المسكين حتى قتله شر قتله .. ولم يشف غليله الا  
ان ينزع لسانه من قفاه لا من فمه ! ..

وما سمعنا ان قطاع الطرق بين بغداد والبصرة ، أو بين البصرة والاهواز ،  
يفعلون مثل ذلك بمن يسقط فى قبضتهم ! ..

## ● اليوم الرابع :

استدعاني المأمون ، وأمرني أن أتردد على قصره من حين الى حين ، أغنى  
له وأطربه كما كنت أطرب أخاه الامين .

وكثرت زياراتي لقصر الخليفة حتى صارت لى فيه مقصورة أبييت فيها  
وتقوم الجوارى على خدمتى .

وتبسط معى المأمون حتى صرت أمارحه وأقلب فى غنائى بعض كلمات  
الشعر الى كلمات تخدش الحياء ، تفكها وتظرفا ، فيضحك المأمون ويسره  
ما أفعل ويجيبني بكلمات مثلها ، أو أشد منها تعبيرا عن واقع الحال الذى  
نحن فيه ! ..

لم يمشقنى المأمون ، بل أعجبه غنائى وطرفى لا أكثر ، أما الذى عشقنى  
حقا فهو القائد على بن هشام ، وهو من أعظم قواد جيش المأمون ..

وقد تصنعت الغضب عليه منذ أيام فشكاني الى المأمون ، فأمره بأن يزورنى  
فى بيتى ويسترضينى ! ..

فلما دخل بيتى وقف على مقربة منى فلم أكلمه ، فقال لى ضارعا

- انى جنتك يا بذل بأمر أمير المؤمنين ، فقد سألتى عنك فقلت له : مى

غضبي لا تكلمني ! .. فقال لي : فبحياتي عليك يا ابن هشام لا تدخل منزلك حتى تذهب اليها في منزلها فتسترضيها ! ..

فقلت لعل بن هشام :

— ان كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أرضى عنك ! ..

فقال لي :

— يا ستي ! .. لقد كذب الوشاة على عندك ! .. ولن أنسى ما حييت اني جئت أسلم عليك أمس فلم تأذني لي بالدخول ، ولمحت الوشاة جالسين من حولك .. وما وجدت الا الشعر أخفف به من وجدي ! ..

فسأله أن ينشدني هذا الشعر ، فقال :

ومما شجاني اننى يوم ذرتكم

حجبت واعدائي لديك جلوس

فان ذهبت نفسى اليكم تشوقا

فقد ذهبت للعاشقين نفوس

### ● اليوم الخامس :

أنا لا اغار من تلميذتي « مقيم » الجارية الجميلة المغنية الحاذقة ، التي تعلمت على يدي شيئا كثيرا ، وعلى يد اسحاق الموصلي شيئا أكثر ..

ان كل من يراها ويسمعاها يقول انها أحسن الجوارى وجها وغناء وأدبا ، ويعترف لها اسحاق الموصلي الذي لا يعترف لاحد بشيء ، أنها أحذق المننيات والمغنين جميعا في التلحين .. وقد سمعها الباردة فى سهرة بقصر على بن هشام ، فطرب وشرب وصفق ونعر ، ثم نهض يصيح وقد تملكته النشوة التي قلما تتملكه :

— يا مقيم .. انت أنا .. فمن أنا ؟ ! ..

كانه يريد أن يقول لها ان محلها فى صناعة التلحين والغناء قد صار مثل محله ، وانها تساويه فى التقدم والعبقرية ! ..

وهذه شهادة لها من اسحاق ، لو عرضوه على السيف لما أعطاهما لاحد غيرها ! .. فانه كثير التيه على أهل صناعته ، كثير التحامل على المغنين والملحنين ، مسرف فى حظ درجاتهم ! ..

وقد أخذت « مقيم » مكانى فى قلب على بن هشام ، ولست أكره ذلك ، فانا أغنى لكل الكبراء فى هذه الدولة ، وبخاصة الخليفة ، ولا أريد أن أعرف بالميل الى على بن هشام خاصة ، فهذا يضره ولا ينفعنى .

وعلى بن هشام شديد التعلق بمقيم ، يرى أنها دنياه كلها ، ويضن بها على سهراته التي تغنيه فيها الجوارى وحوله جلساؤه ، فاذا أراد سماع « مقيم » اقتصر مجلسه على خواصه من المغنين كاسحاق الموصلي ! ..

ولكن ندماء المأمون سمعوا عذبا ، فوصفوا للمأمون روعة غنائها ، وحلاوة وجهها ، فتلطف ذات ليلة الى ابن هشام وطلب اليه أن يحضرها الى قصره ليسمعها ! ..

فلما سمعها المأمون ، طرب لها طربا شديدا ، وحلت من قلبه محلا رفيعا ، فسأل ابن هشام أن يهبها له ، فتجاعل الرجل سؤال الخليفة كأنه لم يتنبه اليه ، وأخذ جاريته وعاد بها مسرعا الى منزله ! ..

وسادت العلاقات بين المأمون وقائده الكبير منذ تلك الليلة ، فان هذا الخليفة الذي سمعت بعضهم يصفونه بأنه من رجال الفكر والفلسفة ، يختزن في أعماقه ميراث الملك العضوض ، أو الملك العقيم ، فيجفو أقرب الناس اليه لذنوب طفيفة قد لا تكون ذنوبا ولا حتى هنات هينة جدا ، ولكنها تملؤه حقدا على أصحابها حتى يشتهي أن يرى دماءهم البريئة تجري بين يديه ! .. ولكن أنسى ما حييت ما صنعه مع علي بن جبلة الشاعر المظلوم !

### ❶ اليوم السادس :

زارني اليوم علي بن هشام ، والهيم يبدو في وجهه وقال لي :  
- يا بذل .. قد احتجت الى نصحك ورأيك في أمر أعمى وأطار النوم من جفوني ! ..

سألته مشفقة :

- وما ذاك يا علي ١٩ ..

- متيم ! ..

قلت جازعة :

- ماذا جرى لها ١٩

قال وقد أغمض عينيه متفكرا واجبا :

- المأمون يلج في طلبها .. يريدني أن أميها له ! ..

قلت له بعد لحظة تفكير :

- يا علي احرص على ان تعلق متيم منك حتى تحبل ، فيياس المأمون منها .  
فانه لا يحب الجوارى ذوات الاولاد ! ..

وليتني ما نصحتني ، فما كاد المأمون يعلم بعد حين ان « متيم » قد حبلت ، حتى غضب وفهم ان ابن هشام قصد أن يصرفه عن الجارية ، وأضمر له الشر ..

وقد وقع الذي كان علي بن هشام يجذره ، وكنت أحذره أنا أيضا وجميع من يعرف كرم هذا الرجل وشهامته وطيب أخلاقه ! ..

ان المأمون الذي أخرج لسان الشاعر من قفاه ، قد عاودته دموية الملك

المضوض ، فأمر بقتل على بن هشام متذرعاً بأمره لفنائه له تليفياً .

ثم زاد على قتله فأمر بمصادرة أملاكه وأمواله ! ..

وركبه الحق على القصر الذى كان ابن هشام يعيش فيه مع مقيم ، فأمر بأخراجه فأخربوه وأحرقوه حتى صار أطلالا تثير الحزن ! ..

ثم بلغ حقه عليه ، بعد قتله ومصادرته وتخريب قصره ، أن أصدر أمراً قاطعاً بالآ يقف أحد على أطلال القصر المخرب ، ولو لمجرد العبرة والعظة بأحوال الدنيا وتقلبات الأيام ! ..

فمرت مقيم مع بعض الجوارى بالقصر ، فرأته قد علت أطلاله الاتربة ، ونسج العنكبوت خيوطه ، وطرحت فى أفنية القصر المزابل ، فتوقفت تبكى عنده بهذه الأبيات :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله

حاشا لأطلالك أن تبلى

لم إبك أطلالك لكنتى

بكيت عيشى فيك اذ ولى

قد كان لى فيكأ هوى مرة

غيبه التراب وما ملا

ثم بكى مقيم حتى سقطت على الأرض ، وجعلت الجوارى يتأشدها ويقفن لها : الله ! .. الله فى نفسك يا مقيم ، فانك ان توقفت هنا جاءت الشرطة فأخذتك وعوقبت أشد عقاب لمخالفتك أمر الخليفة ! ..

ثم انتزعتها من ذلك المكان قبل أن يراعا جنده الخليفة متلبسة بالوقوف على أطلال قصر الرجل الذى أحبها وأحبته ! ..

## مطرب عظيم .. ولكن..

### اليوم الاول :

لا أدري أين أهرب من لقبى هذا الكريه ! .. فانا ذو اسم جميل يحبه الناس ويحترمونه .. وكنتى أيضا طيبة ، ولكن لقبى يجعل بعض الناس يضحكون أحيانا ، حتى أصدقائى ومعارفى الذين اعتادوا لقبى هذا يتسمون أحيانا ضاحكين منه ! ..

اسمى محمد بن حمزة بن نصير ..

كنيتى « أبو جعفر » ..

لكن لقبى « وجه القرعة » !

وكثير ممن يخاطبونى ، لا يستعملون الا لقبى هذا !

وأنا - والله - أحد المغنين الحذاق الضراب الرواة ، يعترف لى جميع أهل صناعتنا بذلك ، الا من حسدنى أو جهلنى أو جحدنى حقى ! ..

أخذت صناعة الغناء وأسرارها عن شيخ المغنين والملحنين ابراهيم الموصلى، وأخذت أيضا من آخرين فى طبقتة ، واعترف لى الموصلى وطبقته بجمال الصوت ، لا عيب فى صوتى ولا غنائى ، الا اننى كنت وما زلت اذا غنيت الهزج لم أتحكم فى غنائه فيخرج صوتى عن الصواب فى أدائه ، لسبب لم أكن أدريه ولا أدريه حتى اليوم ! .. سألت عنه أستاذ أهل الصناعة - الآن - اسحاق الموصلى ، فقال لى هى آفة تعرض للحس أو الطبع ، فى جنس من أجناس الغناء ، فلا يصح له اللحن مهما اجتهد !

قلت له

- وما أصنع فى هذه الآفة يا سيدى ؟!

قال

- تترك غناء الاهزاج ، وتقتصر على الغناء الثقيل ، فانه هو الغناء حقا !

ما زلت أذكر أول مرة سمعنى الموصلى الكبير وابنه الموصلى الصغير ، أعنى ابراهيم واسحاق الموصليين ، فقد سال ابراهيم ابنه بعد أن سمعانى يومئذ وكنت شابا صغيرا

- ما رأيك فى غناء هذا الغلام ؟!

قال اسحاق

— لن يبلى فن الغناء ما دام مثل هذا الغلام الموهوب ينشأ فيه !

### ● اليوم الثانى :

كنت اليوم فى مجلس بعض الهاشميين فى بغداد ، فجاء اسحاق الموصلى  
٠٠ ولم يطلب منى أحد أن أغنى لأنهم يعلمون اننى اذا سئلت أن أغنى ،  
أبيت ذلك كل الآباء ، فإذا أمسكوا عن سؤالى ، وطال أمساكم عنه ، كنت  
أنا المبتدئ بالغناء

وكذلك كان فان القوم أمسكوا عن سؤالى الغناء ، حتى طلبت العود  
فأتونى به فغنيت لحنا من صنعة اسحاق الموصلى كأننى أحياه وأعلى  
مكانته لحضوره فى المجلس :

مر بى سرب طباء  
وانعاج من قباء  
زمرنا نحو المصل  
يتمشين حدائق  
فتجاسرت والتيت  
سراييل الجياء  
وقديما كان لهوى  
وفتونى بالنساء

فأحسننت والله أداء هذا اللحن وجعل اسحاق يشرب ويستعيدة حتى  
شرب ثلاثة أرتال ٠٠ ثم قال

— أحسننت يا غلام ٠٠ هذا الغناء من صدوتى ، ولكنك تتقدمنى فى أدائه !  
كانت هذه شهادة كبرى من اسحاق الموصلى لا يظفر بمثلا منه كبار  
المغنين المشهورين الذين يفتنون للخلقاء .

### ● اليوم الثالث :

جلست مع بعض الهاشميين فى بستان بضواحي بغداد ، فغنيتهم

يا دار القفر وسورها  
بين المحصب والحجون  
يا بشر انى ، فاعلمنى  
والله مجتهدا يمينى

فاذا برجل راكب على حمار ، يقصد إلينا وهو يصيح  
— أحسننت يا وجه القرعة ٠٠ أعنى أحسننت يا أبا جعفر ! ٠٠ أحسننت  
والله !



فقال القوم للرجل :

— ادخل الينا كأننا من كنت ! ..

فدخل يقول :

— لو منعتموني الدخول لما امتنعت ! ..

كان الرجل ملثما ، فسفر اللثام عن وجهه فاذا هو أمير المغنين أبو المهنا  
مخارق ! ..

فاحتفى القوم به ، وأكرموه ، وسروا به سرورا عظيما ، وقمت فمناقته  
وقبلت رأسه ، فقال لي :

— يا أبا جعفر .. أعد علينا صوتك ! ..

فأعدت اللحن مجتهدا متحفظا ، حتى أحسست اني أتيت فيه بأجمل شيء ،  
قطرب مخارق وطرب الهاشميون . وقال لي مخارق :

— لولا اني مدعو الخليفة ، وقد حان موعد الدعوة ، لأقمت استمع الى هذا  
الغناء الذي هو أحسن من الزهر في هذا البستان ! ..

ثم أنصرف مخارق ليفني في مجلس الخليفة ، وبقيت أغني في البستان ،  
وقد ارتفع قدرى عند الهاشميين الذين سمعوا ثناء مخارق على غنائي ، وهو  
من هو في شهرته ومكانته في الغناء ، ومحلّه في مجلس الخليفة لا يحمله  
أحد ! ..

### ● اليوم الرابع :

قصصت دار اسحاق الموصلى أعوده في مرض أنكهه ، فصادفت عنده  
مخارقا وعلويه واحمد بن المكي وغيرهم من أهل صناعتنا ، يتحدثون ، فاتصل  
ببعض الحديث وتفرغ شجونا ، حتى عرض عليهم اسحاق أن يقيموا عنده  
ذلك اليوم ليخرج بهم من ضائقة المرض ! ..

وجيء بالنبيذة فوضع بين أيديهم .. وأخذوا في الغناء واحدا بعد الآخر ،  
فغنى علويه لحنا من الغناء القديم ، فلما رأيته يخرج في آلاؤه عن وجهه  
الصحيح خالفته فيه ، وطال جدالنا — وأنا وعلويه — في ذلك ، وإن علويه  
لذو مكابرة ولو كان الحق واضحا ! ..

لم يتكلم اسحاق الموصلى .. ظل يتابع المناقشة في صمت كأنها لا تعنيه ،  
وإن كان لم يفته حرف منها ، ولم ينتصر لي ولا لعلويه ، فتحاكننا اليه ..  
فامتنع من الحكم ، وقال :

— انتما في بيتي ، ولا أحب لكما التنازع في هذا الصوت ولا في غيره .  
فقال له علويه :

— يا أبا جعفر .. قد احتكمتنا اليك ، فاحكم ! ..

فصمت اسحاق ولم يتكلم ، واستحثه علويه فى لجاجة يعرفها عنه  
عارفوه جميعا فقال اسحاق :

— يا علويه .. قد حكمت لمحمد ! ..

فازداد علويه لجاجة ، وراجع اسحاق فى حكمه ، فردده اسحاق قائلا فى  
صوت المريض الواهن :

— حسبك ، فوالله ما فيكم أدري منه بما يخرج من رأسه ، من هذه  
الصناعة ! ..

ثم غنى أحمد بن يحيى المكي : « قل للجمانة لا تعجل بأسراج » .. فلما  
فرغ من غنائه ، قلت :

— هذا اللحن لمبعد ، ولا يعرف أحد لمبعد هزجا غير هذا ..

فقال أحمد المكي كأنه يسخر :

— أما على ما شرط أبو محمد اسحاق الموصلى من انه ليس فى جماعتنا هذه  
من هو أدري منك بما يخرج من رأسه فلا أعارضك يا وجه القرعة ! ..

فقال اسحاق لأحمد بن المكي :

— يا أبا جعفر ، ما عنيتك والله فيما قلت آنفا .. ولكن قد قال لك  
أبو جعفر محمد بن حمزة ، انه لا يعرف لمبعد هزجا غير هذا ، وكلنا نعلم أن  
هذا الهزج لمبعد ، فجيء أنت بهزج آخر له ، مما لا يشك فيه العرفاء  
بالصناعة ! ..

فوجم أحمد بن المكي .. ثم قال :

— صدقت والله يا أبا محمد .. فما أعرف لمبعد هزجا آخر لا يداخلى  
شك فى نسبته اليه ! ..

فانتصرت على أحمد بن المكي وعلى « علوية » فى تلك الساعة .. ورأيت  
مخارقا — وهو لى صديق — يبتسم كأنه شامت فى علويه وابن المكي ، وما  
أكثر شاماتة المفتين بعضهم فى بعض ! ..

### ● اليوم الخامس :

دخلت على اسحاق الموصلى مهتئا بالسلامة من علته التى كان فيها ، فلما  
يعود فغنيت أصواتا للقدماء وأصواتا لآبيه ابراهيم الموصلى — رحمه الله —  
وأصواتا له هو ، أغنى اسحاق ، فى ايقاعات مختلفة ، فوجه خادما الى  
جوارى أبيه المفتيات ، فجنن وجلسن وراء الستار يسمعننى ! ..

فبلغنى أننى لما انصرفت قال اسحاق لجوارى أبيه ولجواريه :

— ما عندكن فى هذا الفتى ! ؟ ..

فقلن :

— قد ذكرنا به والله أباك فيما غناه ! ..

فقال لهم :

— صدقتن ! .. انه والله لغن محسن ، ولكنه لا يصلح للمطارحة ، لانه يزيد في أصول الالحن من ارتجاله ، فلا يعرف من يأخذ عنه أين أصل اللحن وأين زوائده .. فهو لهذا لا ينتفع به في الرواية .. ولكنه مضر مطرب لا نظير له ، وان كان قليل الحظ عند الخلفاء ، وليس الاستحقاق للحظوة عندهم ، الا ضربا من الحظ أحيانا ! ..

واسحاق كثير النقد لمن يتزيدون في أصول الالحن ويضيفون اليها من ارتجالهم ، لانه ملحن أكثر منه مطربا .. فدفعه ذلك الى الحرص على أصول اللحن ، ولكن المطرب ذا الصوت الجميل المتمكن .. يفتنى أصل اللحن ، ثم يضيف اليه ما يقدر عليه من ارتجال زيادة في اطراب السامعين ، والا فكيف يظهر فضل مغن على مغن آخر ، كلاهما يروى اللحن على أصله !؟ ..

على ان اسحاق يحق له الحرص على الدقة في رواية الالحن غير محرفة عن أصولها ، لان الغناء العربي انما قام على هذه الاصول ، ولو اختلفت الرواية لاختل هذا الفن وتهدم .. ولا سبيل الى تثبيت هذه الاصول الا بالرواية الصحيحة .. غير أن المطرب الراوية المتمكن يؤدي الغناء بأصوله حتى تثبت عند من يحب أن يرويها ، ثم يضيف اليها من ارتجاله ما شاء بحيث يعرف سامعوه ذلك ، ويميزون الاصل من الارتجال ! ..

ولكن هذا قلما يتاح ! .. واسحاق على حق في تشدده ! ..

### ● اليوم السادس :

زرت مخارقا في منزله ، فصادفت عنده كثيرا من المغنين ، فلما رأوني تفاقموا ، وتهامسوا : قد جاءكم وجه القرعة ! ..

فلم أبال بهم ، وسلمت على مخارق ، فأقبل مرحبا بي ، وبسط لي وجهه .. ثم قال :

— يا أبا جعفر .. ان جواريك « اللواتي في ملكي » قد تركن الدرس من مدة ، فأحب ان تدخل اليهن ، وتصلح من غنائهن ، وتذكرهن ما نسين من دروس الغناء ! ..

ثم صاح مخارق بخدمة ، فسموا بي يدي الى الجواري ، فأتمت عندهن ما سألتني مخارق .. ثم خرجت اليه وأولئك المغنون عنده ، فأعلمته بما صنعت ، فشكرني وأجلسني الى جانبه .. فأقبلت على المغنين فقلت لهم :

— قد رأيت غمزكم ولمزكم ! .. فهل فيكم أحد رضى أبو المهنأ مخارق — أعزه الله — حذقه وأديه وأمانته ، ورضيه لجواريه غري ؟ .. وهل رأيتم رقتيه وظرفه حين قال لي : « جواريك اللواتي في ملكي » .. وانصأ هن جواريه هو ، وهن ملك يمينه ، ولكنه يتطلف في الكلام شأن كرماء الناس وأشرافهم .. وقد رأيتمكم تغمزون وتلمزون كالسوقة ! ..

فصمت المغنون جميعا من فرط خزيهم ، ولم يحبروا جوابا ، كأننا القمتمهم حجرا ! ..

## سوق الغناء الطنبورى

### اليوم الاول :

حظى طيب والحمد لله ، ففى عصرنا هذا لا يحصل المغنى اذا كانت آلتة التى يضرب عليها هى الطنبور ، الا القليل من الرزق ، فى حين اتسعت الدنيا للمغنيين الذين يلحنون على مقتضى نغمات العود ، ثم لا يتركون العود من أيديهم ابدا حين يلحنون او يغنون ! ..

العود سيد آلات الضرب .. من أجاد الضرب عليه ، أجاد التلحين اذا كان موهوبا فيه ، وهذا اسحاق الموصلى ، يتيه على الخلفاء والامراء والكبراء بالحنانه ، ومكانته فى الدولة أعلى من مكانة حاجب الخليفة أو وزيره .. وكل ما اكتسبه اسحاق انما اكتسبه بعلمه الغزير فى « العود » ومذاهب الغناء عليه قديما وحديثا .. أما صوته اسحاق فكل صوت غيره احسن منه أو مثله .. ولولا صناعته الفائقة فى التلحين ، وأداؤه الفذ فى الغناء ، لما بلغ شيئا مما بلغه ، أبناؤه الله ورعاه ، فانه والله رجل تقى ورع صالح الاخلاق ، لولا اشتهاره بالغناء لتولى القضاء أو الوزارة ، وهو رأس صناعة الغناء الآن ، وأستاذ كل من يتعاطى هذه الصناعة من مغنين ومغنيات ! ..

لكنى أعتب عليه لانه يقول : غناء الطنبور باطل كله ، ولا يتعاطاه الا من عجز عن الغناء المتقن على العود ..

ولا انكر ان أكثر من سمعته من الطنبوريين ليسوا على شئ من العلم بالصناعة ، لكن هؤلاء يغنون فى الاسواق والافراح والولائم ومسهرات السوق فقط ! ..

أما أمثالى ، فلا يقل قدرهم شيئا عن أقدار المغنين على العود .. وقد سمع الخلفاء بعض الطنبوريين ، وأنا أكبرهم حظوة عند الخلفاء ، ولا اعلم أحدا يتافسنى فى الغناء على الطنبور فى بغداد أو فى غيرها من مدائن الاسلام ..

ولكن صناعتي مع حذقي فيها ، لا تقوى على مزاحمة فحول الغناء فى بغداد .. وكيف أراحم هذا الحشد من المغنين والقيان ، مشهورين ومغمورين ومن جميع الاجناس والالوان .. امتلأت بهم بغداد حتى لم يعد فيها لامثالى موضع قدم ! ..

ما من كبير ولا امير ولا صاحب مال فى هذه المدينة الا لديه الجسوراء المغنيات أو الغلمان المغنون ، حتى لتنبعث الاغاني والاهاريج ليلا ونهارا من

النوافذ والشرفات في هذه المدينة التي التقت فيها أربعة أركان الدنيا ! ..  
ولما وجدت الامر كذلك ، وأن استخلاص الرزق هنا صعب جدا ، يريق  
ماء الوجه .. قلت في نفسي : ما مقامك يا أحمد بن صدقة في بغداد ،  
ودميتق أطيب لك ، والرزق فيها ميسور موفور ؟! ..

حملت متاعى القليل ، وأخذت طريقى الى الشام ، حيث لا يوجد المئنى  
البارع الا فى النادر ، ، وحيث أستطيع أن أغنى بالطنبور وأرتزق وأغتنى،  
ويقول عنى الناس : ما فى الدنيا من يغنى على الطنبور مثل أحمد بن صدقة

## ● اليوم الثانى :

ها هم أولاء يتذكروننا بعد نسيان ! ..  
أقمت بالشام ما أقمت ، وطننت ان العراق لا يحتاج الى طنبورى ، حتى  
جاءنى رسول من الخليفة المأمون يقول لى :

— أمير المؤمنين يدعوك ..

قلت

— السمع والطاعة ! .. وأنا على الاهبة ! .. ثم سألت رسول الخليفة  
متلطفاً

— كيف خطر اسمى على بال أمير المؤمنين أعز الله نصره !؟ ..  
قال يكبرياء :

— جاء اسمك فى معرض حديث عن الطنبوريين الحذاق ، فوصفوك لأمير  
المؤمنين ، فأمرنى بإحضارك ! ..  
هكذا عدت الى بغداد !

سمعنى أمير المؤمنين المأمون ، فاستحسن غنائى ، وأجزل صلتى ، وعرف  
الامراء والكبراء انى أعجبت الخليفة ، فأكثروا من دعوتى للبقاء فى قصورهم  
فكسبت منهم أضعاف ما كسبته من الخليفة ! .. ولو لم يرفع الخليفة من  
قدرى ما عرف قدرى أحد من هؤلاء ..

الا أن بعض حسادى يزعمون أن فى بغداد من يسساوينى او يفوقنى فى  
الغناء على الطنبور ، ويذكرون مفتيا طنبوريا اسمه « المسدود » .. سمعته  
فعرفت تقصيره فى الصناعة ، ويذكرون أيضاً عبيدة الطنبورية ويزعمون أن  
اسحاق الموصلى قال لما سمعها : « غناء الطنبور اذا تجاوز عبيدة هذيان » !  
.. ويزعمون كذلك ان الامير ابراهيم بن المهدي قال : « غناء الطنبور كله  
باطل الا من أبى حشيشة » ! ..

وان أبى حشيشة لمغن طنبورى قدير جميل الصوت ، لكنى لست أقل منه  
صوتا ولا صناعة ، وقد غنى للخلفاء والامراء فراجت بضاعته ، وأما أنا  
فاقمت بالشام بعيداً عن شاصمة الدولة فأخملنى هذا البعد عنها ، وتقدمنى  
من كنت جديراً بأن أتقدمه ! ..

أما عبيدة الطنبورية ، فلا أنكر أن لها صوتا وفنا فى الغناء بالطنبور ، بل هى أفضل عندى فى هذا الفن من أبى حشيشة ، وقد شهد لها اسحاق الموصلى بالحدق ، ولم يشهد لابی حشيشة ، وحسبها بشهادة اسحاق ! ..

الا أن عبيدة الطنبورية على اعتراف الطنبوريين لها بالرياسة والاستاذية، امرأة متبذلة بلوك العامة سيرتها ، ويرون تهالكها على الرجال .. وقد أرخصت نفسها كما أرخصت صناعتها .. ولو كانت هذه المرأة جارية مشتراة من سوق الرقيق لصانها سيدها ، وكان لها شأن فى الغناء عند الخلفاء .. ولكنها خرجت تقنى وتعمل بين الناس وهى حرة لم يمسها الرق ، فهان أمرها على الاحرار والارقاء ، وصار أجرا دينسارين فقط ، لا يزيد دنانير .. وقد تخرج الخلفاء من دعوتها للغناء عندهم فسقط أمرها وسيتبقى كذلك الى نهاية أمرها ..

قلت ذلك للمغنى الطنبورى المسمى بالمسدود فقال لى :

— لا تقل ذلك يا أحمد بن صدقة ، فانها المتقدمة على جميع الطنبورين والطنبوريات .. وقد أذلها الزمن واضطرها الى كسب عيشها بهذه الطريقة التى جعلتها من بنات الهوى ، وهى أستاذة فن الطنبور ! ..

ثم ضحك المسدود وقال :

— أتعرف غلامها الذى يلقبونه « ظئر عبيدة » ؟!

— ولماذا يلقبونه « ظئر عبيدة » .. أترضع عبيدة من ثديي كما يرضع الطفل من ثدى ظئره ؟!

— لا .. ولكنها تقول هازلة غير مبالية : هو بمنزلة بقل الطحان ، يصلح للظن والحمل والركوب .. واصفعه اذا شئت ! ..

قلت :

— أشتبى والله سماعها ! ..

قال المسدود :

— هذا يحتاج لنا بعد يوم أو يومين ان شاء الله ..

### ⑤ اليوم الثالث :

جلست عند بعض الكبراء اسمع غناء عبيدة الطنبورية .. وحضر جماعة من بينهم اسحاق الموصلى ، فلما غنت طرب اسحاق وشرب نصف قدح، فغعلنا مثله ، وجعلنا نشرب على غنائها نصفاً بعد نصف ، حتى والى اسحاق بين عشرة أنصاف وقد تملكه الطرب لغناء عبيدة ! ..

ثم انصرف اسحاق وبقينا نسمع ، فقال لها بعضهم :

— لا تبالي يا عبيدة بعد اليوم أن تموتى ! ..

— لان اسحاق الموصلى استحسن غناءك وشرب عليه ما شرب ، ولولا انك كنت متبينة لمحضره لكان غناؤك أحسن ، وطربه اكبر ! ٠٠ ووالله لقد رأيته مرات يستمع الى مخارق والى ابراهيم بن المهدي وهما اجمل الناس صوتا ، فما اهتز لاحد منهما ولا طرب ولا شرب ! ٠٠

قالت :

— انه يهتم بالصناعة لا بالصوت ، وصناعتى فى الطنبور دقيقة جدا لا يعرفها أحد ، حتى ان اسحاق نفسه ليعجز عنها ! ٠٠

خرجت من سهرة عبيدة الطنبورية ، فمررت بخالد بن يزيد الكاتب ، فقلت له : أنشدنى بيتين من شعرك حتى أغنى فيهما ، قال : وأى حظ لى فى ذلك ؟ ٠٠ فحللت له انى ان كسبت بهذا الشعر شيئا ، جعلت له نصفه ، فأنشدنى :

تقول : سلا ! ٠٠ فمن المدنف

ومن عينه ابدا تدوف ؟

ومن قلبه قلق خافق

عليك واحشاؤه ترجف ؟

فلما دعانى المأمون للغناء ، غنيته هذين البيتين ، فانقلبت عيناه غضبا وقال لى : يا ابن كذا وكذا ٠٠ ألك جاسوس فى قصرى ؟ ٠٠

فوثبت مرعوبا أقول :

— يا سيدى ما السبب ! ٠٠

قال والشرر يتطاير من عينيه :

— من أين عرفت قصتى مع جاريتى فغنيت فى معنى ما بينى وبينها من هجران وسلوان ؟

فحللت له انى لا أعرف شيئا من ذلك ، وحدثته كيف أنشدنى خالد الكاتب هذين البيتين ! ٠٠

فهذا وقال :

— ان هذا الاتفاق لعجيب ظريف ! ٠٠

ثم أمر لى بخمسة الاف درهم ولخالد بمثلها !

فلما انصرفت تبغنى بعض خدام القصر ممن أئق بهم فقال لى :

— أوشكت يا احمد أن تموت بسبب تفاحة عنبر ! ٠٠

فاستخبرته الخبر ، فقال :

— ان أمير المؤمنين غضب على جارية له حظية عنده ، فوجهت اليه الجارية بتفاحة من عنبر ، عليها مكتوب بالذهب : « يا سيدى ٠٠ سلوت ؟ » ٠٠

فلما غنيته أنت هذا الشعر الذى أوله : « تقول : سلا ! » - فمن المدنف ! »  
ظن أنك تعرض به ، وانك عرفت قصته مع الجارية فغضب حتى أوشك أن  
يأمر بضرب عنقك ! ..

### ● اليوم الرابع :

دخلت على المأمون فى يوم عيد السمعانيين الذى يحتفل به أهل الذمة ،  
فغنيته وغناه المفتون ، ثم جاءت اليه عشرون وصيفة روميات بأهراء الجمال ،  
يلبسن الزنار فى خصورهن ، وعليهن الحرير والذهب ، وفى أيديهن الخوص  
وأغصان الزيتون رمزاً لعيد السمعانين .. فأعجب بهن المأمون وحركن قريحتيه  
للشعر فقال هذه الابيات :

طلباء كالدنانير  
ملاح فى المقاصير  
جلاهن السمعانين  
علينا فى الزناير  
وقد زرفن أصداغا  
كأذناب الزواير  
واقبلن بأوساط  
كأوساط الزناير

ثم قال :

- يا أحمد .. غن على طنبورك فى هذه الابيات ! ..

فعملت على البدوية لحنا فى هذه الابيات ، وأخذت أغنيه للمأمون ، وهو  
يظهر ارتياحه وطوبه لغنائى ، ويشرب ، والجوارى يرقصن بين يديه أنواع  
الرقص العجيبة التى لم أر مثلها .. وفى إحدى الرقصات واسمها  
« المستند » يتماسكن بالأيدي ثم يفتقرن ثم يتماسكن .. وفى رقصة أخرى  
يقلدن الراكب على البعير فى حركته ، ثم يقلدن الجمل فى أنواع مشيه الذى  
يشبه الرقص ! ..

ولم يزل المأمون يشرب ويتلهى بالرقص والغناء حتى انتشى واكتفى ،  
فأمر لى بالف دينار ! ..

ثم أمر بعض غلمانه أن ينثروا على الجوارى الرقصات ثلاثة آلاف دينار ،  
فنثروها عليهن فوقن عليها يلتقطنها ويضعنها فى مناديلهن ، فوقعت  
مثلهن التتط ما أستطيع التقاطه من هذه الفضة الماطرة ذهباً ! ..

وعرفت عندئذ ان للفناء الطنبورى قيمة وثمنا .. وأننى أستطيع به أن  
أعيش ! ..



## فريدة تَطَّع أوتارها

### ● اليوم الاول :

أصل فارسي عريق .. كان أبى الحارث بن بسخر رفيع القدر عند الخليفة هارون الرشيد ، فولاه الأهواز كلها ، وهى عظمة الغلة والخراج ، فكان أبى ينال على عمله فيها أموالا جلية ، ويضى للدولة بالخراج ، فضلا عن هدايا للامراء من الجوهر والذهب والرقيق والخيل والبرادين وأشياء ثمينة كثيرة سماني أبى محمدا ، محبة فى محمد المهدي والد هارون الرشيد ، فلما كبرت صار من لا يعرفني يظنني عربي النسب حين يسمع الناس يسموني « محمد بن الحارث » فاذا ذكروا اسم جدى « بسخر » عرف حقيقة نسبى ، وانى لذو نسب فى العجم عظيم .. كان أجدادى من المرازبة ذوى الإبهة والسلطان قديما ! ..

لم أرث عمالا كثيرا عن أبى الذى أنفق ما كسب طول حياته فى قضساء حاجات الناس والأحسان اليهم بالجوائز والصلوات ، كانه عربى بل هاشمى .. كان يتصدقه الشعراء وذوو الحاجات فيعطيههم أكثر مما يعطيهم بنو هاشم حتى ليأمر بأربعين ألف دينار لرجل يلقاه فى الطريق ، أو بمائة ألف درهم لشاعر أو لذى حاجة يطرق بابى ! ..

هكذا ضاعت ثروته ، وتركنى وأهلى فقراء يحسبنا الجاهل أغنياء من التعفف ! ..

كان أبى صاحب ذوق مرهف فى السماع لا يصطفى لتعليم جواريه الا شيخ الملحن اسحاق الموصلى ، فصرن أبرع الجوارى غناء .. وكان اسحاق يستحسن غناءهن ويعتمد عليهن فى تعليم بعض جواريه اللاتى يعدهن للبيع أو لاهدائهن الى الخليفة وكبار رجال دولته ، استدامة لمودتهم وحسن رأيهم وعظائمهم .

وعن جوارى أبى استطعت أن آخذ ما حفظن قديما من ألحان اسحاق الموصلى فحفظتها حتى صار اسحاق يقول من أراد أن يأخذ من الحانى شسيتا على أصله ، فليأخذ من محمد بن الحارث ، فانه أسرع خلق الله أخذًا لالحانى ! احترفت الغناء لما نفذ مبرائى المتواضع ، وصرت فى حاجة الى الكسب ، ولكنى وجدتنى ضعيفا فى التلحين المتقن على العود ، فصرت أغنى ارتجالا ، وبرعت فى الارتجال وأعجبت الناس ودخلت مجالس للخلفاء ! ..

لم انتفع في غنائي المرتجل بآلة موسيقية ، الا معزفة صغيرة اضرب عليها حين أغنى ، فكان بعض المفتين يضحكهم شكل هذه المعزفة حتى سموها « مصيدة الفار » .. فحلقت الا أغنى بها أبدا !

### ● اليوم الثاني :

في سهرة أمير المؤمنين الوراق ، والمفتون حاضرون وفيهم اسحاق الموصلي ، قال لي الوراق :

— يا محمد بلغنا ان اسحاق يزعم انك أقدر من يأخذ عنه الالحان بلا خطأ البتة ، ففن شيئا مما أخذت عنه !

فالتفت الى اسحاق كاني أسأله ماذا أغنى ؟ .. فلم يرني لضحك بصره ، فغنيت لحنه الذي صنعه في بيتين من شعره

إذا المرء قاسى الدهر وابيض رأسه

وئلم تثليثم الأناء جوانبسه

فليس له في العيش خير وان بكى

على العيش او رضى الذى هو كاذبه

فرايت اسحاق يشرب رطل النبيذ ويمسح طربا ، وما أطيب هيئته في شيخوخته وقد أخذه الطرب ، لولا انه صار يعانى من ضعف بصره ، كان الله في عونته وهو يحمل عبء الثمانين !

أما الوراق فانه قال لي

— أحسنت يا محمد ما شئت ! .. فبحياتي أعد اللحن

ثم أمر فجاءت جواريه ، وعلى رأسهن « فريدة » البارعة الجميلة ، فجلسن وراء ستارة ، ليأخذن اللحن عنى ..

فلما كثر ترديدى اللحن — وهو صعب — اجتمع كل من حضر أن يأخذه عنى ، حتى أخذوه جميعا ، وعلى رأسهم الخليفة الوراق ! .. وقال عمرو بن بانة الذى يغنى ارتجالا مثلى وهو الذى أهدى للوراق جاريته « فريدة » التى صارت أحظى جواريه :

— يا أمير المؤمنين .. علمت منذ سنوات ان هبة الله بن ابراهيم بن الماهدي يغنى هذا اللحن أجمل غناء ، فسمعته منه فكان كذلك ، فلما سمعته الآن من محمد بن الحارث علمت انه أحذق الناس جميعا بالحن اسحاق الموصلي مع انه مغن مرتجل لا يعرف ضرب العود .. وانما كان يغنى الى عهد قريب على مصيدة الفار ! ..

فضحك الوراق ، وتبسم اسحاق ، وتغامز المفتون ، وسمعنا من وراء ستارة الجوارى همسا وضحكا خافتا !

خجلت فلم أرد على ابن بانة ، وخفت من سلاطة لسانه وقربه من الخليفة

بعد أن أهدى إليه جاريته « فريدة » أحب جواريه إليه ..

ثم قال الخليفة لاسحاق الموصلي كأنه يتوسل إليه :

.. وأنت أبا محمد .. الا تغفينا الليلة شيئا !؟ ..

فأخذ اسحاق العود فجسه فكانما لمب عفريت من الجن بأوتار العود ،  
ثم غنى ، وقد ضعف صوته لشيخوخته لكن بقيت فيه صناعته الفائقة :

**ذكرتك اذ مرت بنا ام شادن**

**امام المطايا تشرئب وتسنج**

**من المؤلفات الرمل آدماء حرة**

**شعاع الضحى فى متنها يوضح**

**قطرب الوراق وصاح :**

.. احلفتك بحياتي ان تميده وتطرحه على الجوارى حتى ياخذنه ! ..

فقال اسحاق :

.. لا يستطيع الجوارى ان ياخذنه منى ، ولكن ياخذنه من محمد بن الحارث  
فانه يحفظه ! ..

ثم انصرف اسحاق الى منزله بجائزة كبيرة .. وقمت أنا الى بهو فى القصر  
أطارح الجوارى هذا اللحن ، وبقي الخليفة والمغنون فى مجلسه يناهعون الغناء  
والمفادمة ! ..

فلما عدت ، وجلت جارية تغنى :

**أصبح الشيب فى المفارق شاعا**

**واكتسى الرأس من مشيب قناعا**

**وتولى الشباب الا قليلا**

**عم يابى القليل الا وداعا**

فلما أتمته الجارية ، تجادل فيه المغنون فى حضرة الوراق .. قال مخارق :  
أظن هذا اللحن لمحمد بن الحارث .. فقال علويه : هيهات ! .. ليس هذا  
مما يدخل فى صنعة ابن الحارث .. لكنه يشبه صنعة ذلك الشيطان اسحاق  
الموصلي ! .. فقال الوراق : أظنه كذلك ! .. ثم أوما ناحيتى كأنه يسألنى :  
لمن هذا اللحن !؟ ..

قلت : صدق علويه يا أمير المؤمنين .. هذا لاسحاق ومنه أخذته ، وعن  
أخذته هذه الجارية اذ أمرنى أمير المؤمنين منذ مدة أن أطارحها به ..

فتذكر الوراق وقال :

.. نعم .. كذلك كان ! ..

### ● اليوم الثالث :

صارت نوبتي قى خدمة أمير المؤمنين في كل جمعة ، اذا جاء للوعده ركبت الى قصره ، فأجده أحيانا مع اسحاق الموصلي وأحيانا مع جاريته فريدة .. ولكل من نوبة لا يحضر الى القصر الا فيها ، أما السهرات الجامعة فتكون بأمر من الخليفة ، وليس لاسحاق نوبة ولا يحضر الى الخليفة الا بعد تتابع الرسل اليه والحافهم في استدعائه ! ..

كانت نوبتي أمس ، ولم يكن عند الوثائق الا فريدة ، فسألني الوثائق :  
- من أحسن من سمعت من المغنيات منذ عهد المأمون الى اليوم ١٩ ..  
قلت :

- فريدة وشارية أطيب المغنيات صوتا واتقاناً للاداء .. ومتميم أحسنهن تلحيناً ، وعريب أغزهن .. وعلى الجملة فاني لم أسمع أحسن من فريدة وشارية ومتميم وعريب وريق .. وقال لي اسحاق الموصلي ان ( بذل ) كانت في طبقتهم ولم اسمعها ! ..

قال الوثائق :

- صدقت .. كذا سمعت منه ! ..

ثم انصرفتم الى داري ، فلم أكد أجلس حتى هجم على مجلسي رسل الخليفة وقالوا لي : أحب أمير المؤمنين ! .. قلت خائفا : خيرا ١٩ .. قالوا : خيرا ان شاء الله .. قلت : لعلكم غلطتم ! .. قالوا : الله المستعان .. لا تطل ! فقد أمرنا الا ندعك تستقر على الارض ! ..

فداخلتى فزع شديد ، وخفت أن تكون وشاية قد غيرت رأى الخليفة في امرى ، فأوصيت ثم ركبت حتى وافيت القصر ، وهممت أن أهمل من الباب الذى رسم الخليفة أن يكون دخول المغنين منه ، فمنعني الحراس ، وأخذنى الخدم فأدخلوني فى معمرات لا أعرفها فزدت جزعا ، ولم يزل الخدم مسلمونى من حارس الى حارس حتى أفضيت الى صحن مفروش بأبهى الرياش ، حيطانه ملبسة بالوشى المنسوج بالذهب ، واذا الرائق على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب .. والى جانبه فريدة جاريته الاثيرة الحظية لديه جدا ، عليها مثل ثيابه ، وفى حجرها عود ، فلما رآنى قال : أسرع يا محمد الينا ! ..

فقبلت الارض وقلت : يا أمير المؤمنين .. خيرا ..

قال : خيرا .. أما ترانا ١٩ .. طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ! .. فبحياتى بادر فكل شيئا وبادر الينا .. فقلت وقد اطمأن قلبى : قد والله يا سيدى أكلت وشربت أيضا ! ..

فأمر لى برطل نبيل ، واندفعت فريدة تغنى :

اهابك اجالا وما بك قسرة

على ولكن ملء عين حبيبها

## وما هجرتك النفس يا ليل انها

### قلتك ولا ان قل منك نصيبها

فجاءت والله في غنائها بالسحر ، وأوشكت أن اقتضض من شدة طربى في مجلس الخليفة ، وجعل الواصل يجاذبها ، وفي خلال ذلك تغنى اللحن بعد اللحن .. ثم يامرني فأغني أنا في خلال غنائها وغناؤه .. فمرت بنا أطيب ساعة تمر بأنسان في الدنيا ! ..

وفجأة رفع الواصل رجله فضرب بها صدر فريد ضربة عنيفة تدهرجت منها من أعلى السرير الى الأرض وتكسر عودها ، وقفزت تعدو وتصيح ! .. وألا مشدوه مرعوب كالمنزوع الروح ! .. ولم أشك انه غضب لشدة طربى لها وما اجتمعنا عليه نحن الثلاثة من التبدل ورفع الكلفة .. وأطرقت أنوقع أن يامر بضرب عنقي ، وأعددت نفسى للموت ! .. على اننى فى الحقيقة برى لا ذنب لى ! ..

فانى لكذلك ، اذ قال لى : يا محمد ! .. ويحك ! .. أرايت أغرب مما تهبأ علينا ؟ ! ..

قلت :

— يا سيدى .. الساعة والله تخرج روحى ! .. فعلى من أصمابنا بعين الحسد لعنة الله ! .. فما كان السبب فيما حدث يا سيدى ؟ ! ..

قال وقد كسا وجهه اليأس والالم ! ..

— لا والله ! .. ولكن فكرت فى أن أخى جعفر « المتوكل » يلى الخلافة بعدى ويقعد هذا المقعد مع فريدة كما كانت معى ، فلم أطق صبرا وخامرنى ما أخرجنى الى الغضب ! ..

فسرى عنى ، وهان الامر عندى وقلت للخليفة :

— بل يقتل الله جعفر ولا يجلس هذا المجلس ، ويحبأ أمير المؤمنين أبدا

ثم قبلت الأرض وقلت :

— يا سيدى الله .. الله ! .. ارحمها ومر بردها ! ..

فجاءت وفي يدها عود جديد وعليها غير الثياب التى كانت عليها ، فجذبها وعانقها .. فبكى فريدة وبكى الواصل بكاء مرا اليا .. واندفعت أنا فبكيت لبيكانهما ! ..

ثم قالت فريدة :

— ما ذنبى ياسيدى ، وبأى شىء استوجبت عندك هذه العقوبة ؟ ! ..

فاعاد عليها الواصل ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى .. فقالت :

— سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقى الساعة وأرحمتنى من الفكر فى هذا ، وأرجت قلبك من الهم بى ! ..

## ● اليوم الرابع :

مات الوراق .. قال الاطباء وهم يعالجونه من مرض الموت انه شاب قوى وسيعيش خمسين أخرى ، فمات بعد خمسة أيام ..

تولى الخلافة المتوكل .. ومضت مدة ..

دخلت نفس الصحن الذهبي الذى رأيت فيه الوراق يضرب فريدة برجله حين تملكه الوسواس الذى كان ينغث في روعه انه يموت صغيرا ويورث الدولة من بعده أخوه جعفر المتوكل ، وقد صدق وسواس الوراق ، وصارت فريدة فى جملة جوارى المتوكل ! ..

رأيتها مع المتوكل فى الموضع الذى كانت فيه مع الوراق ، ولكنها لم تكن مع الخليفة الجديد كما كانت مع الخليفة الراحل ! ..

كانت ترفض أن تغنى للمتوكل .. فقال لى :

.. أما ترى ما أنا فيه من النكد من هذه الجارية ؟ .. اننى منذ الصباح أطلبها بأن تغنى فتأبى ! ..

فتلطف اليها وطلبت منها أن تغنى له .. وقلت لها :

.. سبحان الله .. أتخالفين ميدك وميدنا وسيد البشر ؟ ..

فضربت بالعود الأرض فتقطعت أوتاره ، ورمت بنفسها عن السرير الذهبى ، ومرت تعدو وتصيح حزنا على الوراق :

.. واسيده ! .. واسيده ! ..

ثم ماتت فريدة من التعذيب ضربا بالسياط على وجهها وهى تأبى أن تغنى للسيد الجديد ! ..

## ملك الطنبور

### ● اليوم الاول :

خدمت حتى يومنا هذا أربعة خلفاء ، أولهم أمير المؤمنين المأمون وآخرهم المتوكل على الله .. حياتي كلها في قصور بني العباس ومن يلوذ بهم من الكبراء وأرباب السيوف والاقلام ، وأول نشأتى فى صناعة الغناء عند الامير ابراهيم بن المهدي الذى شهد كل من استمع الى غنائه بأنه صاحب أجمل صوت فى الدنيا .. قال عنه بعض كبار المغنين انه أجمل الانس والجن والوحش والطير صوتا ! ..

ومنه تعلمت المثابرة فى طلب فن الغناء ، ولكنى لم أجد عنده رزقا يكفينى فانه أقرب الى البخل ، فانقطعت الى الامير أحمد بن الرشيد ، فأعجبه غنائى وعزفى على الطنبور ، غير انه كان يقول لى

— يا أبا حشيشة .. انك لن تتقدم فى صناعة الغناء الا اذا تعلمت ضرب العود وغنيت عليه ، وأراك تغنى بالطنبور وحده ولك فيه صنعة تفوقت فيها على كل طنبورى فى بغداد أو فى غيرها من البلاد ، ولكن الغناء الثقيل المتمدن انما يكون على العود لا على الطنبور ! ..

ولكنى اخلصت للطنبور ، ولم أجد العود موافقا لمذمبى الخاص فى الغناء وصارت لى فى الغناء على الطنبور براعة لا يتعلق بها أحد ممن يتغنسون على العود ، حتى ان المطرب الكبير مخارقا لما سمعنى قال لى

— والله ما فى الدنيا من يتغننى على الطنبور مثل غنائك .. وانى لاستهين بالطنبورىين وأراهم لا يحسنون الغناء المتقن ، الا أنت فقد صنعت على الطنبور ما لا نستطيع نحن أن نصنعه على العود ! ..

شكرت لمخارق هذا الشراء الذى لم أكن أتوقعه منه ، وكنا حينئذ بدمشق وفيها معسكر للخليفة المأمون فى بعض غزواته للروم ، فأخذنى مخارق اليه ، وقدمنى ووصفنى وقرظنى فأمرنى الخليفة بالغناء على طنبورى ، فغنيت أحسن غناء أقدر عليه ، وظهرت منه بجائزة عظيمة ..

سألنى المأمون عن اسمى ، فقلت :

— اسمى محمد بن أمية بن أبى أمية ، ولقبى أبو حشيشة ، والفساس لا يعرفوننى الا به ! ..

ضحك المأمون وقال :

— أظنك من أولاد بعض الكتاب ممن خدموا جدنا أمير المؤمنين المهدي رحمه الله ! ..

قلت

— نعم يا أمير المؤمنين .. كان جدي على كتابة السر وبيت المال والخاتم على عهد أمير المؤمنين المهدي رضي الله عنه ، وحج معه أربع حجج ! ..

### ● اليوم الثاني :

تذكرت اليوم وأنا في قصر المأمون ببغداد ، بداية شهرتي بالفساد معد سنين ، فإن بعض سراة بغداد سمعني ، فصرت منذئذ مغنيهم الوحيد ، لا يسمعون غناء من غيري ويسمونني « الظاريف » .. وأغدقوا على المال حتى اجتمع لي منه ما اشتريت به منزلاً ، وكنت من قبل أسكن بالكراء .. وسمعت عندهم من كثرة الأكل ، فقد كانوا أكثر الناس أكلاً ..

رأيت رجلاً منهم قد أكل هو وابن عم له اثنين وعشرين رأساً كباراً هن رهوس الغنم لم يتركوا من لحمها شيئاً ، وشريا من النبيذ حتى غابا عن الوعي ، وناما ساعة أو ساعتين ، فلما انتبهوا دعوا بطعام آخر ، وعادا يأكلان ، كأنهما لم يأكلا منذ ساعتين فقط اثنين وعشرين رأساً ! ..

ولكني الآن خفيف رشيق ، فما يصلح لمجالسة الخلفاء ومنادتهم والغناء لهم ، رجل ممتلئ شحماً ولحماً ! ..

جاءني مخارق قال

— يا أبا حشيشة .. ان المأمون أمرني أن أصبحك في سهرتنا عنده الليلة ، ولعله يأمرك أن تغنيه لحنك في شعر دعبيل :

كان ينهى فنهى حين انتهى  
وانجلت عنه غيابات الصبا  
خلع اللهو واضحى مسجلاً  
للنهي فضل قميص ودحا  
كيف يرجو البيض من أوله  
في عيون البيض شيب وجلا  
كان محلاً لآلهيسا فقد  
صار بالشيب لعينها قلبي

فاذا أمرك الخليفة ان تغنيه هذا اللحن ، فاقصر على البيتين الأولين ، لانه يكره أن يذكره أحد بالشيب ! ..

قلت

— عجبت لامير المؤمنين كيف وخطه الشيب وهو في سنن الاربعين او دونها ١٩ ! ..



ضحك مخارق :

- هذا من هبوم الملك ! .. ولو كنت يا أبا حنيفة أمير المؤمنين لاسرع  
الشيب الى رأسك ! ..

فلما جلسنا في حضرة المأمون ، وجاء دورى فى الغناء ، كنت قد نسيت  
نصيحة مخارق لى ، فغنيت الابيات الاربعة ومررت فيها كلها وأنا ذاهل  
فسمعت المأمون يقول وفى صوته أثر من غضب :

- يا مخارق .. الا تحسن تأديب هذا الفتى ؟

فتنبهت مذعورا ، وقلت وقد انتفضت قائما متوسلا :

- لا أعود الى مثل هذا يا أمير المؤمنين ! ..

ضحك المأمون وأشاح بوجهه عنى ، ثم أمر لى بجائزة أقل مما كنت  
أرجو ! ..

### ❁ اليوم الثالث :

دعانى ابراهيم بن المهدي .. قال لى :

- أحب أن تسمع ثلاث جوار عندي يغنين بعض الحانك على الطنبور ،  
فان كان فيما يغنيته خطأ فاصلحه لهن ..

جاء الخدم بالطعام والتبذ ، وجالسنى ابراهيم بن المهدي وشرب.وسقائى  
وبسطنى كل البسط .. ثم غنت الجارية الاولى لحنا لى فى شعر خاله  
الكاتب :

كيف احتيالى وانت لا تصل

عيل اصطبارى وقلت الحيل

ان كان جسمى هوأك ينجله

فان قلبى عليك يتكسل

فسألتى ابن المهدي وقد طرب وطربت مثله :

- أهذا اللحن لك ؟ ..

- نعم .. أصلح الله الامير ! ..

ثم جاءت الجارية الثانية فغنت لحنا آخر لى فى شعر خاله الكاتب :

وب هالى وللهوى

ما لهذا الهوى دوا

حاز طرفى الذى هوى

الحسن قلبى وما حوى

فكاد عطفى يذهب طربا لما سمعت من غناء الجارية ، كأننى أسمع اللحن

لاول مرة ولا أعرفه وهو لى وقد غنيتيه فى مجالس الخلفاء والكبراء ٠٠  
ثم الجارية الثالثة ، فلم يكن طربى لها أقل من طربى لاختيها ، وحميت  
نفسى وتشجعت وقلت فى نفسى : والله لاغنين لإبراهيم بن المهدي بعض  
الحنانى ٠٠ وغنيتيه :

لئن لى قلبك فى ذكره  
ولج حبيبك فى هجره  
لقد أورث العين طول البكا  
وعز الفؤاد على صبره

فطرب ابن المهدي واستعادنى اللحن ، ثم قال لى :  
- يا خليلي ٠٠ غناء الطنبور كله باطل ، الا هذا الغناء الذى نسمعه منك  
٠٠ فلا تترك هذا اللون من الغناء ، فلئن كان الطنبوريون جميعا على باطل ،  
انك لعلى حق لجودة طبعك فى الغناء ، وتفننك فى الطنبور .

### ● اليوم الرابع :

لم يكرمنى أحد من الخلفاء كما أكرمنى أمير المؤمنين المتوكل ٠٠ لقد  
غنيت للمامون والمعتمد والواثق وأخذت جوائزهم ، ولكن أحدا منهم لم  
ينبسط وجهه لى كما انبسط لى وجه المتوكل ٠٠ قال لى :

- يا أبا حشيشة تغن لنا فى شعرك :

اطعت الهوى وخلعت العذارا  
وباكرت بعد التواح العقارا  
ونازعت الكاس من هاشم  
كريم يحب عليها الوقارا  
فتى فرق الحمد أمواله  
يجر التميمى ويرخى الأزارا  
راى الله جعفر خير الأنام  
فملكه ووقاه الحنارا

فطرب المتوكل وشرب أقداحا ، واستعادنى اللحن مرارا ، ثم قال لى :

- يا أبا حشيشة ٠٠ ما أدري أشعرك خير من غنائك أم غنائك خير من  
شعرك ، فقد أحسنت فيهما جميعا ٠٠ ولو كنت أبا عبادة البحرى لما جئت  
بأحسن من هذا الشعر فى مدحنا ، ولو كنت مخارقا أو علويه لما أطربتنا  
كما أطربتنا وأنت أبو حشيشة ! ٠٠

ثم جاءت « محبوبه » جارية المتوكل الشاعر المغنية ، فدفع اليها تفاحة  
فقبلتها قبلتين أو ثلاثا ثم كتبت على رقعة :

يا طيب تفاحة ظفوت بها  
تشعل نار الهوى على كبلى  
لو ان تفاحة بكت كبكت  
من رحمتى هدم التى بيلى

فاستظرفها المتوكل واستملحها جدا ، وأمرها فغنت فى هذا الشعر ، ثم  
أمرنى فغنيت فيه ..

ومحبوبة جديرة باسمها ، فانها بارعة الحسن والظرف والادب ، تحسن  
قول الشعر والفناء ، وقد حظيت عند المتوكل حتى انه يجلسها الى جانبه  
فى السهرة اذا لم يكن عنده الا خواصه من المغنين والندماء ..

وهى تخصصنى بعطفها ، وتقول للمتوكل :

ـ ما فى الدنيا طنبورى يغنى كغناء أبى حشيشة ! ..

ولما قدم أحمد بن صدقة المغنى الطنبورى من الشام الى سامرا ، غنى فى  
مجلس المتوكل ، ولم أكن حاضرا ، فاستحسن غناؤه وأجزل صلته ، وحاول  
بعض حسادى أن يوهم المتوكل ان ابن صدقة هذا أبرع منى فى الغناء على  
الطنبور ، وكانت محبوبة حاضرة فقالت تدافع عنى بظهر الخيب :

ـ يا أمير المؤمنين .. لا تسمع فى أبى حشيشة قولا من هذا الحاسد ،  
فانى ابن صدقة وان كان محسنا فى صناعته ، لا يبلغ أن يكون غلاما من  
غلمان أبى حشيشة فى الغناء بالطنبور ..

### ● اليوم الخامس :

توفيت « شجاع » والددة المتوكل ، ويسمونها « السيدة » فلبث أياما  
لا يسهر ولا يشرب ! ..

فلما مضى شهر جلس للمنادمة ، وقال فيها هذا البيت :

تذكرت لما فرق الدهر بيننا

فغزيت نفسى بالنبي محمد

فأجازه بعض من حضر من الشعراء :

فقلت لها ان المنايا سسبيلنا

فمن لم يمّت فى يومه مات فى غد

فتطيرت من هذا البيت الثانى ، وقلت فى نفسى : ما بال هذا النماير  
الجاهل يذكر الموت ، كأنه يقول للخليفة : ماتت أمك أمس ، وأنت ميت  
اليوم أو غدا ..

تملكنى الشجن ، فلما أمرنى الخليفة بالفناء ، انحنيت على طنبورى  
أضرب وأغنى :

وليست عشيما الحمى بروجع  
اليك ولكن خل عيشك تدمعا  
واذكر أيام الحمى ثم أنشئ  
على كبدي من خشية أن تصدعا

فرايت المتوكل ينتفض طربا ، حتى اهتز قدح النبيذ في يده ، وشرب على  
غنائى مرات ، واستعادنى ، وخامره من الوجد ما لا يمكن وصفه ، ودمعت  
عيناه حتى تحدر الدمع على خديه ! ٠٠ ثم قال لى :

— ان اطرب الغناء وأشده تأثيرا ، ما يرجع القلب بكلامه والحنان ، وهذا  
الذى أسعنتيه جمع هاتين الصفتين ، فكان منى ما رأيت ! ٠٠

فقيمت على رجل قائلا :

— يا امير المؤمنين ٠٠ أسعدك الله ، وأطال بقاءك ، ومتعك بحياتك ، وأصلح  
بك للعنينا ، وأعز الدين ! ٠٠

ثم ارتج على فسكت وجلست ! ٠٠

فتبسم المتوكل ، واستدنانى اليه فدوت حتى قبلت طرف ردايه ،  
وبكيت ! ٠٠

لا ادرى لماذا بكيت ، ولكن السهرة من أولها الى آخرها كان يخيم عايبها  
الحزن ، فهذا أول مجلس للخليفة بعد وفاة والدته ، وكانت والله امرأة  
صالحة كثيرة الصدقات ، عظيمة المعروف ٠٠

### ● اليوم السادس :

اكتب هذا بعد شهور انقضت على مفكرتى السابقة ٠٠

غنيت فى مجلس امير المؤمنين المتوكل ، فبينما أنا منصرف رأيت جنودا من  
الترك يدخلون القصر بأسلحتهم ، ففزعت منهم فرأيت القائدين التركيين  
وصيفا وموسى بن بنا ومعهما « باغر » التركى الجلف ، يدخلون على الخليفة  
وقد أخذ منه الشراب ، وعنده وزيره الفتى بن خاقان شبه نائم ، فهجم باغر  
على الخليفة فضربه بالسيف ، ثم أخذته السيوف من كل جانب حتى خصله  
وتمزق لحمه وصبغ دمه البساط ، فصعنا وزيره وصاح فيهم :

— ويلكم ٠٠ امير المؤمنين ! ٠٠

ثم نظر فاذا امير المؤمنين ممزق الاشلاء ، فهجم عليهم بيديه فأغمدوا فيه  
سيوفهم ، ورأيت الشاعر أبا هبادة البحترى يجرى هاربا فجريت معه وجرى  
الندماء وهربت الجوارى ٠٠

وفى الصباح علمت أن القتلة لفوا الخليفة ووزيره فى البساط ودفترهما  
معا بدمائهما من غير تفصيل ! ٠٠

صادفت الشاعر البحترى فى بعض الطريق بسامرا فقال لى ان سبب

ما جرى ، ان المتوكل كان قد أراد خلع ولده محمدا المنتصر من ولاية العهد  
وتقديم ابنه المعتز عليه ، لان المعتز أمه أحظى بجوارى المتوكل وأجملهن على  
الاطلاق ، فصار المتوكل يوبخ ابنه المنتصر في الملأ ، ويسلط عليه القلمان  
يشتمونه ويؤذون به ، فحنن المنتصر على أبيه واتفق مع القادة الاتراك على  
قتله ليتولى مكانه .. وقد كان ! ..

اقتسم القواد جوارى المتوكل ، وهن ثلاثة الاف جارية ، فكانت « محبوبة »  
الشاعرة المشنية في قسمة القائد « وصيف » مع مئات من الجوارى الاخريات !  
استدعاني وصيف لاغنى ، فلما جئته رأيت عنده جوارى المتوكل متزينات  
متعطرات ، عليهن الثياب الملونة ، الا « محبوبة » فانها كانت في ثياب  
الحداد حزنا على المتوكل ! ..

فاشدد ذلك منها على « وصيف » وأراد أن يقتلها ، وكان صديقه « بغا »  
حاضرا فاستوهبها منه ، فوهبها له ، فأمر بإخراجها من سامرا الى بغداد ..  
وبعد مدة رأيتها عند بعض معارفها من بنى هاشم ، وقد جلست تغنى  
بأكية :

أى عيش يطيب لى  
لا أرى فيه جعفرى  
ملكاً قد راته عيني  
فتيلاً مغفراً  
كل من كان ذا هيام  
وحزون فقد برا  
غير محبوبة التى  
لا ترى الموت يشتري

ولم أزل منذ ذلك اليوم ، أزورها فأجدها تغنى هذه الابيات وتبكي ! ..  
فلا هى تبرا من الهيام والحزن ، ولا هى قادرة أن تشتري الموت ، كما تقول  
في شعرها وغنائها ! ..

# فهرس

## صفحة

مقدمة	٥
حكاية أول مطرب فى المدينة	٧
أستاذ المطربين	١٢
وجه الباب	١٧
ابن الرومية	٢٣
بطة الافراح	٢٩
غلام من اليمن	٣٥
الزرقاء تلتقط اللؤلؤتين	٤١
مجلس الطرب والفكاهة	٤٦
تلميذة الموصلى وجارية الرشيد	٥٢
السجن طريق الشهرة	٥٨
لعبة الجارية	٦٢
إقطاعية ذى الرمة	٦٧
غضب الرشيد وكرمه	٧٢
تاجر الجوارى	٧٧
الليالى الأربع	٨٣
بائع الأهزاج	٨٨
معاينة ابن المهدي	٩٣
دماء الزنادقة	٩٧
أيام الرشيد الأخيرة	١٠٣

١٠٨	.....	غناء على الذكريات
١١٣	.....	مليون درهم عباسي
١١٨	.....	منادمة المأمون
١٢٣	.....	الطفيلي الظريف
١٢٩	.....	مكائد المغنين
١٣٤	.....	راحة الأرواح
١٤٠	.....	الحياة ١٢٠ سنة
١٤٥	.....	تأويل الرؤيا
١٥٠	.....	الأمير في ثياب المغنين
١٥٥	.....	مطربة القصور
١٦٠	.....	قصة حب
١٦٦	.....	مطرب قليل البخت
١٧٢	.....	الأيام الجميلة
١٧٧	.....	دموع متيم
١٨٣	.....	مطرب عظيم .. ولكن
١٨٨	.....	سوق الغناء الطنبوري
١٩٣	.....	فريدة تقطع أوتارها
١٩٩	.....	ملك البتنبور

## الناشر

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٢ - ٨٦  
الترقيم الدولي ٥ - ٢٥٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN



الناشئ

